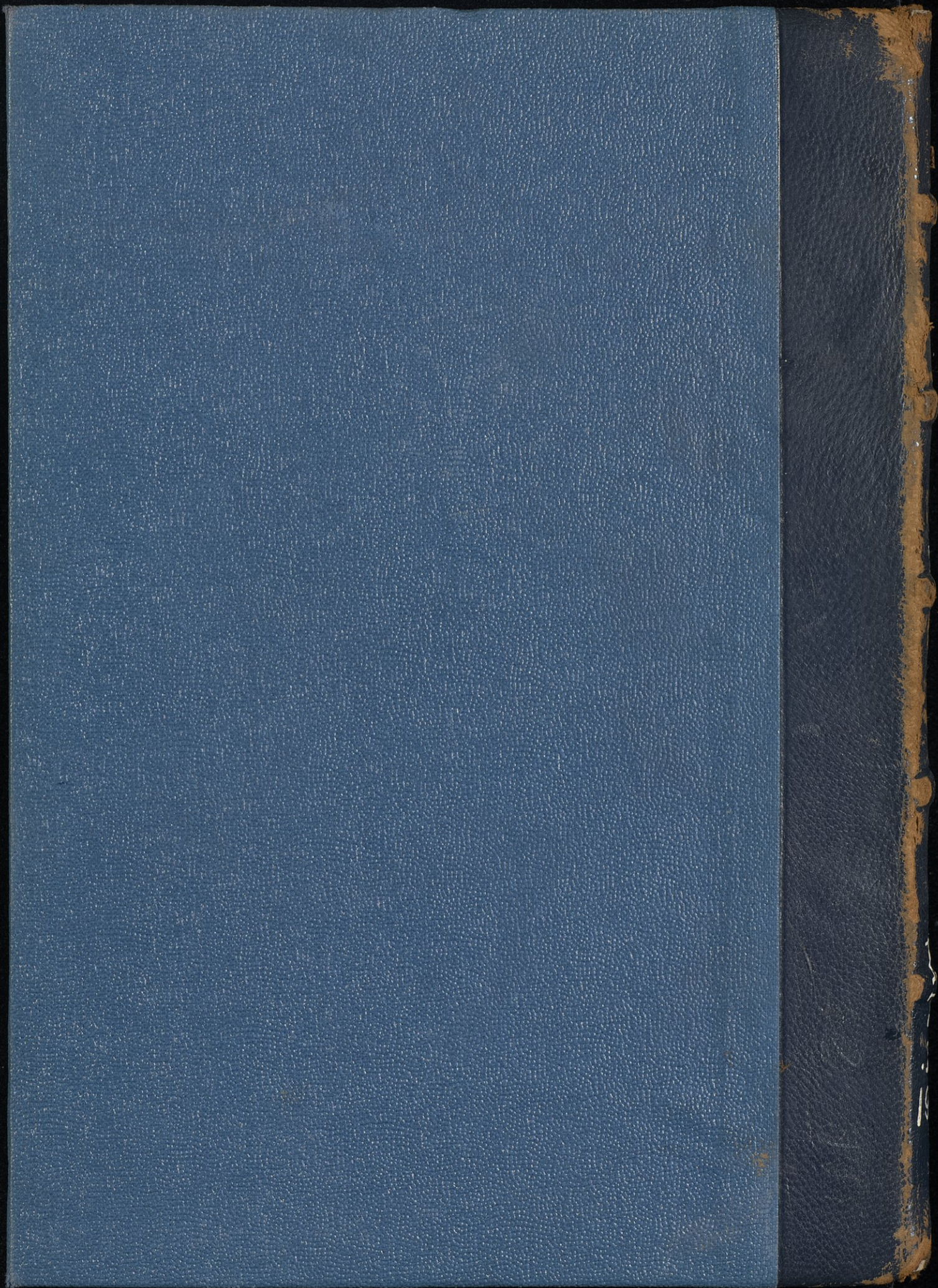
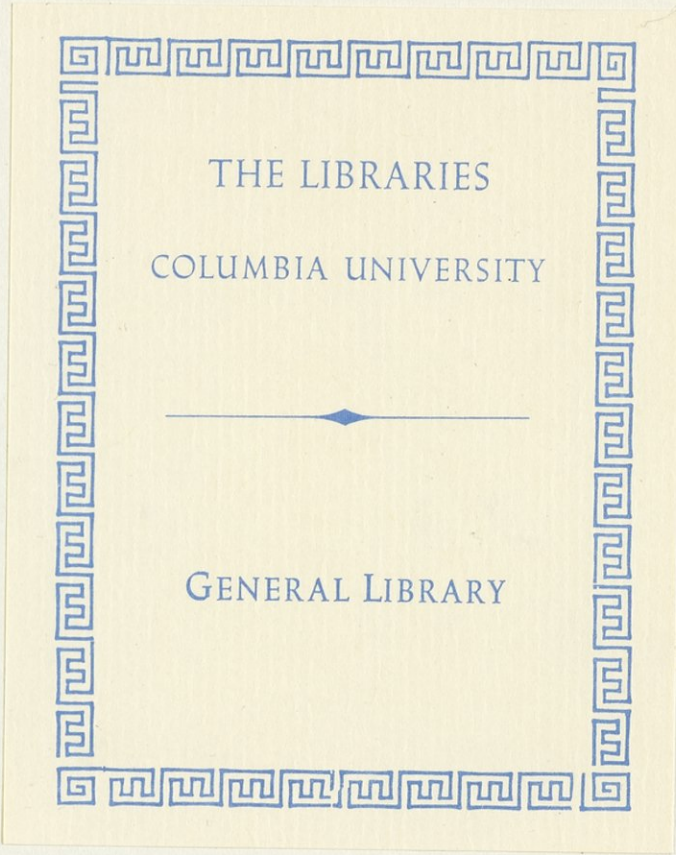
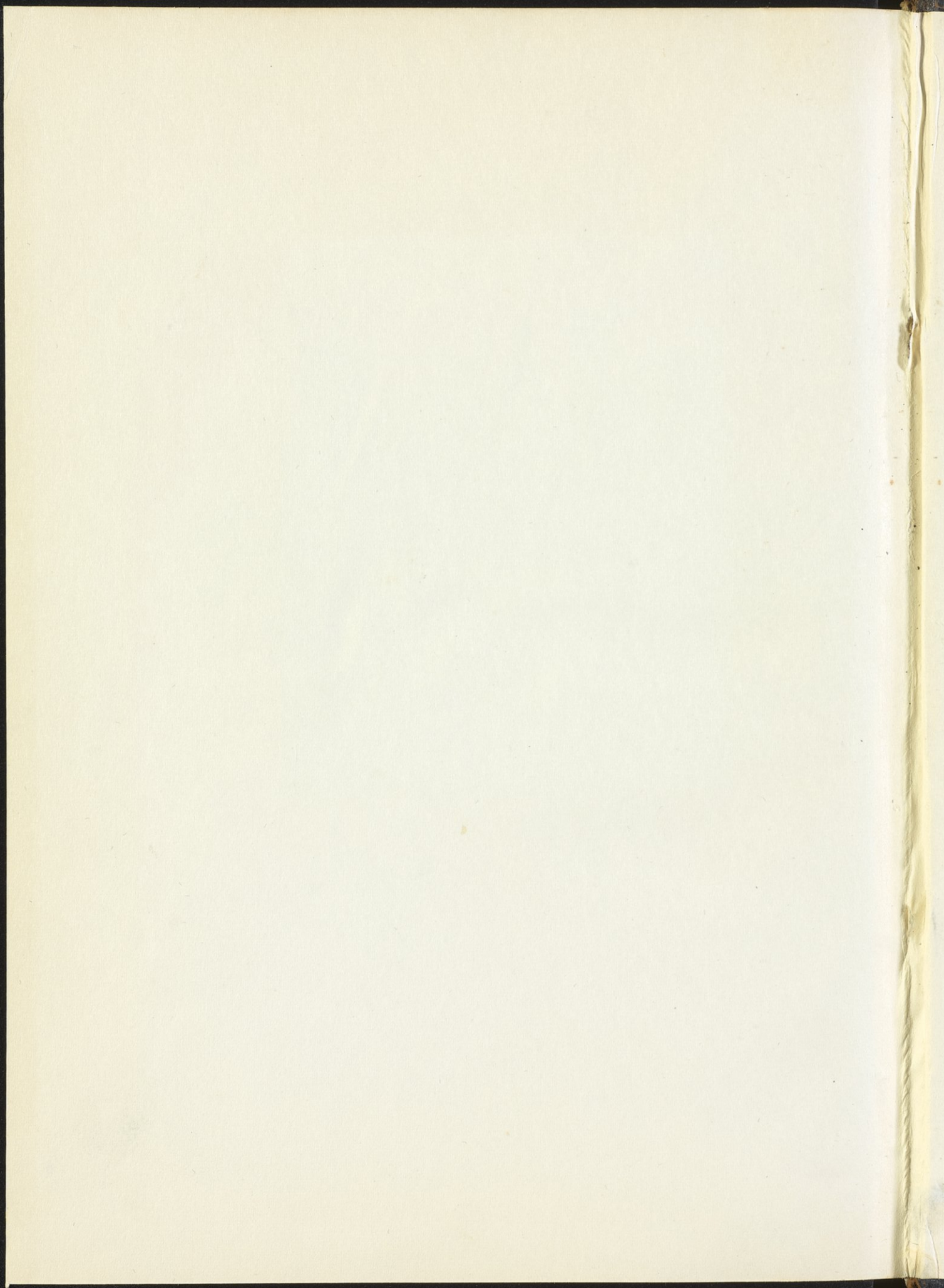


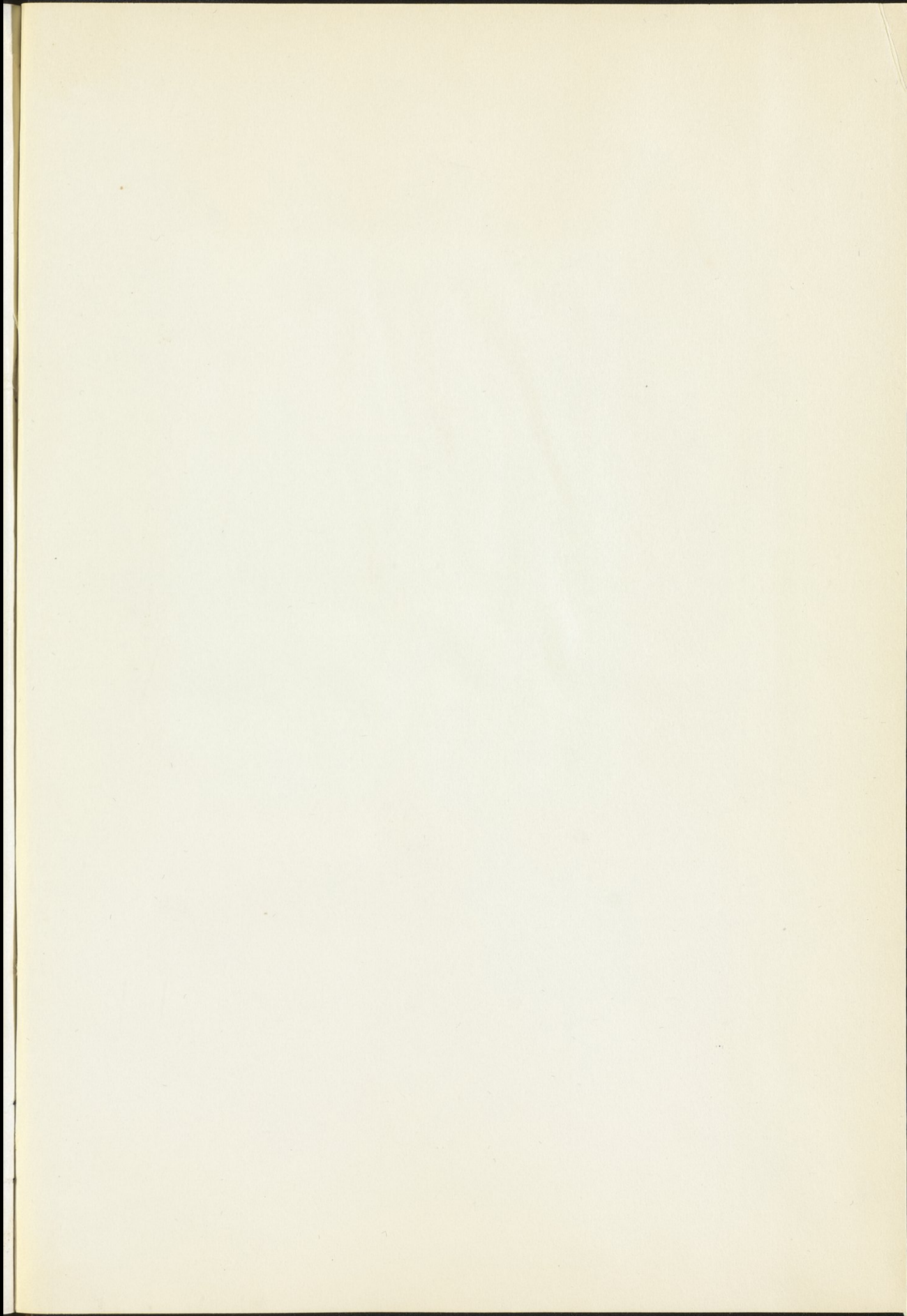


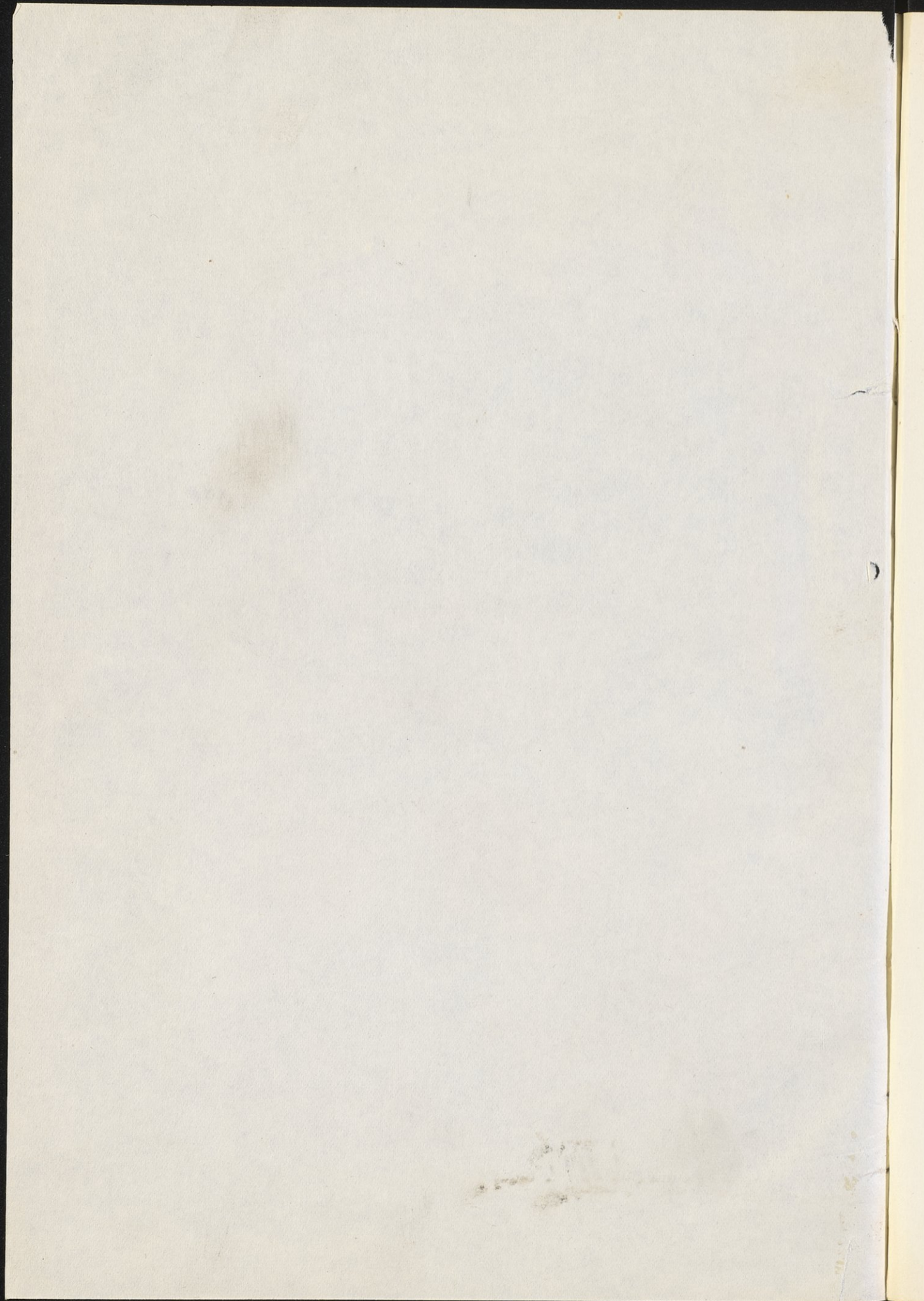


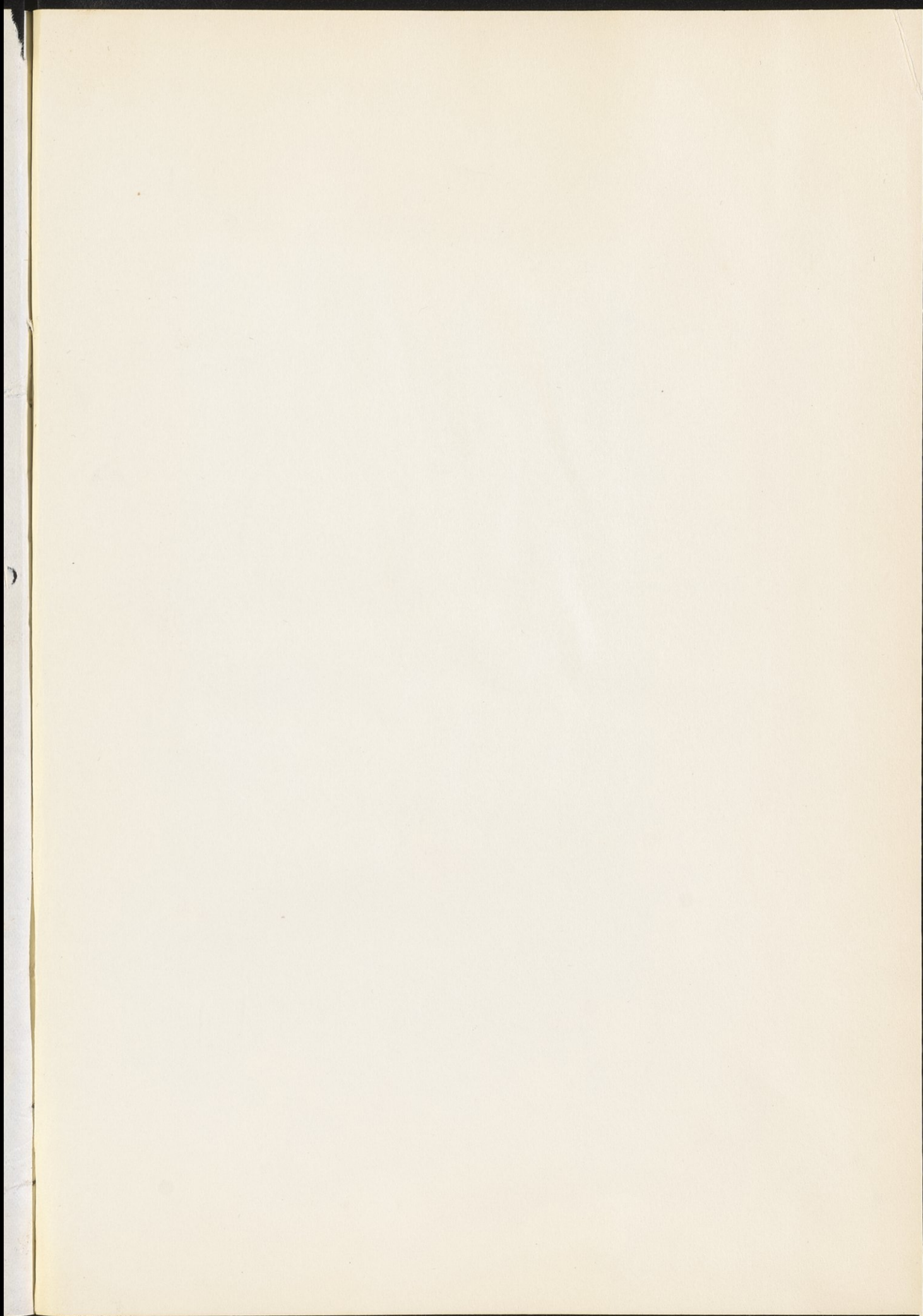
THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY

GENERAL LIBRARY









تَذِيْبُ
سَيَرَةِ ابْنِ هُشَايَمٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عبد السلام هارون

تقديم

سيرة ابن هشام

الجزء الأول



ملتزم الطبع والنشر

دار سديد مصر

للطبع والنشر والإعلان

١٠ شارع كامل مدني باشا بمصر

BP

75

.I2

1955

v. 1

كتاب الفقه

الشيخ

الشيخ

كتاب الفقه



کتابخانه ملی
جمهوری اسلامی ایران
دفتر کتابخانه و اسناد
تهران

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

نورٌ وهَّاجٌ أفضى إلى ظلمات الجهل والوثنية
فانجابت كما ينجاب الغمام ، وهدى من الله أرسله
إلى هذه الإنسانية الضالة فانتشلها من ضيقة
واتناشها من هلاك ، وأنقذها بما كانت تتخبط فيه
من دياجير الظلام وعقاييل الضلال .

كانت حياته صلى الله عليه وسلم صفحة
عريضة من صفحات الجهاد لإنقاذ هذه البشرية ،
ومثلاً صادقاً من مثل البرِّ والمرحمة ، وسيرة عالية
سامية في معاملة الخالق ومعاملة المخلوق ، تلعب
أضواء هذه السيرة في كتاب الله الذى يقول :
« وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » ، وفي آفاق الكتب
الوثيقة التى خطها العلماء منذ القدم ، متضمنة
نفحاتٍ من هذا العطر ، ومضاتٍ من ذلك
الإشراق .

صلى الله عليه وسلم ، ورضى وأنعم .

تفسير القرآن الكريم

فقد جاء في الروايات انك لما رجعنا الى ربنا
 لم نكن نقدر ان ندركه ، ولما ابصرنا
 بعينه ، لم نكن ندر اننا قد كنا في
 عينه ، فلهذا لا ندر اننا
 ندر اننا ، بل اننا ندر اننا ندر اننا

فكيف لم ندر اننا ندر اننا ندر اننا
 ، فلهذا لم ندر اننا ندر اننا ندر اننا
 ، فلهذا لم ندر اننا ندر اننا ندر اننا
 ، فلهذا لم ندر اننا ندر اننا ندر اننا
 ، فلهذا لم ندر اننا ندر اننا ندر اننا
 ، فلهذا لم ندر اننا ندر اننا ندر اننا
 ، فلهذا لم ندر اننا ندر اننا ندر اننا
 ، فلهذا لم ندر اننا ندر اننا ندر اننا
 ، فلهذا لم ندر اننا ندر اننا ندر اننا

فلهذا لم ندر اننا ندر اننا ندر اننا

تقديم

التاريخ والسيرة :

لم يعرف العرب التاريخ في جاهليتهم إلا ما توارثوه بالرواية ، وكانت طبيعة التاريخ حينئذ مسaire لطبيعة الحياة العربية ، ففيه مفاخر الآباء والاجداد ، من بطولة ومن كرم ومن وفاء ، وفيه الاخبار تدور حول الانساب والاحلاف ، وفيه ما صنعوا من حديث يذكر تاريخ البيت وسدنته ، وزمزم وانبعائها ، وأنباء جرهم وأمراء قريش ، وسد مأرب الذي انبثق فتمفرق القوم إثره في البلاد ، وما كان من أخبار الكهان وأسجاعهم ، ونحو ذلك مما يصور حياتهم الاجتماعية والسياسية والدينية .

وجاء الإسلام وتلك الاخبار تروى ، وتلك الانباء تؤثر ، ثم وجدوا في ظهور دعوة الإسلام وما سبقها من إرهاص بالنبوة ، ومن حياة الرسول الاولى ونشأته الكريمة ، وما تلا ذلك من أنباء الرسالة وأنباء المسلمين أصحاب رسول الله ، وأخبار أعداء رسول الله ، وسيرة رسول الله في المسلمين والمشركين والنصارى واليهود ، مادة غزيرة النبع واسعة الآفاق ، فتداولوا بينهم تلك الاخبار من طريق الرواية كذلك ، وكان القرآن الكريم والحديث النبوى وكلام الأصحاب ، سجلاً حافلاً لتلك الحياة الجديدة .

كان القرآن مكتوباً ، ولكن الحديث النبوى ظل دهرًا طويلاً في منأى عن الكتابة ، لا يعرفه الناس إلا رواية موثوقاً بها ، ولم يجرؤ أحد أن يكتب الحديث بصفة عامة ، استجابة لما ورد في حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تكتبوا عنى شيئاً سوى القرآن ، فمن كتب عنى شيئاً سوى القرآن فليمحجه » .

وكانت الحكمة في هذا ظاهرة ، وهي الخشية من أن يختلط الوحي بحديث الرسول في أثناء نزول الكتاب . وواضح أن هذا الأمر إنما كان يقصد به المحافظة على هذا الغرض الكريم ، وكان بلا ريب موقتا بنزول القرآن .

وظل الأمر كذلك حتى كانت أيام عمر بن عبد العزيز ، الذي ولى الخلافة من سنة ٩٩ إلى سنة ١٠١ . ويذكرون أنه ظل يستخير الله أربعين يوماً في تدوين الحديث ، فخار الله له ، وأذن لأبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم في تدوين الحديث ، فدون ما كان يحفظه ، في كتاب بعث به إلى الأمصار . وكان هذا أبو بكر قاضياً ووالياً على المدينة ، وتوفي سنة ١٢٠ .

كما أمر عمر بن عبد العزيز أيضاً محمد بن مسلم بن شهاب الزهري ، شيخ مالك ، أن يدون حديث رسول الله ، فصنع في ذلك كتاباً .

واستمر المسلمون من بعد ذلك يؤلفون في الحديث ، لا تنقيد كتبهم بنهج خاص في التنسيق والترتيب ، بل يجمعونها كما يتفق لهم ، وقد يصنف أحدهم كتاباً في باب خاص من أبواب التشريع . ثم تدرج التصنيف فألفيناهم يوبون كتب الحديث ، ويفردون من ذلك أبواباً خاصة لأخبار الرسول صلى الله عليه وسلم ، يذكرون ما كان من أمر ولادته ورضاعه وما بعدهما إلى البعثة ، ثم يفصلون أحواله بعد ذلك في مكة ، من دعوته قريشاً إلى دين الله ، وصبره على إيذائهم له ولأصحابه ، ويتناولون أخبار الغزوات والسرايا وما أشبه ذلك من أمور الجهاد .

وانطلق المؤرخون في سبيل آخر يؤلفون في التاريخ كتباً عامة ، وقد يخصص أحدهم تاريخاً لحياة الرسول الكريم ، يشبعون بذلك ميولهم الدينية الخاصة ، التي ترى في الرسول — لاريب — قدوة المسلمين ، وهدى المهتدين .

مؤلفو السير :

فكان أول كتاب السيرة عروة بن الزبير بن العوام (٩٢) وأبان عثمان (١٠٥) ووهب بن منبه (١١٠) وشرحبيل بن سعد (١٢٣) وابن شهاب الزهري (١٢٤) وعبد الله بن أبي بكر بن حزم (١٣٥) . وقد بادت كتب

هؤلاء جميعا لم يبق منها إلا أشلاء متناثرة في بطون كتب التاريخ كتاريخ الطبري ، وإلا قطعة من كتاب وهب بن منبه محفوظة في مدينة هيدلبرج بألمانيا .
ثم جاءت طبقة من المؤلفين كان أشهر رجالها موسى بن عقبة (١٤١)
ومعمر بن راشد (١٥٠) ومحمد بن إسحاق (١٥٢) .
وطبقة أخرى كان منها زياد البكائي (١٨٣) والواقدي صاحب المغازي (٢٠٧)
وابن هشام (٢١٨) ومحمد بن سعد صاحب الطبقات (٢٣٠) .

سيرة ابن إسحاق :

وكان أشهر هذه الكتب وأعلاها مقاما وأشدها وثوقا ، سيرة محمد بن إسحاق^(١) التي ألفها في أوائل أيام العباسيين . يروون أنه دخل على المنصور ببغداد ، وبين يديه ابنه المهدي ، فقال له المنصور : أتعرف هذا يا ابن إسحاق ؟ قال : نعم ، هذا ابن أمير المؤمنين . قال : اذهب فصنف له كتابا منذ خلق الله آدم عليه السلام إلى يومك هذا . فذهب ابن إسحاق فصنف له هذا الكتاب ، فقال له : لقد طولته يا ابن إسحاق ، اذهب فاختره . وألقى الكتاب الكبير في خزانة أمير المؤمنين .

سيرة ابن هشام :

وقد جاء بعده ابن هشام^(٢) فروى لنا هذه السيرة مهذبة منقحة بعد تأليف ابن إسحاق لها بنحو نصف قرن ، بواسطة رجل واحد ، هو زياد البكائي^(٣) .

١ - هو محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار ، أبو عبد الله المدني القرشي ، مولى قيس بن مخزومة بن المطلب بن عبد مناف . كان جده يسار من سبي عين التمر ، بلدة غربي الكوفة على طرف البرية ، افتتحها المسلمون في خلافة أبي بكر سنة ١٢ هـ فجاء به إلى المدينة ، وولد حفيده محمد فيها سنة ٨٥ هـ وأنشأ بالمدينة ثوب شبابه ورحل إلى البلدان الإسلامية ، وكانت رحلته إلى الإسكندرية في سنة ١١٥ هـ فحدث عن جماعة من المصريين ، ثم رحل إلى الكوفة والجزيرة والري والبحيرة وبغداد حيث ألقى عصاه ووافته منيته فيها سنة ١٥٢ هـ . وفيه يقول ابن عدي : « لو لم يكن لابن إسحاق من الفضل إلا أنه صرف الملوك عن الاشتغال بكتب لا يحصل منها شيء للاشتغال بمغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومبعثه ومبتدأ الخلق ، لكانت هذه فضيلة سبق بها ابن إسحاق » .

٢ - هو أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري . كان منشؤه بالبصرة ، ثم نزل مصر واجتمع به الإمام الشافعي ، وتناشدا من أشعار العرب الشيء الكثير . وصنف ابن هشام سوى تهذيبه سيرة ابن إسحاق كتابا في أنساب حمير وملوكها ، وكتابا في شرح ما وقع في أشعار السير من الغريب . توفي بالفسطاط سنة ٢١٨ هـ .

٣ - هو الحافظ أبو محمد زياد بن عبد الملك بن الطفيل البكائي العامري الكوفي ، والبكائي نسبة إلى بني البكاء من بني عامر بن صعصعة . قدم زياد إلى بغداد وحدث بها بالمغازي عن محمد بن إسحاق ، وبالفرائض عن محمد بن سالم ، ثم رجع إلى الكوفة فمات بها في خلافة هارون سنة ١٨٣ هـ . وكان ابن هشام يقدر هذا الشيخ حق قدره ، فيقول في صدر كتابه : « وأنا تارك أشياء بعضها يشنع الحديث به ، وبعض يسوء بعض الناس ذكره ، وبعض لم يقر لنا البكائي بروايته » .

ولم يكن كتاب ابن إسحاق الذي رواه ابن هشام بهذا القدر الذي بين أيدينا اليوم ، فإن ابن هشام تناول جوانب سيرة ابن إسحاق بكثير من التحرير ، والاختصار ، والإضافة ، والنقد أحيانا ، والمعارضة بروايات أخر لغيره من العلماء كذلك . وقد ساق في صدر السيرة بعض منهجه لرواية ذلك الكتاب .

ونحن لا نشك مع ذلك أن ابن هشام كان ملتزما جانب الأمانة والحرص في رواية كتاب ابن إسحاق ، لم يبدل منه كلمة واحدة ، ولم يزد كلمة لبيان الخطأ أو شرح الغامض أو معارضة الروايات إلا صدرها بقوله « قال ابن هشام » .

وأما الاختصار فإنه كان المقصد الأساسي من روايته للسيرة ، فحذف ما كان قبل تاريخ إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام منذ بدء الخليفة ، وكذا حديث أبناء إسماعيل ، والأخبار التي ليست من السيرة في شيء — فيما كان يراه هو — وحذف الأشعار الكثيرة التي كان يشك في مبلغ روايتها من الصحة .

والمتعقب لأصل السيرة من رواية ابن هشام يلمح في ذلك طابع الحرص الشديد والأمانة الصارمة ، التي كانت سمة العلماء المسلمين في تلك العصور القديمة .

منزلة سيرة ابن هشام :

ومهما يكن من شيء فإن كتاب ابن إسحاق كان العمدة لقراء السيرة منذ قديم الزمان إلى يومنا هذا ، ولا تكاد تجد رجلا أو غلّا في دراسة سيرة الرسول إلا وكتاب ابن إسحاق إمامه الأول في ذلك .

وقد عرفت سيرة ابن إسحاق بين العلماء منذ عهد عهيد باسم « سيرة ابن هشام » لما أنه كان راويها ومهذبها . يقول ابن خلدون : « وابن هشام هذا هو الذي جمع سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم من المغازي والسير لابن إسحاق ، وهذبها ولخصها ، وهي السيرة الموجودة بأيدي الناس ، المعروفة بسيرة ابن هشام » .

وقد لقيت هذه السيرة من الدارسين والشارحين عناية صادقة ، شرحها

أبو القاسم عبد الرحمن السهيلي^(١) (٥٨١) شرحاً مسهباً في كتابه المسمى « الروض
الأنف » .

وجاء بعده أبو ذر الحُشَنِي^(٢) ، فتصدى للكتاب فشرح غريبه ، وكتب شيئاً
من النقد في كتابه « شرح السيرة النبوية » ، الذي نشره الدكتور برونله .
وصنع بدر الدين محمد بن أحمد العيني شرحاً لها سماه « كشف اللثام » ، في شرح
سيرة ابن هشام « فرغ منه سنة ٨٠٥ .

ومن ناحية أخرى نجد آخرين قد عنوا باختصار السيرة ، منهم برهان الدين
إبراهيم بن محمد المرحل الشافعي ، اختصرها وزاد عليها بعض ما كان ينقصها
في كتاب جعله ثمانية عشر مجلساً ، سماه « الذخيرة » ، في مختصر السيرة » أتم
تأليفه سنة ٦١١ . وأبو العباس أحمد بن إبراهيم بن عبد الرحمن الواسطي ،
اختصرها في كتاب سماه « مختصر سيرة ابن هشام » ، فرغ منه سنة ٧١١ .

ومن نظمها شعراً أبو محمد عبد العزيز بن محمد بن سعيد الدميدي الديري
وكانت وفاته في حدود سنة ٦٠٧ . وأبو نصر الفتح بن موسى بن محمد المغربي
المتوفى سنة ٦٦٣ . وأبو بكر محمد بن إبراهيم المعروف بابن الشهيد المتوفى
سنة ٧٩٣ . وقد سمي كتابه « الفتح القريب » ، في سيرة الحبيب » ، وهو في
بضع عشرة ألف بيت .

تهذيب سيرة ابن هشام :

وقد كنت في صدر الشباب أحاول المرة بعد الأخرى أن أقرأ هذا
الكتاب الجليل من مبتدئه إلى منتهاه ، فكان يصدني عن ذلك ما كنت

١ - هو أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أصبغ الحثعمي السهيلي الاندلسي المالقي .
وسهيل : واد بالاندلس من كورة مالقة . عاش حياته في الاندلس اذ ولد بها سنة ٥٠٨ ، وأقام
بمراكش أعواماً ثلاثة حيث توفي بها سنة ٥٨١ .

٢ - هو أبو ذر مصعب بن محمد بن مسعود الجياني الحشني ، نسبة الى خشين ، وهي قرية
بالاندلس ، وقبيلة من قضاة . ولد سنة ٥٣٣ وتوفي سنة ٦٠٤ .

أجده في ذلك التأليف من اضطراب واستطراد يكبد الذهن ويجلب السآمة ،
فلا أقرأ منه إلا أجزاء متناثرة أراها كالرياض في صميم الفلاة ، يغريني بقراءتها
ما يجتذبنى من جمال القول وجلال الغاية .

والحق أننى كنت أجد في تلاوة السيرة شيئاً مما كنت أجد في تلاوة الكتاب
الكريم وحديث الرسول من تعبد صادق وخشوع خاضع . ولعل سرا دفينا كان
ينزع بى إلى معاودة تلك التلاوة ، أن والدى رحمه الله كان بمن ألفوا في السيرة ،
صنع في ذلك موجزا سماه « تلخيص الدروس الأولية » ، في السيرة المحمدية ، جعله
في ثلاثين فصلا ، وظل ذلك الكتاب دهرا طويلا لا يدرس سواه في المعاهد
الدينية ، إذ كان من برامج الدراسة فيها درس خاص يسمى « درس السيرة » .

ولكنى مع ذلك لم أوفق لقراءة الكتاب كله ، لما ذكرت من اضطراب التأليف
وشيوع الاستطراد . فقارى السيرة تعترضه فصول طوال في أسماء أسارى بدر ،
وأسماء خيل المسلمين ببدر ، وجريدة من حضر ببدر من المسلمين من قريش ومن
الأنصار ، ومن استشهد منهم يوم بدر ، ومن قتل به من المشركين ، وما قيل من
الشعر في يوم بدر ، وأشباه ذلك من الأمور السردية ، ومن الأشعار المسهبية والأنساب
المطولة ، والاستطرادات اللغوية ، وطائفة من تفسير كتاب الله مما لا يدخل في صميم
السيرة وإن كان يحوم حولها . وشئ آخر هو السند الذى تصدر به معظم فقار
السيرة ، مما ليس له قدر إلا عند الناقلين من العلماء .

فحاولت في هذا « التهذيب » أن أستخلص لباب هذا التأليف لأقدمه إلى
القارى فى ثوب جديد يستسيغ النظر فيه ، ولا تنقطع به السبيل فى تلاوته ، مع
الحرص التام على نص الكتاب ، بحيث يستطيع القارى أن يقتبس منه ويستشهد به
معزواً إلى أصله الأول ، فإنى لم أبدل حرفاً واحداً من نص الكتاب ، لأنى
راعى فيه أمانة الأداء ، وراعى باطراد أن أنسب إلى ابن هشام ما هو له بأن
أنص على ذلك فى صدر كلامه ، أو أجعله وحده فى حاشية الكتاب معزواً إليه ،
طبقاً لما يقتضيه التأليف . وأما سائر النصوص فهى نصوص ابن إسحاق من

رواية ابن هشام . ولم أذكر من الأسناد إلا ما هو ضروري لإقامة النص ، بما رواه ابن إسحاق أو ابن هشام منسوبا إلى قائله .

وقد عُنيت أن أضبط تلك النصوص جميعا ، وأن أفسر منها ما يحتاج إلى توضيح ، معتمداً في ذلك على شراح السيرة ، وكتب الآثار واللغة المعتمدة .

وأما بعد فإنّ التهذيب ضرب من التيسير لمن لم تتج له قراءة الأصل ، ووصلة صالحة تصل بين شباب اليوم وتراثهم القديم الكريم .

وبحسبك أنك تستطيع أن تقرأ هذا الكتاب في أيام معدودات فتظفر منه بالخير العاجل الكثير ، وأنت إذا قرأت الأصل ، ولست بمطيقه ، اقتضاك هذا من الوقت أشهراً معدودات .

والله أسأل أن يجعل هذا الكتاب نافعا ، كما أحسبه فيما قدمت للعلم من مجهود ضئيل ، أردت به فيما أردت رضوان الله ورضوان الرسول ؟

مصر الجديدة في منتصف رمضان سنة ١٣٧٤ .

عبد السلام هارون

تَهْذِيبُ
سَيَرَةِ ابْنِ هِشَامٍ

بیلمه
تولشون باقیت

ذكر سرد النسب الزكي

من محمد صلى الله عليه وسلم إلى آدم عليه السلام

قال أبو محمد عبد الملك بن هشام :

هذا كتاب سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم : محمد بن عبد الله
 ابن عبد المطلب (واسم عبد المطلب شيبه) بن هاشم (واسم هاشم عمرو)
 ابن عبد مناف (واسم عبد مناف المغيرة) بن قصي (واسم قصي زيد)
 ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر
 ابن كنانة بن خزيمة بن مدركة (واسم مدركة عامر) بن الياس بن مضر
 ابن نزار بن معد بن عدنان بن أد بن مقوم بن ناحور بن تيرح
 ابن يعرب بن يشجب بن نابت بن إسماعيل بن إبراهيم خليل الرحمن
 ابن تارح (وهو آزر) بن ناحور بن ساروغ بن راعو بن فالخ بن عيبر
 ابن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح بن كمش بن متوشلخ بن أخنوخ
 (وهو إدريس النبي صلى الله عليه وسلم فيما يزعمون) بن يرد بن مهليل
 ابن قين بن يانش بن شيث بن آدم صلى الله عليه وسلم .

قال ابن هشام :

وأنا إن شاء الله مبتدئ هذا الكتاب بذكر إسماعيل
ابن إبراهيم ، ومن ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم من
ولده وأولادهم لأصلاهم ، الأول فالأول ، من إسماعيل إلى رسول
الله صلى الله عليه وآله وسلم ؛ وما يعرض من حديثهم ، وتارك ذكر
غيرهم من ولد إسماعيل على هذه الجهة ، للاختصار ، إلى حديث سيرة
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتارك بعض ما ذكره ابن إسحاق
في هذا الكتاب مما ليس لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فيه ذكر ،
ولا نزل فيه من القرآن شيء ، وليس سبباً لشيء من هذا الكتاب
ولا تفسيراً له ، ولا شاهداً عليه ، لما ذكرت من الاختصار ، وأشعاراً
ذكرها لم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرفها ، وأشياء بعضها يشنع
الحديث به ، وبعض يسوء بعض الناس ذكره ، وبعض لم يقر
لنا البكائي^(١) بروايته ، ومستقص إن شاء الله تعالى ما سوى ذلك منه
بمبلغ الرواية له ، والعلم به .

(١) هو شيخ ابن هشام وتلميذ ابن إسحاق ، واسمه زياد بن عبد الله بن الطفيل
البكائي . والبكاء : بطن من بني عامر بن صعصعة . توفي سنة ١٨٣ .

سياقة النسب من ولد إسماعيل

ولد إسماعيلُ بن إبراهيم عليهما السلام اثني عشر رجلاً : نابتا ،
وقيدر ، وأذبل ، وميشا ، ومسمعا ، وماشي ، ودما ، وأذر ، وطيا ،
ويطور ، ونبش ، وقيدم .

فولد نابت بن إسماعيل يشجب بن نابت ، فولد يشجب يعرب ،
فولد يعرب تيرح ، فولد تيرح ناحور ، فولد ناحور مقوم ، فولد
مقوم أدد ، فولد أدد عدنان .

فمن عدنان تفرقت القبائل من ولد إسماعيل ، فولد عدنان رجلين :
معد بن عدنان ، وعك بن عدنان .

فصارت عك في دار اليمين . وذلك أن عكا تزوج في الأشعريين
فأقام فيهم ، فصارت الدار واللغة واحدة . والأشعريون بنو أشعر بن
نبت بن أدد بن هميسع بن عمرو بن عريب بن يشجب بن زيد بن
كهلان بن يشجب بن يعرب بن قحطان .

وولد معد بن عدنان أربعة نفر : نزار ، وقضاة ، وقنص ، وإياد .
فأما قضاة فتيامنت إلى حمير بن سبأ . وأما قنص بن معد فهلك
بقيتهم فيما يزعم نساب معد ، وكان منهم النعمان بن المنذر ملك الحيرة .

رؤيا ربيعة بن نصر

وكان ربيعة بن نصر ملك اليمن بين أضعاف ملوك التبابعة ، فرأى رؤيا هالته وفضع بها ، فلم يدع كاهناً ولا ساحراً ولا عاثفاً^(١) ، ولا منجماً من أهل مملكته إلا جمعه إليه ، فقال لهم : إني قد رأيت رؤيا هالتي وفضعت بها ، فأخبروني بها وتأويلها . قالوا له : اقصصها علينا نخبرك بتأويلها ، قال : إني إن أخبرتكم بها لم أطمئن إلى خبركم عن تأويلها ، فإنه لا يعرف تأويلها إلا من عرفها قبل أن أخبره بها . فقال له رجل منهم : فإن كان الملك يريد هذا فليبعث إلى سطيح وشق^(٢) ، فإنه ليس أحداً أعلم منهما ، فهما يخبراناه بما سأل عنه .

فبعث إليهما فقدم إليه سطيح قبل شق . فقال له : إني قد رأيت رؤيا هالتي وفضعت بها فأخبرني بها ، فإنك إن أصبتها أصبت تأويلها . قال : أفعل ، رأيت حممة ، خرجت من ظلمة ، فوقعت بأرض تهمة^(٣) ، فأكلت منها كل ذات جمجمة^(٤) !

فقال له الملك : ما أخطأت منها شيئاً يا سطيح ، فما عندك في تأويلها ؟ فقال : أحلف بما بين الحرّتين من حنش ، لتهبطن أرضكم الحبش ، فليملك ما بين أبين إلى جرش^(٥) !

(١) العائف : الذي يزجر الطير ، يتكهن بأسمائها وأصواتها ومرورها .

(٢) الحممة : القطعة من النار . تهمة : منخفضة .

(٣) أبين وجرش : بلدان في اليمن .

فقال له الملك : وأبيك يا سطيح ، إن هذا لنا لغائظٌ موجه ، فمتى هو كائن ؟ أو في زمانى هذا أم بعده ؟

قال : لا ، بل بعده بحين ، أكثر من ستين أو سبعين ، يمضين من السنين !

قال : أفيدوم ذلك من ملكهم أم ينقطع ؟

قال : لا ، بل ينقطع لبضع وسبعين من السنين ، ثم يُقتلون ويخرجون منها هاربين .

قال : ومن يلى ذلك من قتلهم وإخراجهم ؟

قال : يليه إرم بن ذى يزن ، يخرج عليهم من عدن . فلا يترك أحدا منهم باليمن .

قال : أفيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع ؟

قال : بل ينقطع . قال : ومن يقطعه ؟ قال نبيٌ زكى ، يأتيه الوحي من العلى ! قال : ومن هذا النبي ؟ قال : رجل من ولد غالب بن فهر ابن مالك بن النضر . يكون الملك فى قومه إلى آخر الدهر !

قال : وهل للدهر من آخر ؟

قال : نعم ، يوم يُجمع فيه الأولون والآخرون ، يسعد فيه المحسنون ، ويشقى فيه المسيئون .

قال : أحقُّ ما تخبرنى ؟

قال : نعم . والشفق والغسق ، والفلق إذا اتسق ، إنَّ ما أنبأتك لحق .

ثم قدم عليه شق فقال له كقولك لسطيح ، وكتمه ما قال سطيح
لينظر أيتفان أم يختلفان .

قال : نعم ، رأيت حممة ، خرجت من ظلمة ، فوقعت بين أرض
وأكمة ، أكلت منها كل ذات نسمة .

فلما قال له ذلك عرف أنهما قد اتفقا ، وأن قولهما واحد ، إلا أن
سطيحا قال : « وقعت بأرض تهمة ، فأكلت منها كل ذات جمجمة »
وقال شق : « وقعت بين روضة وأكمة ، فأكلت منها كل ذات نسمة » .

فقال له الملك : ما أخطأت يا شق منها شيئا فما عندك في تأويلها ؟
قال : أحلف بما بين الحرّتين من إنسان ، لينزلن أَرْضكم السُودان ،
فليغلبن على كل طفلة البنان . وليلكن ما بين أبين إلى نجران !
فقال له الملك : وإييك يا شق إن هذا لنا لغائظ موجه فتى هو
كائن ؟ أفى زمانى أم بعده ؟

قال : لا ، بل بعده بزمان ، ثم يستنقذك منهم عظيم ذو شان ،
ويذيقهم أشدّ الهوان !

قال : ومن هذا العظيم الشأن ؟ قال : غلام ليس بدني ولا مدني^(١) ،
يخرج عليهم من بيت ذى يزن ، فلا يترك أحدا منهم بالين .

قال : أفيدوم سلطانه أم ينقطع ؟ قال : بل ينقطع برسول مرسل ،

(١) المدني : المقصر في الأمور ، أو من يتبع خسيسها .

يأتي بالحق والعدل ، بين أهل الدين والفضل ، يكون الملك في قومه
إلى يوم الفصل .

قال : وما يوم الفصل ؟ قال : تُجْزَى فيه الولاية ، ويُدعى
فيه من السماء بدعوات ، يسمع منها الأحياء والأموات ، ويجمع
فيه بين الناس للبيقات ، يكون فيه لمن اتقى الفوز والخيرات !

قال : أحق ما تقول ؟ قال : إى ورب السماء والأرض ، وما بينهما
من رفع وخفض ، إن ما أنبأتك به لحق ، ما فيه أمض^(١) .

فوقع في نفس ربيعة ما قالوا ، فجهّز بيته وأهل بيته إلى العراق
بما يصلحهم ، وكتب لهم إلى ملك من ملوك فارس يقال له سابور
ابن خرزاد ، فأسكنهم الحيرة .

(١) أى ما فيه شك أو باطل .

استيلاء أبي كرب تَبان أسعد على ملك اليمن

وغزوه إلى يثرب

فلما هلك ربيعة بن نصر رجع ملك اليمن كله إلى حسان بن تَبان
أسعد ، أبي كرب .

وكان أبوه تَبان أسعد قد جعل طريقه حين أقبل من المشرق على
المدينة ، فلم يَهْجِ أهلها ، وخلف بين أظهرهم ابناً له فُقتل غيلة ، فقدّمها
مرة أخرى وهو مُجمع لإخرابها واستئصال أهلها ، فجمع له هذا الحى
من الأنصار ، ورئيسهم عمرو بن طَلَّة ، فاقتتلوا . فتزعم الأنصار أنهم
كانوا يقاتلونه بالنهار ويقرّونه بالليل (١) فيعجبه ذلك منهم ويقول :
والله إن قومنا لكرام !

فبينما تبع على ذلك من قتالهم إذ جاءه حَبْران من أحبار يهود
علمان راسخان في العلم ، حين سمعا بما يريد من إهلاك المدينة وأهلها
فقالا له : أيها الملك ، لا تفعل ، فإنك إن آيت إلا ما تريد حيل بينك
وبينها ، ولم نأمن عليك عاجل العقوبة ! فقال لهما : ولم ذلك ؟ فقالا :
هى مهاجر نبي يخرج من هذا الحرم من قریش فى آخر الزمان تكون
داره وقراره !

(١) قرى الضيف يقريه : أضافه وأطعمه .

فتناهى عن ذلك ورأى أن لهما علماً ، وأعجبه ما سمع منهما
فانصرف عن المدينة واتبعهما على دينهما .

وكان تبع^(١) وقومه أصحاب أوثران يعبدونها ، فتوجه إلى مكة
وهى طريقه إلى اليمن ، حتى إذا كان بين عسفان وأج^(٢) أتاه نفر من
هذيل بن مدركة فقالوا له : أيها الملك ألا ندلك على بيت مالٍ دائر
أغفلته الملوك قبلك ، فيه اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة ؟
قال : بلى . قالوا : بيت بمكة يعبد أهله ، ويصلون عنده !
وإنما أراد الهذليون هلاكه بذلك ، لما عرفوا من هلاك من أراد
من الملوك وبغى عنده .

فلما أجمع لما قالوا أرسل إلى الخبرين فسألهما عن ذلك ، فقالا له :
ما أراد القوم إلا هلاكك وهلاك جندك ، ما نعلم بيتاً لله اتّخذ في
الأرض لنفسه غيره ، ولئن فعلت ما دعوك إليه لتهلكن وليهلكن
من معك جميعاً ! قال : فماذا تأمراني أن أصنع إذا أنا قدمت عليه ؟
قالا : تصنع عنده ما يصنع أهله : تطوف به وتعظمه وتكرمه ، وتحلق
رأسك عنده ، وتذلّ له حتى تخرج من عنده . قال : فما يمنعكما أنتما من
ذلك ؟ قالا : أما والله إنه لبيت أئينا إبراهيم ، وإنه لكما أخبرناك ،
ولكن أهله حالوا بيننا وبينه بالأوثان التى نصبوها حوله ، وبالدماء التى
يهرقون عنده ، وهم نجس أهل شرك !

(١) هو تبار أسعد والد أبي كرب .

(٢) أج : بلد من أعراض المدينة .

فَعَرَفَ نُصَحَهُمَا وَصَدَقَ حَدِيثُهُمَا ، فَقَرَّبَ النَّفَرَ مِنْ هُذَيْلٍ فَقَطَّعَ
أَيْدِيَهُمْ وَأَرْجُلَهُمْ ثُمَّ مَضَى حَتَّى قَدِمَ مَكَّةَ ، فَطَافَ بِالْبَيْتِ وَنَحَرَ عِنْدَهُ ،
وَحَلَقَ رَأْسَهُ وَأَقَامَ بِمَكَّةَ سِتَّةَ أَيَّامٍ يَنْحَرُ بِهَا لِلنَّاسِ وَيُطْعِمُ أَهْلَهَا
وَيَسْقِيهِمُ الْعَسَلَ .

وَأَرَى فِي الْمَنَامِ أَنَّ يَكْسُو الْبَيْتَ ، فَكَسَاهُ الْخَصَفَ^(١) ؛ ثُمَّ أَرَى
أَنَّ يَكْسُوهُ أَحْسَنَ مِنْ ذَلِكَ ، فَكَسَاهُ الْمَلَاءَ وَالْوَصَائِلَ^(٢) .

وَكَانَ تُبَعِّعُ فِيمَا يَزْعُمُونَ أَوَّلَ مَنْ كَسَا الْبَيْتَ وَأَوْصَى بِهِ وَلَاتِهِ مِنْ
جُرْهِمْ ؛ وَأَمَرَهُمْ بِتَطْهِيرِهِ ، وَالْأَلَّا يَقْرَبُوهُ دَمًا وَلَا مَيْتَةً وَلَا مِثْلَةَ^(٣) .
وَجَعَلَ لَهُ بَابًا وَمِفْتَاحًا .

ثُمَّ خَرَجَ مِنْهَا مُتَوَجِّهًا إِلَى الْيَمَنِ بِمَنْ مَعَهُ مِنْ جُنُودِهِ ؛ وَالْحَبَرِينَ
حَتَّى إِذَا دَخَلَ الْيَمَنَ دَعَا قَوْمَهُ إِلَى الدَّخُولِ فِيمَا دَخَلَ فِيهِ ؛ فَأَبَوْا عَلَيْهِ
حَتَّى يَحَاكُمُوهُ إِلَى النَّارِ الَّتِي كَانَتْ بِالْيَمَنِ .

وَكَانَتْ بِالْيَمَنِ نَارٌ تَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِيمَا يَخْتَلِفُونَ فِيهِ : تَأْكُلُ الظَّالِمَ
وَلَا تَضُرُّ الْمَظْلُومَ . فَخَرَجَ قَوْمُهُ بِأَوْثَانِهِمْ وَمَا يَتَقَرَّبُونَ بِهِ فِي دِينِهِمْ ؛
وَخَرَجَ الْحَبَرَانِ بِمَصَاحِفِهِمَا فِي أَعْنَاقِهِمَا مُتَقَلِّدِيهِمَا ، حَتَّى قَعَدُوا لِلنَّارِ
عِنْدَ مَخْرَجِهَا الَّتِي تَخْرُجُ مِنْهُ ؛ فَخَرَجَتْ النَّارُ إِلَيْهِمْ ، فَلَمَّا أَقْبَلَتْ نَحْوَهُمْ

(١) الْخَصَفُ : جَمْعُ خَصْفَةٍ ، وَهُوَ كِسَاءٌ غَلِيظٌ جَدَا .

(٢) الْمَلَاءُ : جَمْعُ مَلَاءَةٍ . وَالْوَصَائِلُ : ثِيَابُ يَمَانِيَةٍ .

(٣) الْمِثْلَةُ : خَرَقَةُ الْحَائِضِ .

حَادُوا عَنْهَا وَهَابُوهَا ، فَذَمَرَهُمْ ^(١) مِنْ حَضَرِهِمْ مِنَ النَّاسِ وَأَمَرُوهُمْ
بِالصَّبْرِ لَهَا ، فَصَبَرُوا حَتَّى غَشِيَتْهُمْ فَأَكَلَتِ الْأَوْثَانَ وَمَا قَرَّبُوا مَعَهَا ،
وَمَنْ حَمَلَ ذَلِكَ مِنْ رِجَالِ حَمِير . وَخَرَجَ الْخَبْرَانِ بِمَصَاحِفِهِمَا فِي
أَعْنَاقِهِمَا تَعَرَّقَ جَبَاهُمَا لَمْ تَضُرَّهُمَا ، فَأَصْفَقَتْ ^(٢) عِنْدَ ذَلِكَ حَمِيرٌ عَلَى
دِينِهِ ، فَمِنْ هُنَاكَ وَعَنْ ذَلِكَ كَانَ أَصْلُ الْيَهُودِيَّةِ بِالْيَمَنِ .

فَلَمَّا مَلَكَ ابْنَهُ حَسَانَ بْنَ ثُبَانَ أَسْعَدَ سَارَ بِأَهْلِ الْيَمَنِ يَرِيدُ أَنْ يَطَّأَ
بِهِمْ أَرْضَ الْعَرَبِ وَأَرْضَ الْأَعَاجِمِ ، حَتَّى إِذَا كَانُوا بِأَرْضِ الْبَحْرَيْنِ
كَرِهَتْ حَمِيرٌ وَقِبَائِلَ الْيَمَنِ الْمَسِيرَ مَعَهُ ، وَأَرَادُوا الرَّجْعَةَ إِلَى بِلَادِهِمْ
وَأَهْلِهِمْ ، فَكَلَّمُوا أَخَاهُ لَهُ يَقَالُ لَهُ عَمْرُو — وَكَانَ مَعَهُ فِي جَيْشِهِ —
فَقَالُوا لَهُ : اقْتُلْ أَخَاكَ حَسَانَ وَنَمْلِكْ عَلَيْنَا وَتَرْجِعْ بِنَا إِلَى بِلَادِنَا .
فَأَجَابَهُمْ فَاجْتَمَعُوا عَلَى ذَلِكَ ، إِلَّا ذَا رُعَيْنَ الْحَمِيرِيِّ ، فَإِنَّهُ نَهَاةً عَنْ ذَلِكَ ،
فَلَمْ يَقْبَلْ مِنْهُ ، فَقَالَ ذُو رُعَيْنَ :

أَلَا مَنْ يَشْتَرِي سَهْرًا بِنَوْمٍ سَعِيدٌ مَنْ يَلِيْتُ قَرِيرَ عَيْنٍ
فَإِنَّمَا حَمِيرٌ غَدَرْتُ وَخَانَتْ فَمَعْدَرَةُ الْإِلَهِ لَذَى رُعَيْنٍ

ثُمَّ كَتَبَهُمَا فِي رَقْعَةٍ وَخَتَمَ عَلَيْهَا ، ثُمَّ أَتَى بِهَا عَمْرًا فَقَالَ لَهُ : ضَعْ لِي
هَذَا الْكِتَابَ عِنْدَكَ . فَفَعَلَ ، ثُمَّ قَتَلَ عَمْرُو أَخَاهُ حَسَانَ وَرَجَعَ بِمَنْ
مَعَهُ إِلَى الْيَمَنِ .

(١) ذَمَرَهُ : لَامَهُ وَحَضَنَهُ

(٢) أَصْفَقَتْ : أَجْمَعُوا .

فلما نزل عمرو بن تبيان اليمى منع منه النوم وُسِّلَط عليه السهر ،
فلما جَهِدَه ذلك سأل الأطباء والحزاة^(١) من الكُهَّان والعَرَّافين عَمَّابه ،
فقال له قائلٌ منهم : إِنَّه والله ما قتل رجلٌ قطُّ أخاه أو ذا رَحِمِه بَغِيًّا ،
على مثل ما قَتَلْتَ أخاك عليه ، إِلَّا ذهب نومه وُسِّلَط عليه السهر . فلما
قيل له ذلك جعل يقتل كلَّ مَنْ أمره بقتل أخيه حسان من أشرف
اليمى ، حتَّى خَلَصَ إلى ذى رُعين ، فقال له ذو رعين : إِنَّ لى عندك
براءة . فقال : وما هى ؟ قال : الكتاب الذى دَفَعْتُ إليك . فأخرجَه
فإذا فيه البيتان ؛ فتركَه ورأى أَنه قد نصَحَه .

وهلك عمرو فمَرَجَ أمر حمير عند ذلك وتفرَّقوا .

فوثب عليهم رجلٌ من حمير لم يكن من بيوت المملكة يقال له :
« لَحْنِيعة يَنُوفُ ذو شَنَاتر » فقتل خيارهم وعَبَثَ ببيوت أهل
المملكة منهم .

وكان لَحْنِيعة امرأ فاسقا يعمل عمل قوم لوط ، فبعث إلى زُرْعَة
ذى نواس بن تبيان أسعد ، أخى حسان ، وكان صَبِيًّا صغيراً حين قُتِلَ
حسان ، ثم شبَّ غلاماً وسيماً ذا هيئة وعقل ، فلما أتاه رسوله عرف
ما يريد منه ، فأخذ سَكِيناً حديداً لطيفاً ، فخبأه بين قدمه ونعله ثم أتاه ،

(١) الحزاة : جمع حاز ، وهو الذى يزجر الطير ويستدل بأصواتها ومرورها
وأسمائها .

فلما خلا معه وثب إليه ، فواثبه ذو نواس ، فوجأه^(١) حتى قتله ، ثم خرج على الناس فقالوا : ما ينبغي أن يملكنا غيرك ، إذ أرحتنا من هذا الخبيث .

فلما كوه واجتمعت عليه حمير وقبائل اليمن ، فكان آخر ملوك حمير . وهو صاحب الأخدود ، فأقام في ملكه زمانا .

وكان بنجران^(٢) بقايا من أهل دين عيسى بن مريم عليه السلام ، أهل فضل واستقامة ، لهم رأس يقال له عبد الله بن الثامر ، فسار إليهم ذو نواس بجنوده فدعاهم إلى اليهودية . وخبرهم بين ذلك والقتل ، فحده لهم الأخدود^(٣) ، فحرق من حرق بالنار ، وقتل بالسيف ومثل بهم ، حتى قتل منهم قريبا من عشرين ألفا .

ففي ذى نواس ذلك وجنده أنزل الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم : (قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ . النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ . إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ . وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ . وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) .

ويقال : كان فيمن قتل ذو نواس عبد الله بن الثامر رأسهم وإمامهم .

(١) وجأه : ضربه بالسكين ونحوها .

(٢) بنجران : مخالف من مخاليف اليمن .

(٣) الأخدود : حفرة مستطيلة غامضة في الأرض .

علبة الحبشة على اليمن

وأفلت منهم رجلٌ من سبأ يقال له «دوس ذو ثعلبان» على فرسٍ له، فسلك الرمل فأعجزهم؛ فمضى على وجهه ذلك حتى أتى قيصر ملك الروم فاستنصره على ذي نواس وجنوده، فأخبره بما بلغ منهم. فقال له: بعدت بلادك منا، ولكنى سأكتب لك إلى ملك الحبشة فإنه على هذا الدين، وهو أقرب إلى بلادك. وكتب إليه يأمر بنصره، والطلب بثأره. فقدم دوس على النجاشي بكتاب قيصر، فبعث معه سبعين ألفاً من الحبشة وأمر عليهم رجلاً منهم يقال له أرياط، ومعه في جنده «أبرهة الأشرم».

فركب أرياط البحر حتى نزل بساحل اليمن ومعه دوس ذو ثعلبان وسار إليه ذو نواس في حمير ومن أطاعه من قبائل اليمن، فلما التقوا انهزم ذو نواس وأصحابه. فلما رأى ذو نواس ما نزل به وبقومه وجّه فرسه في البحر، ثم ضربه فدخل به فخاض به ضحضاح البحر^(١) حتى أفضى به إلى غمره^(٢) فأدخله فيه وكان آخر العهد به.

ودخل أرياط اليمن فملكها.

(١) الضحضاح: الماء اليسير الذي لا غرق فيه.

(٢) الغمر: الماء الكثير يغرق فيه.

نزاع أرياط وأبرهة

فأقام أرياط بأرض اليمن سنين في سلطانه ذلك ، ثم نازعه في أمر الحبشة باليمن أبرهة الحبشى حتى تفرقت الحبشة عليهما ، فأنحاز إلى كل واحد منهما طائفة منهم ، ثم ثار أحدهما إلى الآخر ، فلما تقارب الناس أرسل أبرهة إلى أرياط : إنك لا تصنع بأن تلقى الحبشة بعضها ببعض حتى تفنيها شيئا ؛ فبرز إلى وأبرز إليك فأثنا أصاب صاحبه انصرف إليه جنده . فأرسل إليه أرياط : أنصفت . فخرج إليه أبرهة وكان رجلاً قصيراً لحماً ، وكان ذا دين في النصرانية . وخرج إليه أرياط وكان رجلاً جميلاً عظيماً طويلاً ، وفي يده حربته له ، وخلف أبرهة غلام له يقال عتودة يمنع ظهره ، ورفع أرياط الحربة فضرب أبرهة يريد يافوخه^(١) فوقعت الحربة على جبهة أبرهة فشرمت حاجبته وأنفه ، وعينه وشفته ، فبذلك سمي « أبرهة الأشرم » . وحمل عتودة على أرياط من خلف أبرهة فقتله . وانصرف جند أرياط إلى أبرهة ، فاجتمعت عليه الحبشة باليمن .

(١) اليافوخ : وسط الرأس .

قصة أصحاب الفيل

ثم إن أبرهة بنى القُلَيْسَ^(١) بصنعاء ، فبنى كنيسةً لم يرَ مثلها في
في زمانها بشيءٍ من الأرض ، ثم كتب إلى النجاشي : إني قد بنيت لك ،
أيها الملك ، كنيسةً لم يَبْنِ مثلها لملكٍ كان قبلك ، ولست بممتةٍ حتى أصرف
إليها حجَّ العرب !

فلما تحمَّلت العرب بكتاب أبرهة ذلك إلى النجاشي غضب
رجلٌ من النِّسَاءِ^(٢) فخرج حتى أتى القُلَيْسَ فقعد فيها^(٣) ، ثم خرج
فالحق بأرضه .

فأخبر بذلك أبرهة فقال : مَنْ صنعَ هذا ؟ فقيل له : صنع هذا
رجلٌ من العرب من أهل هذا البيت الذي تحجُّ العرب إليه بمكة ، لما
سمع قولك « أصرف إليها حجَّ العرب » غضب فجاء فقعد فيها ، أي أنها
ليست لذلك بأهل .

فغضب عند ذلك أبرهة ، وحلف ليسيرنَّ إلى البيت حتى يهدمه .

(١) هي اسم الكنيسة التي أراد أبرهة أن يصرف إليها حج العرب .
(٢) النِّسَاءُ : جمع ناسٍ ، وهم الذين كانوا يندسُّون الشهور ، أي يؤخرونها
كانوا إذا صدروا من منى يقوم رجل منهم من كمنانة فيقول : أنا الذي لا أعاب
ولا أجاب ، ولا يرد لي قضاء ! فيقولون صدقت ، أنسئنا شهرا ، آخر عنا حرمة
المحرم واجعلها في صفر ، لأنهم كانوا يكرهون أن يتوالى عليهم ثلاثة أشهر حرم
لا يغيرون فيها ، لأن معاشهم كان من الغارة ، فيحل لهم المحرم . فذلك الإنساء .
(٣) أي أحدث .

ثم أمر الحبشة فتهيأت وتجهزت ، ثم سار وخرج معه بالفيل ، وسمعت بذلك العرب فأعظموه وفضّـعوا به ، ورأوا جهاده حقاً عليهم حين سمعوا بأنه يريد هدم الكعبة بيت الله الحرام .

فخرج إليه رجل كان من أشرف أهل اليمن وملوكهم يقال له : « ذو نفر » ، فدعا قومه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب أبرهة وجهاده عن بيت الله الحرام ، وما يريد من هدمه وإخراجه ، فأجابه إلى ذلك من أجابه ، ثم عرض له فقاتله ، فهزم ذو نفر وأصحابه ، وأخذ له ذو نفر فأتى به أسيراً .

ثم مضى أبرهة على وجهه ذلك يريد ما خرج له ، حتى إذا كان بأرض خثعم عرض له نفيل بن حبيب الخثعمي في قبيل خثعم : شهران وناهس ، ومن تبعه من قبائل العرب ، فقاتله فهزمه أبرهة ، وأخذ له نفيل أسيراً . فحلى سبيله وخرج معه يده ، حتى إذا مر بالطائف خرج إليه مسعود بن معتب ، في رجال من ثقيف ، فقالوا له : أيها الملك ، إنما نحن عبيدك ، سامعون لك مطيعون ، ليس عندنا لك خلاف . وليس بيتنا هذا الذي تريد — يعنون اللات — إنما تريد البيت الذي بمكة ، ونحن نبعث معك من يدلك عليه فتجاوز عنهم .

فبعثوا معه « أبارغال » يده على الطريق إلى مكة ، فخرج أبرهة ومعه أبارغال حتى أنزله المغمس^(١) ، فلما أنزله به مات أبارغال

(١) المغمس : موضع قرب مكة في طريق الطائف .

هنالك ، فرجمت قبره العرب ، فهو قبره الذي يرجم الناس بالمغمس .
فلما نزل أبرهة المغمس بعث رجلاً من الحبشة يقال له « الأسود
ابن مقصود » على خيل له حتى انتهى إلى مكة ، فساق إليه أموال تهامة
من قريش وغيرهم ، فأصاب فيها مائتي بعير لعبد المطلب بن هاشم ،
وهو يومئذ كبير قريش وسيدها ، فهمة قريش وكنانة وهذيل
ومن كان بذلك الحرم بقتاله ، ثم عرفوا أنهم لا طاقة لهم به
فتركوا ذلك .

وبعث أبرهة حنَاطة الحميري إلى مكة وقال له : سل عن سيد
أهل هذا البلد وشريفها ، ثم قل له : إن الملك يقول لك : إني لم آت
لحربكم ، إنما جئت لهدم هذا البيت ، فإن لم يعرضوا لنا دونه بحرب
فلا حاجة لي في دماءكم ، فإن هو لم يرد حربي فأنتي به .

فلما دخل حنَاطة مكة سأل عن سيد قريش وشريفها ، فقيل له :
عبد المطلب بن هاشم . فجاءه فقال له ما أمره به أبرهة فقال له
عبد المطلب : والله ما نريد حربه وما لنا بذلك من طاقة ، هذا بيت
الله الحرام ، وبيت خليله إبراهيم عليه السلام ، فإن يمنعه منه فهو بيته
وحرمة ، وإن يخل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه . فقال حنَاطة :
فانطلق معي إليه ، فإنه قد أمرني أن آتيه بك . فانطلق معه عبد المطلب
ومعه بعض بنيه حتى أتى العسكر فسأل عن « ذي نَفر » ، وكان له
صديقاً ، حتى دخل عليه وهو في محبسه فقال له : يا ذا نَفر ، هل عندك
من غناء فيما نزل بنا ؟ فقال له ذو نَفر : وما غناء رجل أسير بيدي

ملك ينتظر أن يقتله غدوًّا أو عشِيًّا ، ما كان عندي غناءً في شيء مما
نزل بك ، إلا أن أنيساً سائس الفيل صديقٌ لي ، وسأرسل إليه فأوصيه
بذلك وأعظم عليه حقك . وأسأله أن يستأذن لك على الملك فتكلمه بما
بدا لك ، ويشفع لك عنده بخير إن قدر على ذلك . فقال : حسبي .
فبعث ذو نفر إلى أنيس فقال له : إن عبد المطلب سيد قريش ،
وصاحب غير مكة يطعم الناس بالسهل ، والوحوش في رؤوس
الجبال ، وقد أصاب له الملك مائتي بعير ، فاستأذن له عليه وانفعه عنده
بما استطعت . فقال : أفعل .

فكلم أنيس أبرهة فقال له : أيها الملك ، هذا سيد قريش يبابك
يستأذن عليك ، وهو صاحب غير مكة^(١) ، وهو يطعم الناس في
السهل ، والوحوش في رؤوس الجبال ، فأذن له عليك فليكلمك في
حاجته . فأذن له أبرهة .

وكان عبد المطلب أوسم الناس وأجملهم وأعظمهم ، فلما رآه
أبرهة أجله وأعظمه ، وأكرمته أن يجلسه تحته ، وكره أن تراه الحبشة
يجلس معه على سرير مُلكه ، فنزل أبرهة عن سريرته ، فجلس على
على بساطه وأجلسه معه عليه إلى جنبه ، ثم قال لترجمانه : قل له حاجتك .
فقال له ذلك الترجمان ، فقال : حاجتي أن يردَّ علي الملك مائتي بعير

(١) العير ، بالكسر : قافلة التجارة .

أصابها الى . فليسا قال ذلك قال أبرهة لرجلانه : قل له : قد كنت أعجبتي
حين رأيتك ، ثم قد زهدت فيك حين كلمتني . أتكلمني في مائتي بعير
أصبتها لك وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه لا نكلمني
فيه ؟ ! قال له عبد المطلب : إني أنا رب الإبل ، وإن للبيت رباً سيمنعه !
قال : ما كان ليمنع مني ! قال : أنت وذلك

ورد أبرهة على عبد المطلب الإبل التي أصاب له . وانصرف
عبد المطلب إلى قريش فأخبرهم الخبر ، وأمرهم بالخروج من مكة
والتحرز في شعف الجبال والشعاب^(١) ، تخوفاً عليهم من معرة
الجيش^(٢) . ثم قام عبد المطلب فأخذ بحلقة باب الكعبة ، وقام معه
نفر من قريش يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده فقال
عبد المطلب ، وهو آخذ بحلقة باب الكعبة :

لَا هُمْ إِنْ الْعَبْدِيَّةَ نَعُ رَحْلَهُ فَاَمْنَعُ حِلَالَكِ^(٣)
لَا يَغْلِبُنَّ صُلَيْبُهُمْ وَمَحَالُهُمْ غَدَوًا مَحَالَكِ^(٤)
إِنْ كُنْتَ نَارَكُهُمْ وَقِي لَمَّا فَأَمْرٌ مَا بَدَا لَكَ

(١) التحرز : التمتع والتحصن . شعف الجبال : رؤوسها . الشعاب : المواضع
الخفية بين الجبال .

(٢) معرة الجيش : شدته .

(٣) الحلال : جمع حلة ، بالكسر ، وهم القوم المجتمعون . ويروى : «رحالك» .

(٤) المحال ، بالكسر : الشدة والقوة .

ثم أرسل عبد المطلب حلقة باب الكعبة ، وانطلق هو ومن معه
من قريش إلى شحف الجبال فتحرزوا فيها ينتظرون ما أبرهة فاعلٌ
بمكة إذا دخلها .

فلما أصبح أبرهة تهيأ لدخول مكة ، وهياً فيه ، وعي جيشه ،
وكان اسم الفيل « محمودا » ، وأبرهة مجمعٌ لهدم البيت ثم
الانصراف إلى اليمن ، فلما وجهوا الفيل إلى مكة أقبل
نفيل بن حبيب حتى قام إلى جنب الفيل ثم أخذ بأذنه فقال : أبرك
أو ارجع راشدا من حيث جئت ، فإنك في بلد الله الحرام ! ثم أرسل
أذنه فبرك الفيل ، وخرج نفيل يشتد حتى أصعد في الجبل ، وضربوا
الفيل ليقوم فأبى ، فضربوا رأسه بالطبرزين^(١) ليقوم فأبى ، فأدخلوا
مخارجهم في مرقاه فبرغوه بها ليقوم فأبى^(٢) ، فوجهوه راجعا إلى
اليمن فقام يهرول ، ووجهوه إلى الشام ففعل مثل ذلك ، ووجهوه
إلى مكة فبرك ، فأرسل الله تعالى عليهم طيراً من البحر أمثال
الخطاطيف والبلسان^(٣) ، مع كل طائر منها ثلاثة أحجار يحملها :
حجر في منقاره ، وحجران في رجليه ، أمثال الحمص والعدس ،
لا تصيب منهم أحداً إلا هلك ، وليس كلهم أصابت . وخرجوا

(١) الطبرزين : آلة معقنة من حديد .

(٢) المحجن : عصا معوجة قد يجعل فيها حديد . والمراق : أسفل البطن .
برغوه : أدموه .

(٣) الخطاطيف : جمع خطاف ، وهو طائر أسود . والبلسان : الزرازير .

هاربين يتدرون الطريق الذي منه جاءوا ، يتساقطون بكل طريق ،
ويهلكون بكل مهلك ، على كل منهل ، وأصيب أبرهة في جسده فمات .
قال ابن إسحاق :

فلما بعث الله تعالى محمدا صلى الله عليه وسلم كان
مما يعد الله على قريش من نعمه عليهم وفضله ما رد عنهم من أمر
الحبشة ، لبقاء أمرهم ومدتهم ، فقال الله تبارك وتعالى : (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ
فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ . أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ . وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ
طَيْرًا أَبَابِيلَ . تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ . فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ) .

ذكر ولد نزار بن معد

فولد (نزار) بن معد ثلاثة نفر^(١) : مضر، وربيعة، وأنمار.
 فولد (مضر) رجلين : إلياس، وعيلان.
 فولد (إلياس) ثلاثة نفر : مدركة، وطابحة، وقمعة.
 فولد (مدركة) رجلين : خزيمة، وهذيل.
 فولد (خزيمة) أربعة نفر : كنانة، وأسد، وأسدة، والهون.
 فولد (كنانة) أربعة نفر : النضر^(٢)، ومالك، وعبدمناة، ومليكان.
 فولد (النضر) رجلين : مالك، ويخلد.
 فولد (مالك) بن النضر فهران بن مالك.
 فولد (فهران) أربعة نفر : غالب، ومحارب، والحارث، وأسد.
 فولد (غالب) رجلين : لؤي، وتيم.
 فولد (لؤي) أربعة نفر : كعب، وعامر، وسامة، وعوف.
 فولد (كعب) ثلاثة نفر : مرة، وعدى، وهصيص.
 فولد (مرة) ثلاثة نفر : كلاب، وتيم، ويةظة.
 فولد (كلاب) رجلين : قصي، وزهرة.
 فولد (قصي) أربعة نفر : عبدمناف، وعبدالدار، وعبدالعزى،
 وعبدقصي.
 فولد (عبدمناف) أربعة نفر : هاشم، وعبدشمس، والمطلب،
 ونوفل.

(١) زاد ابن هشام رابعاً، هو إياد بن نزار.

(٢) قال ابن هشام : النضر قرشي، كان من ولده فهو قرشي، ومن لم يكن من ولده فليس بقرشي. ويقال فهران بن مالك هو قرشي.

أولاد عبد المطلب بن هاشم

قال ابن هشام :

فولد عبد المطلب بن هاشم عشرة نفر وست نسوة : العباس ،
وحمزة ، و (عبد الله) ، وأبا طالب ، والزبير ، والحارث ، وحجلاً ،
والمقوم ، وضراراً ، وأباهب واسمه عبد العزى ؛ وصفية ،
وأم حكيم البيضاء ، وعاتكة ، وأميمة ، وأروى ، وبرّة .

والدارسـول الله

صلى الله عليه وسلم

فولد عبد الله بن عبد المطلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
سيد ولد آدم ، محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ، صلوات الله وسلامه
ورحمته وبركاته عليه وعلى آله :

وأُمّه آمنه بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرة
ابن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر .

وأُمّها برّة بنت عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار بن قصي
ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر .
فرسول الله صلى الله عليه وسلم أشرف ولد آدم حسباً ، وأفضلهم
نسباً ، من قبل أبيه وأُمّه ، صلى الله عليه وسلم ، وشرف وكرم ،
ومجد وعظم .

حفرة زمزم وما جرى من الخلف فيها

ثم إن عبد المطلب بينما هو نائم في الحجر^(١) إذ أتى فأمر بحفرة زمزم.

قال عبد المطلب :

إني لنائم في الحجر إذ أتاني آت فقال : احفر طيبة . قلت : وما طيبة ؟ ثم ذهب عني ، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فسمت فيه ، فجاءني فقال : احفر المضمونة . فقلت : وما المضمونة ؟ ثم ذهب عني ، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فسمت فيه فجاءني فقال : احفر زمزم . قلت : وما زمزم ؟ قال : لا تنزف أبداً ولا تدم^(٢) ، تسقى الحجاج الأعظم ، وهي بين القرث والدم^(٣) ، عند نقرة الغراب الأعصم^(٤) .

فلما بين له شأنها ودل على موضعها ، وعرف أنه قد صدق ، غدا بمعوله ومعه ابنه الحارث ليس له يومئذ ولد غيره ، فحفر فيها ، فلما

(١) الحجر : حجر الكعبة ، وهو ما تركت قريش في بنائها من أساس إبراهيم عليه السلام .
(٢) لا تدم : لا توجد قليلة الماء .

(٣) روى أنه لما قام ليحفرها رأى ما رسم له من قرية النمل ونقرة الغراب ، ولم ير القرث والدم ، فبينما هو كذلك فرت بقرة من جازرها ، فلم يدركها حتى دخلت المسجد الحرام ، فنجرها في الموضع الذي رسم ، فسان هناك القرث والدم ، فحفر عبد المطلب حيث رسم له .

(٤) الأعصم : الذي في جناحيه بياض .

بدا لعبد المطلب الطي^(١) كبر ، فعرفت قريش أنه قد أدرك حاجته ،
 فقاموا إليه فقالوا : يا عبد المطلب ، إنها بئر أبينا إسماعيل ، وإن لنا
 فيها حقاً فأشرِ كُنا معك فيها . قال : ما أنا بفاعل ، إن هذا الأمر قد
 خُصِّصْتُ به ، دونكم . فقالوا له : فأنصفنا فإننا غير تاركيك حتى نخاصمك
 فيها . قال : فاجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه . قالوا : كاهنة
 بنى سعد هذيم . قال : نعم — وكانت بأشراف الشام^(٢) — فركب
 عبد المطلب ومعه نفر من بنى عبد مناف ، وركب من كل قبيلة من
 قريش نفر ، والأرض إذ ذاك مفاوز ، فخرجوا حتى إذا كانوا ببعض
 تلك المفاوز بين الحجاز والشام فبني ماء عبد المطلب وأصحابه ؛ فظموا
 حتى أيقنوا بالهلكة ، فاستسقوا من معهم من قبائل قريش فأبوا عليهم
 وقالوا : إنا بمفازة ، ونحن نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم . فلما رأى
 عبد المطلب ما صنع القوم وما يتخوف على نفسه وأصحابه قال : ماذا
 ترون ؟ قالوا : ما رأينا إلا تبع لرأيك ، فمرنا بما شئت . قال : فإني أرى
 أن يحفر كل رجل منكم حفرة لنفسه بما بكم الآن من القوة ؛ فكلما
 مات رجل دفعه أصحابه في حفرة ثم واروه ، حتى يكون آخركم رجلاً
 واحداً ، فضيعة رجل واحدٍ أيسرُ من ضيعة ركبٍ جميعاً . قالوا :
 نعم ما أمرت به . فقام كل واحدٍ منهم فحفر حفرة ، ثم قعدوا
 ينتظرون الموت عطشاً . ثم إن عبد المطلب قال لأصحابه : والله إن

(١) الطي : الحجارة تطوى بها البئر .

(٢) أى ما ارتفع من أرضها .

إلقاءنا بأيدينا هكذا للهوت ، لا تضرب في الأرض ولا نبتغي لأنفسنا ،
لعجز . فعسى الله أن يرزقنا ماءً ببعض البلاد ؛ ارتحلوا . فارتحلوا حتى
إذا فرغوا ، ومن معهم من قبائل قريش ينظرون إليهم ما هم فاعلون ،
تقدم عبد المطلب إلى راحلته فركبها . فلما انبعثت به انفجرت من تحت
خفها عين من ماء عذب ، فكبر عبد المطلب وكبر أصحابه ، ثم نزل
فشرب وشرب أصحابه ، واستقوا حتى ملئوا أسقيتهم . ثم دعا القبائل من
قريش فقال : هلم إلى الماء فقد سقانا الله ، فاشربوا واستقوا . فجاءوا
وشربوا واستقوا ثم قالوا : قد والله قضى لك علينا يا عبد المطلب ،
والله لا نخاصمك في زمزم أبدا . إن الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة
لهو الذي سقاك زمزم ، فارجع إلى سقايتك راشداً !

فرجع ورجعوا معه ، ولم يصلوا إلى الكاهنة ، وخلوا بينه وبينها .

نذر عبد المطلب ذبح ولده

وكان عبد المطلب بن هاشم ، قد نذر حين لقي من قريش ما لقي
عند حفر زمزم ، لئن وُلد له عشرة نفر ثم بلغوا معه حتى يمنعوه
لينحرن أحدهم لله عند الكعبة . فلما توافى بنوه عشرة وعرف أنهم
سيمنعونه جمعهم ثم أخبرهم بنذره ، ودعاهم إلى الوفاء لله بذلك ،
فأطاعوه وقالوا : كيف نصنع ؟ قال : ليأخذ كل رجل منكم قدحاً
ثم يكتب فيه اسمه ، ثم اتوني . ففعلوا ثم أتوه ، فدخل بهم على

« هَبِلٌ »^(١) ، وكان هَبِلٌ على بئر في جوف الكعبة . وكانت تلك البئر هي التي يُجمَع فيها ما يُهدى للكعبة .

وكان عند هَبِلٍ قَداح سبعة ، كل قَدَحٍ منها فيه كتاب ، قدح فيه « العَقْل » إذا اختلفوا في العَقْل^(٢) مَنْ يَحْمِلُهُ مِنْهُمْ ، ضربوا بالقَداح السبعة ؛ فإن خرج العقل فعلى من خرج حمْلُهُ . وقدح فيه « نَعَمْ » ، الأمر إذا أرادوه ، يُضرب به في القَداح ، فإن خرج قدح نَعَمْ عملوا به . وقدح فيه « لا » ، إذا أرادوا أمراً ضربوا به في القَداح ، فإن خرج ذلك القَدَحُ لم يفعلوا ذلك الأمر . وقدح فيه « مِنْكُمْ » ، وقدح فيه « مُلصَق » ، وقدح فيه « من غيركم » ، وقدح فيه « المياه » إذا أرادوا أن يحفروا للياه ضربوا بالقَداح وفيها ذلك القَدَح ، فحيثما خرج عملوا به .

وكانوا إذا أرادوا أن يَخْتِنُوا غُلَاماً أو يَنْكِحُوا مَنَكْحاً ، أو يَدْفِنُوا مِيتاً ، أو شَكُّوا في نسب أحدهم ، ذهبوا به إلى هَبِلٍ ، وبمائة درهم وجزور ، فأعطوها صاحب القَداح الذي يضرب بها ، ثم قرَّبوا صاحبهم الذي يريدون به ما يريدون ، ثم قالوا : يا إلهنا ، هذا فلان ابن فلان قد أردنا به كذا وكذا ، فأخرج الحق فيه . ثم يقولون لصاحب القَداح : اضرب . فإن خرج عليه « مِنْكُمْ » كان منهم وسيطاً^(٣) ؛ وإن خرج عليه « من غيركم » كان حليفاً ؛ وإن خرج عليه « مُلصَق » كان على منزلته فيهم ، لا نسب له ولا حلف . وإن خرج فيه شيء مما سوى هذا مما يعملون به « نَعَمْ » عملوا به ؛ وإن خرج « لا »

(١) اسم صنم . (٢) العقل : الدية . (٣) وسيط : خالص النسب .

أُخْرِوهَ عَامَهُ ذَلِكَ حَتَّى يَأْتُوهُ بِهِ مَرَّةً أُخْرَى ، يَنْتَهُونَ فِي أُمُورِهِمْ إِلَى ذَلِكَ مِمَّا خَرَجَتْ بِهِ الْقَدَاحُ .

فَقَالَ عَبْدُ الْمُطَّلَبِ لِصَاحِبِ الْقَدَاحِ : اضْرِبْ عَلَيَّ بَنِيَّ هَؤُلَاءِ بِقِدَاحِهِمْ هَذِهِ . وَأَخْبَرَهُ بِنَذْرِهِ الَّذِي نَذَرَ ، فَأَعْطَاهُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ قِدْحَهُ الَّذِي فِيهِ اسْمُهُ ، وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْمُطَّلَبِ أَصْغَرَ بَنِي أَبِيهِ ^(١) ، وَكَانَ أَحَبَّ وَلَدٍ عَبْدُ الْمُطَّلَبِ إِلَيْهِ ، فَكَانَ عَبْدُ الْمُطَّلَبِ يَرَى أَنَّ السَّهْمَ إِذَا أَخْطَاهُ فَقَدْ أَشْوَى ^(٢) .

فَلَمَّا أَخَذَ صَاحِبُ الْقَدَاحِ الْقَدَاحَ لِيَضْرِبَ قَامَ عَبْدُ الْمُطَّلَبِ عِنْدَ هُبَيْلٍ يَدْعُو اللَّهَ ، ثُمَّ ضَرَبَ صَاحِبُ الْقَدَاحِ فُجْرَجَ الْقَدْحُ عَلَى عَبْدِ اللَّهِ ، فَأَخَذَهُ عَبْدُ الْمُطَّلَبِ بِيَدِهِ ، وَأَخَذَ الشَّيْءَ فَرَّةً ثُمَّ أَقْبَلَ بِهِ إِلَى إِسَافٍ وَنَائِلَةٍ لِيَذْبَحَهُ ، فَقَامَتْ إِلَيْهِ قَرِيشٌ مِنْ أُنْدِيتِهَا فَقَالُوا : مَاذَا تَرِيدُ يَا عَبْدُ الْمُطَّلَبِ ؟ قَالَ : أَذْبَحُهُ . فَقَالَتْ لَهُ قَرِيشٌ وَبَنُوهُ : وَاللَّهِ لَا تَذْبَحْهُ أَبَدًا حَتَّى تُعْذِرَ فِيهِ ، لَئِنْ فَعَلْتَ هَذَا لَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَأْتِي بِابْنِهِ حَتَّى يَذْبَحَهُ فَمَا بَقَاءُ النَّاسِ عَلَى هَذَا ! وَقَالَ لَهُ الْمَغِيرَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ ابْنُ مَخْزُومٍ ، وَكَانَ ابْنُ أُخْتِ الْقَوْمِ : وَاللَّهِ لَا تَذْبَحْهُ أَبَدًا حَتَّى تُعْذِرَ فِيهِ ، فَإِنْ كَانَ فِدَاؤُهُ بِأَمْوَالِنَا فَدَيْنَاهُ ! وَقَالَتْ لَهُ قَرِيشٌ وَبَنُوهُ : لَا تَفْعَلْ وَانْطَلِقْ بِهِ إِلَى الْحِجَازِ ؛ فَإِنَّ بِهِ عَرَّافَةً لَهَا نَابِعٌ ، فَسَلِّهَا ثُمَّ أَنْتَ عَلَى رَأْسِ

(١) أَى حِينَ أَرَادَ نَحْرَهُ ، وَإِلَّا فَإِنْ حَمَزَةٌ كَانَ أَصْغَرَ مِنْهُ ، وَالْعَبَّاسُ كَانَ أَصْغَرَ مِنْهُ . وَالْعَبَّاسُ كَانَ كَذَلِكَ أَصْغَرَ مِنْ حَمَزَةٍ .

(٢) أَشْوَى : أَبْقَى . وَيُقَالُ : أَشْوَى السَّهْمَ ، إِذَا لَمْ يَصِبِ الْمَقْتُلَ .

أمرك ، إن أمرتك بذبحه ذبحته ، وإن أمرتك بأمر لك وله فيه
فرج قبيلته .

فانطلقوا حتى قدّموا المدينة فوجدوها بخير ، فركبوا حتى جاءوها
فسألوها ، وقصّ عليها عبد المطلب خبره وخبر ابنه ، وما أراد به ،
ونذره فيه فقالت لهم : ارجعوا عني اليوم حتى يأتيني تابعي فأسأله .
فرجعوا من عندها ، فلما خرجوا عنها قام عبد المطلب يدعو الله ،
ثم غدوا عليها فقالت لهم : قد جاءني الخبر ، كم الدية فيكم ؟ قالوا : عشر
من الإبل . قالت : فارجعوا إلى بلادكم ثم قربوا صاحبكم وقربوا عشرا
من الإبل ، ثم اضربوا عليها وعليه بالقداح ، فإن خرجت على صاحبكم
فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم ، وإن خرجت على الإبل فانحروها
عنه فقد رضى ربكم ونجا صاحبكم .

فخرجوا حتى قدّموا مكة ، فلما أجمعوا على ذلك من الأمر قام
عبد المطلب يدعو الله . ثم قربوا عبد الله وعشرا من الإبل ، وعبد المطلب
قائم عند هبل يدعو الله عز وجل ، ثم ضربوا فخرج القدح على
عبد الله . فزادوا عشرا من الإبل فبلغت الإبل عشرين ، وقام
عبد المطلب يدعو الله عز وجل ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله .
فزادوا عشرا من الإبل فبلغت الإبل أربعين ، وقام عبد المطلب يدعو
الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله . فزادوا عشرا من الإبل
فبلغت الإبل خمسين ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج

القدح على عبد الله . فزادوا عشرا من الإبل فبلغت الإبل ستين . وقام
عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله فزادوا
عشرا من الإبل فبلغت الإبل سبعين . وقام عبد المطلب يدعو الله :
ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله . فزادوا عشرا فبلغت الإبل
ثمانين ، وقام عبد المطلب يدعو الله . ثم ضربوا فخرج القدح على
عبد الله . فزادوا عشرا من الإبل فبلغت الإبل تسعين ، وقام عبد المطلب
يدعو الله ، ثم ضربوا فخرج القدح على عبد الله . فزادوا عشرا من
الإبل فبلغت الإبل مائة ، وقام عبد المطلب يدعو الله ، ثم ضربوا
فخرج القدح على « الإبل » ، فقالت قریش ومن حضر : قد انتهى
رضا ربك يا عبد المطلب !

فزعموا أن عبد المطلب قال : لا والله حتى أضرب عليها ثلاث
مرات . فضربوا على عبد الله وعلى الإبل ، وقام عبد المطلب يدعو
فخرج القدح على الإبل ؛ ثم عادوا الثانية وعبد المطلب قائم يدعو الله ،
فضربوا فخرج القدح على الإبل ؛ ثم عادوا الثالثة وعبد المطلب قائم
يدعو الله ، فضربوا فخرج القدح على الإبل . فنجرت ثم تركت
لا يصد عنها إنسان ولا يمنع .

ذكر ما قيل لآمنة عند حملها برسول الله

صلى الله عليه وسلم

ويزعمون — فيما يتحدث الناس ، والله أعلم — ان آمنة بنت
وهب أم رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت تحدث :

أنها أتيت حين حملت برسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل لها :
إنك قد حملت بسيد هذه الأمة ، فإذا وقع إلى الأرض فقولى : أعيذه
بالواحد ، من شر كل حاسد ! ثم سمّيه محمداً ^(١) .

ورأت حين حملت به أنه خرج منها نورٌ رأت به قُصورَ بَصْرَى
من أرض الشام .

ثم لم يلبث عبد الله بن عبد المطلب أبو رسول الله صلى الله عليه
وسلم أن هلك وأم رسول الله صلى الله عليه وسلم حاملٌ به .

(١) لم يُسمَّ بهذا الاسم قبله صلى الله عليه وسلم إلا ثلاثة ، طمع آؤباهم حين
سمعوا بذكر رسول الله وبقرب زمانه ، وأنه يبعث من الحجاز أن يكون ولدًا لهم ،
وهم : محمد بن سفيان بن مجاشع جد جد الفرزدق ، ومحمد بن أحيحة بن الجلاح ، ومحمد
ابن حمران بن ربيعة . كان آباء هؤلاء الثلاثة قد وفدوا على بعض الملوك ممن لهم علم
بالكسّاب فأخبرهم بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم وباسمه ، وكان كل واحد منهم قد
خلف امرأته حاملاً ، فنذر كل منهم إن ولد له ذكر أن يسميه محمداً ، ففعلوا ذلك .

ولادة رسول الله صلى الله عليه وسلم

وُلِدَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ لاثْنَتَيْ عَشْرَةَ لَيْلَةً خَلَّتْ مِنْ شَهْرِ رَبِيعِ الْأَوَّلِ ، عَامَ الْفِيلِ ^(١) .

عَنْ قَيْسِ بْنِ مَخْرَمَةَ قَالَ : وَلَدْتُ أَنَا وَرَسُولُ اللَّهِ عَامَ الْفِيلِ ، فَنَحْنُ لِذَا ^(٢) .

عَنْ حَسَّانِ بْنِ ثَابِتٍ قَالَ :

وَاللَّهُ إِنِّي لَغُلَامٌ يَفْعَةُ ^(٣) ، ابْنُ سَبْعِ سِنِينَ أَوْ ثَمَانٍ ، أُعْقِلَ كُلُّ مَا سَمِعْتُ إِذْ سَمِعْتُ يَهُودِيًّا يَصْرُخُ بِأَعْلَى صَوْتِهِ عَلَى أُطْمَةٍ ^(٤) يَثْرِبُ : يَا مَعْشَرَ يَهُودِ ! حَتَّى إِذَا اجْتَمَعُوا إِلَيْهِ قَالُوا لَهُ : وَيْلَكَ ! مَا لَكَ ؟ قَالَ : طَلَعَ اللَّيْلَةُ نَجْمٌ أَحْمَدَ الَّذِي وُلِدَ بِهِ .

فَلَمَّا وَضَعَتْهُ أُمُّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَرْسَلَتْ إِلَى جَدِّهِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ : إِنَّهُ قَدْ وَقَدَ لَكَ غُلَامٌ فَأْتَهُ فَانْظُرْ إِلَيْهِ . فَأَتَاهُ فَانْظَرَ إِلَيْهِ ، وَحَدَّثَتْهُ بِمَا رَأَتْ حِينَ حَمَلَتْ بِهِ ، وَمَا قِيلَ لَهَا فِيهِ ، وَمَا أَمَرَتْ بِهِ أَنْ تَسْمِيَهُ .

فِيَزْعُمُونَ أَنَّ عَبْدِ الْمُطَّلِبَ أَخَذَهُ فَدَخَلَ بِهِ الْكَعْبَةَ ، فَقَامَ يَدْعُو اللَّهَ وَيَشْكُرُ لَهُ مَا أَعْطَاهُ ، ثُمَّ خَرَجَ بِهِ إِلَى أُمِّهِ فَدَفَعَهُ إِلَيْهَا وَاتَّمَسَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَرَضِعَ .

فَاسْتَرْضَعَ لَهُ امْرَأَةً مِنْ بَنِي سَعْدِ بْنِ بَكْرٍ ، يُقَالُ لَهَا حَلِيمَةُ ابْنَةِ أَبِي ذُوَيْبٍ .

(١) وَقِيلَ كَانَ قَبْلَ مَوْلَدِهِ بِرَمَضَانَ . (٢) لِدَان : مَثْنَى لِدَةٍ وَهُوَ تَرَبُّبُ الْإِنْسَانِ .

(٣) أَيْ قَوِيٌّ قَدْ طَالَ قَدُّهُ . (٤) الْأُطْمَةُ ، بَفَتْحَتَيْنِ : الْحَصَنُ .

حديث حليلة

كانت حليلة تحدث أنها خرجت من بلدها مع زوجها وابن لها صغير^(١) ترضعه، في نسوة من بني سعد، تلتمس الرضعاء^(٢)، وذلك في سنة شهباء^(٣) لم تبق لنا شيئا. فخرجت على أتان لي قمرأ^(٤) معنا شارف لنا^(٥)، والله ما تبض بقطرة^(٦)، وما ننام ليلنا أجمع من صبينا الذي معنا من بكائه من الجوع، ما في ثديي ما يغنيه، وما في شارفنا ما يغذيه، ولكننا كننا نرجو الغيث والفرج. فخرجت على أتانى، فلقد أدمت^(٧) بالركب حتى شق ذلك عليهم ضعفا وعجفا^(٨) حتى قدمنا مكة نلتمس الرضعاء، فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه إذا قيل لها إنه يتيم، وذلك أنا إنما كننا نرجو المعروف من أبي الصبي، فكنا نقول: يتيم! وما عسى أن تصنع أمه وجدّه! فكنا نكرهه لذلك. فما بقيت امرأة كانت معي إلا أخذت رضيعاً، غيرى. فلما أجمعنا الانطلاق قلت لصاحبي^(٩): والله إنى لأكره

(١) اسمه عبد الله بن الحارث بن عبد العزى . (٢) جمع رضيع .

(٣) الشهباء : المجذبة البيضاء لا يرى فيها خضرة .

(٤) الأتان : الحمارة . القمرأ : التي يميل لونها إلى الخضرة .

(٥) الشارف : الناقة المسنة .

(٦) ما تبض بقطرة ، أى ما ترشح .

(٧) أى أطلت عليهم المسافة ، لتمهلهم عليها ، مأخوذ من الشيء الدائم .

(٨) العجف : الهزال . (٩) تعنى زوجها الحارث بن عبد العزى .

أن أرجع من بين صواحي ولم آخذ رضيعا ، والله لأذهبن إلى ذلك
اليتم فلا خذته ! قال : لا عليك أن تفعل ، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة !
قالت : فذهبتُ إليه فأخذته ، وما حملني على أخذه إلا أنني لم أجد
غيره . فلما أخذته رجعتُ به إلى رحلي ، فلما وضعته في حجرى أقبلَ
عليه ثدياى بما شاء من لبن ، فشرِب حتى روى ، وشرِب معه أخوه
حتى روى ثم ناما ، وما كنا ننام معه قبل ذلك . وقام زوجى إلى
شارفنا تلك فإذا إنها لحافل ، فحلب منها ما شرب وشربتُ معه حتى
انتهينا رياء وشبعا ، فبتنا بخير ليلة !

قالت : يقول صاحبي حين أصبحنا : تعلّمي والله يا حليلة ، لقد
أخذتِ نسمة مباركة ! فقلت : والله إنى لأرجو ذلك .

ثم خرجنا وركبت أنا أتاني ، وحملته عليها معي ، فوالله لقطعتُ
بالركب ما يقدر عليها شيء من حُرهم ، حتى إن صواحي ليقطن لي :
يا ابنة أبي ذؤيب ، ويحكِ اربعي علينا^(١) ، أليست هذه أتانك التي
كنتِ خرجتِ عليها ؟ ! فأقول لهنَّ : بلى والله ، إنها لهي ! فيقطن :
والله إن لها لشأنا !

ثم قد منا منازلنا من بلاد بني سعد ، وما أعلم أرضا من أرض الله
أجذبَ منها ، فكانت غنمي تروح على حين قدمنا به معنا شبعا لبنا ،
فنحلب ونشرب ، وما يحلب إنسان قطرة لبن ، ولا يجدها في ضرع ،

(١) أى أقيمي وانتظري .

حَتَّى كَانَ الْحَاضِرُونَ مِنْ قَوْمِنَا يَقُولُونَ لِرُءِيسَانِهِمْ : وَيَلِكُمْ اسْرَحُوا
حَيْثُ يَسْرَحُ رَاعِي بَنَاتِ أَبِي ذَوَيْبَ . فَتَرَوْحُ أَغْنَامَهُمْ جِيَاعًا مَا تَبْضُ
بِقَطْرَةٍ لَبَنٍ ، وَتَرَوْحُ غَنَمِي شَبَاعًا لُبْنًا .

فَلَمْ نَزَلْ نَتَعَرَّفْ مِنْ اللَّهِ الزِّيَادَةَ وَالْخَيْرَ حَتَّى مَضَتْ سَنَتَاهُ وَفَصَلَّتْهُ ،
وَكَانَ يَشْبُ شَبَابًا لَا يَشَبُّهُ الْغِلْمَانُ ، فَلَمْ يَبْلُغْ سَنَتَيْهِ حَتَّى كَانَ غَلَامًا
جَفْرًا^(١) ، فَقَدَمْنَا بِهِ عَلَى أُمِّهِ وَنَحْنُ أَحْرَصُ شَيْءٍ عَلَى مُكْثِهِ فِينَا ؛ لَمَّا كُنَّا
نَرَى مِنْ بَرَكَتِهِ ، فَكَلَّمْنَا أُمَّهُ وَقُلْتُ لَهَا : لَوْ تَرَكْتِ بَنِيَّ عِنْدِي حَتَّى يَغْلُظَ ،
فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْهِ وَبَأْ مَكَّةَ . فَلَمْ نَزَلْ بِهَا حَتَّى رَدَّتْهُ مَعَنَا .

فَرَجَعْنَا بِهِ ، فَوَاللَّهِ إِنَّهُ بَعْدَ مَقْدَمِنَا بِهِ بِأَشْهَرٍ مَعَ أَخِيهِ لَفِي بِهِمْ^(٢)
لَنَا خَلْفَ يَوتُنَا إِذْ أَتَانَا أَخُوهُ يَشْتَدُّ ، فَقَالَ لِي وَلِأَيِّهِ : ذَاكَ أَخِي الْقَرْشِيُّ
قَدْ أَخَذَهُ رَجُلَانِ عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بَيضٌ ، فَأَضْجَعَاهُ فَشَقَّ بَطْنَهُ ،
فَهُمَا يَسُوطَانَهُ^(٣) !

فَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُوهُ نَحْوَهُ ، فَوَجَدْتُهُ قَائِمًا مُتَّقِعًا وَجْهَهُ ، فَالْتَزَمْتُهُ
وَالْتَزَمَهُ أَبُوهُ ، فَقُلْنَا : مَا لَكَ يَا بَنِي ؟ قَالَ : جَاءَنِي رَجُلَانِ عَلَيْهِمَا
ثِيَابٌ بَيضٌ ، فَأَضْجَعَانِي وَشَقَّ بَطْنِي فَالْتَمَسَا فِيهِ شَيْئًا لَا أَدْرِي مَا هُوَ ؟

(١) الجفر : الغليظ الشديد .

(٢) البهم : الصغار من الغنم ، الواحدة بهمة .

(٣) يسوطانه : يضربان بعضه ببعض ويحركانه .

فرَجَعْنَا بِهِ إِلَى خَبَائِنَا وَقَالَ لِي أَبُوهُ : يَا حَلِيمَةُ ، لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ
يَكُونَ هَذَا الْغَلَامُ قَدْ أُصِيبَ ، فَأَلْحَقِيهِ بِأَهْلِهِ قَبْلَ أَنْ يَظْهَرَ ذَلِكَ بِهِ .
فَاحْتَمَلْنَاهُ فَقَدِمْنَا بِهِ عَلَى أُمِّهِ فَقَالَتْ : مَا أَقْدَمَكَ بِهِ يَا ظُئْرُ^(١) وَقَدْ كُنْتَ
حَرِيصَةً عَلَيْهِ وَعَلَى مُكْثِهِ عِنْدَكَ ؟ فَقُلْتُ : قَدْ بَلَغَ اللَّهُ بَابِي وَقَضَيْتُ
الَّذِي عَلَىَّ ، وَتَخَوَّفتُ الْآحْدَاثَ عَلَيْهِ ، فَأَدَيْتُهُ إِلَيْكَ كَمَا تَحِبُّنِ . قَالَتْ :
مَا هَذَا شَأْنُكَ فَاصْدُقْنِي خَبْرَكَ . فَلَمْ تَدَعْنِي حَتَّى أَخْبَرْتُهَا . قَالَتْ :
أَفْتَخَوَّفتُ عَلَيْهِ الشَّيْطَانَ ؟ قُلْتُ : نَعَمْ . قَالَتْ : كَلَّا ، وَاللَّهِ مَا لِلشَّيْطَانِ
عَلَيْهِ مِنْ سَبِيلٍ ، وَإِنْ لُبِنَّا لَشَأْنَا ، أَفَلَا أَخْبِرَكَ خَبْرَهُ ؟ قُلْتُ : بَلَى .
قَالَتْ : رَأَيْتُ حِينَ حَمَلْتُ بِهِ أَنَّهُ خَرَجَ مِنِّي نَوْراً أَضَاءَ قُصُورَ بُصْرَى^(٢)
مِنْ أَرْضِ الشَّامِ ، ثُمَّ حَمَلْتُ بِهِ فَوَاللَّهِ مَا رَأَيْتُ مِنْ حَمَلٍ قَطُّ كَانَ
أَخْفَ عَلَى وَلَا أَيْسَرَ مِنْهُ ، وَوَقَعَ حِينَ وَلَدْتُهُ وَإِنَّهُ لَوَاضِعٌ بِيَدِهِ
بِالْأَرْضِ ، رَافِعٌ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ . دَعَاكَ عَنْكَ وَانْطَلَقَ رَاشِدةً .

(١) الظُّئْرُ : الْمَرْأَةُ تَرْضِعُ وَلَدَ غَيْرِهَا .

(٢) بُصْرَى ، مِنْ أَعْمَالِ دِمَشْقَ .

حديث شق الصدر

قال ابن إسحاق :

حدثني ثور بن يزيد عن بعض أهل العلم ، ولا أحسبه إلا عن
خالد بن معدان الكلاعي :

أن نفراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا له :
يا رسول الله ، أخبرنا عن نفسك . قال : نعم ، أنا دعوة أبي إبراهيم ،
وبُشْرَى أخى عيسى ، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور
أضاء لها قصور الشام ، واسترَضعت في بني سعد بن بكر .

فبينما أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى بهما لنا ، إذ أتاني رجلان
عليهما ثيابٌ بيضٌ بطستٍ من ذهبٍ مملوءةٌ ثلجا ، ثم أخذاني فشقا
بطني ، واستخرجا قلبي فشققاه ، فاستخرجا منه عِلْقَةً سوداء فطرحاها ،
ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى أنقياه ، ثم قال أحدهما لصاحبه :
زنه بعشرة من أمته . فوزنتي بهم فوزتهم . ثم قال : زنه بمائة من أمته .
فوزنتي بهم فوزتهم . ثم قال : زنه بألف من أمته . فوزنتي بهم
فوزتهم . فقال : دعه ؛ فوالله لو وزنته بأمته لو زنها ! .

كفالة جده له

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أمه آمنة بنت وهب وجده عبد المطلب بن هاشم في كلاءة الله وحفظه ، ينبتة الله نباتاً حسناً ، لما يريد به من كرامته . فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ست سنين توفيت أمه بالأبواء ، بين مكة والمدينة ، كانت قد قدمت به على أخواله من بني عدى بن النجار تُزيره إياهم ، فماتت وهي راجعة به إلى مكة .

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جده عبد المطلب بن هاشم . وكان يُوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة فكان بنوه يجلسون حول فراشه ذلك حتى يخرج إليه ، لا يجلس عليه أحد من بنيهِ إجلالاً له . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي وهو غلامٌ جَفْرٌ^(١) حتى يجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك منهم : دَعُوا ابني ، فوالله إنَّ له لشأناً ! ثم يجلسه معه على الفراش ويمسح ظهره بيده ، ويسرُّه ما يراه يصنع . فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثمانى سنين هلك عبد المطلب ، وذلك بعد الفيل بثمانى سنين .

(١) الجفر : الغليظ الشديد .

كفالة عمه له

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد عبد المطلب مع عمه
أبي طالب .

وإن رجلاً من لهب^(١) كان عائفاً^(٢) ، فكان إذا قدم مكة إياه
رجال قريش بغلمانهم ينظر إليهم ويعتاف لهم فيهم . فأتى به أبو طالب
وهو غلامٌ مع من يأتيه ، فنظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم
شغله عنه شيء فلما فرغ قال : الغلام ، علىَّ به . فلما رأى أبو طالب
حرصه عليه غيبه عنه ، فجعل يقول : ويلكم ! ردُّوا علىَّ الغلام الذي
رأيتُ آنفاً ، فوالله ليكوننَّ له شأن !

(١) بنو لهب : قوم مشهورون بالعيافة .

(٢) العائف : الذي يتفرس في خلقة الإنسان فيخبر بما تؤول حاله إليه .

قصة بحيرا

ثم إن أبا طالب خرج في ركبٍ تاجرًا إلى الشام ، فلما تهيأ للرحيل وأجمعَ المسيرَ صَبَّ به ^(١) رسول الله صلى الله عليه وسلم فرق له أبو طالب وقال : والله لا أخرجنَّ به معي ولا يفارقتي ولا أفارقه أبدًا .

فخرج به معه ، فلما نزل الركبُ بُصِرَ وبها راهبٌ يقال له « بحيرا » في صومعةٍ له ، وكان إليه عِلْمُ أهل النصرانية ، ولم يزل في تلك الصومعة منذ قطَّ راهبٌ إليه يصير عليهم عن كتابٍ فيها فيما يزعمون ، يتوارثونه كابرًا عن كابر ، فلما نزلوا ذلك العام ببَحِيرَا ، وكانوا كثيرًا ما يمرُّون به قبلَ ذلك فلا يكلمهم ولا يعرض لهم حتى كان ذلك العام ، فلما نزلوا به قريبًا من صومعته صنعَ لهم طعامًا كثيرًا . وذلك فيما يزعمون عن شيءٍ رآه وهو في صومعته . يزعمون أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في صومعته وفي الركب حين أقبلوا ، وغمامةٌ تُظِلُّه من بين القوم ، ثم أقبلوا فنزلوا في ظل شجرةٍ قريبًا منه ، فنظر إلى الغمامة حين أظلت الشجرة ، وتهصرت ^(٢) أغصان الشجرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى استظلَّ تحتها ، فلما رأى ذلك بحيرا نزل من صومعته ثم أرسل إليهم فقال : إني قد

(١) أى مال إليه . ويروى « صب به » أى تعلق .

(٢) تهصرت : مالت ، وتدلت .

صنعتُ لكم طعاما يا معشر قريش ، فأنا أحبُّ أن تحضروا كلُّكم ،
صغيركم وكبيركم ، وعبدكم وحرُّكم .

فقال له رجلٌ منهم : والله يا بحيرا إنَّ لك لشأنا اليوم ، فما كنت
تصنع هذا بنا وقد كنهنا بكَ كثيرا ! فما شأنك اليوم ؟ قال له بحيرا :
صدقت ، قد كان ما تقول ، ولكنكم ضيف ، وقد أحببتُ أن أكرمكم
وأصنعَ لكم طعاما فتأكلوا منه كلُّكم .

فاجتمعوا إليه وتخلَّف رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين
القوم ، لحداثة سنِّه ، في رحال القوم تحت الشجرة ، فلما نظر بحيرا
في القوم لم يرَ الصفة التي يعرف ويحبُّ عنده ، فقال : يا معشر
قريش ، لا يتخلَّف أحدٌ منكم عن طعامي . قالوا له : يا بحيرا ، ما تخلَّف
عنك أحدٌ ينبغي له أن يأتيك إلا غلام ، وهو أحدث القوم سنًّا
فتخلَّف في رحالهم . فقال : لا تفعلوا ، ادعوه فليحضر هذا الطعام معكم .
فقال رجلٌ من قريشٍ مع القوم : واللات والعزى ، إن كان للوْمُ بنا
أن يتخلَّف ابنُ عبد الله بن عبد المطلب عن طعامٍ من بيننا ! ثم قام
فاحتضنه وأجلسه مع القوم ، فلما رآه بحيرا جعل يلحظه لحظاً شديداً
وينظر إلى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده من صفته ، حتى إذا
فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام إليه بحيرا فقال له : يا غلام ،
أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه — وإنما
قال له بحيرا ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما — فزعموا أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : لا تسألني باللات والعزى ،
فوالله ما أبغضت شيئا قطُّ أبغضهما ! فقال له بحيرا : فبالله إلا ما أخبرتني
عما أسألك عنه . فقال له : سألني ما بدالك . فجعل يسأله عن أشياء من
حاله في نومه وهيئته وأموره ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم
يخبره فيوافق ذلك ما عند بحيرا من صفته . ثم نظر إلى ظهره فرأى
خاتم النبوة بين كتفيه على موضعه من صفته التي عنده .

فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب فقال له : ما هذا الغلام منك ؟
قال : ابني . قال له بحيرا : ما هو بابنك ، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون
أبوه حيا . قال : فإنه ابن أخي . قال : فما فعل أبوه ؟ قال : مات وأمه
حُبلى به . قال : صدقت ، فارجع بابن أخيك إلى بلده ، واحذر عليه
يهود ، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفتَ ليبغنه شرا ، فإنه كائنٌ
لابن أخيك هذا شأنٌ عظيم !
فأسرع به إلى بلاده .

حرب الفجار

هاجت حرب الفجار ورسول الله صلى الله عليه وسلم ابن
عشرين سنة^(١). وإنما سمي يوم الفجار بما استحلّ هذان الحيان: كنانة
وقيس عيلان، فيه من المحارم بينهم.

وكان قائد قريش وكنانة حرب بن أمية، وكان الظفر في أول
النهار لقيس على كنانة، حتى إذا كان في وسط النهار كان الظفر
لكنانة على قيس.

(١) ذكر ابن هشام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم شهد بعض أيام الفجار،
أخرجه أعمامه معهم، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «كنت أنبل على أعمامي،
أى أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموهم بها. وهذا الفجار هو الفجار الأخير، وهو
فجار البراض. وقبله فجارات ثلاث: أولها بين كنانة وهوازن، والثاني بين قريش
وهوازن، والثالث بين كنانة وهوازن. وتفصيلها في العقد الفريد، والأغانى.

تزويج خديجة رضى الله عنها

وكانت خديجة بنت خويلد امرأة تاجرة ذات شرفٍ ومال ، تستأجر الرجال في مالها وتُضاربهم إياه^(١) بشيءٍ تجعله لهم ، وكانت قريش قوماً تجارا ، فلما بلغها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه ، بعثت إليه ، فعرضت عليه أن يخرج في مالٍ لها إلى الشام تاجراً ، وتعطيه أفضلَ ما كانت تعطى غيره من التجار ، مع غلامٍ لها يقال له ميسرة ، فقبله رسولُ الله صلى الله عليه وسلم منها وخرج في مالها ذلك ، وخرج معه غلامُها ميسرة حتى قدم الشام .

فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في ظل شجرة قريباً من صومعة راهب^(٢) من الرهبان ، فاطَّلع الراهب إلى ميسرة فقال : من هذا الرجل الذى نزل تحت هذه الشجرة ؟ قال له ميسرة : هذا رجلٌ من قريش من أهل الحرم . فقال له الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة قطُّ إلا نبيٌّ !

(١) المضاربة : المقارضة .

(٢) اسم هذا الراهب نسطورا .

ثم باع رسول الله صلى الله عليه وسلم سلعته التي خرج بها ، واشترى ما أراد أن يشتري ، ثم أقبل قافلا إلى مكة ، فكان ميسرة إذا كانت الهاجرة واشتد الحر يرى ملكين يظِلَّانِه من الشمس وهو يسيرُ على بغيره . فلما قدم مكة على خديجة بما لها باعت ما جاء به فأضعِفَ^(١) أو قريبا .

وحدثها ميسرة عن قول الراهب وعمّا كان يرى من إضلال الملكين إياه . وكانت خديجة امرأة حازمة لبينة شريفة ، مع ما أراد الله بها من كرامته ، فلما أخبرها ميسرة بما أخبرها به بعثت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت له : يا ابن عم ، إني قد رغبتُ فيك لقربتك وسِطتك^(٢) في قومك ، وأمانتك وحسن خلقك ، وصدق حديثك . ثم عرضت عليه نفسها ، وكانت خديجة يومئذ أوسط نساء قريش نسبا ، وأعظمنّ شرفا ، وأكثرهنّ مالا ، كلُّ قومها كان حريصاً على ذلك منها لو يقدر عليه .

فلما قالت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر لأعمامه فخرج معه عمه حمزة حتى دخل على خويلد بن أسد^(٣) فخطبها إليه فتزوجها^(٤) .

(١) أضعف : صار مضاعفا .

(٢) السطة : الشرف ، من الوسط ، كالأعدة من الوعد .

(٣) هو خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى .

(٤) أصدقها صلى الله عليه وسلم عشرين بكرة ، وكانت أول امرأة تزوجها ، ولم يتزوج عليها حتى ماتت .

فولدت لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولده كلهم، إلا إبراهيم^(١) ،
القاسم ، وبه كان يكنى ، والطاهر والطيب^(٢) ، وزينب ، ورقية ،
وأم كلثوم ، وفاطمة ، عليهم السلام .

فأما القاسم ، والطيب والطاهر ، فهلكوا في الجاهلية ، وأما بناته
فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن معه صلى الله عليه وسلم .

(١) أمه مارية القبطية ، من « حفن » من كورة أنصنا من صعيد مصر ،
أهداها إليه المقوقس عظيم القبط .

(٢) الطاهر والطيب لقبان له ، واسمه « عبد الله » .

حديث ورقة بن نوفل

وكانت خديجة قد ذكرت لورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى ،
 وكان ابن عمها ، وكان نصرانياً قد تتبّع الكتب وعلم من علم الناس ،
 ما ذكر لها غلامها ميسرة من قول الراهب ، وما كان يرى منه إذ كان
 الملك يظلمه ، فقال ورقة : لئن كان هذا حقاً يا خديجة إن محمداً نبي
 هذه الأمة ، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبي ينتظر ، هذا زمانه !

فجعل ورقة يستبطن الأمر ويقول : حتى متى ؟ وقال في ذلك :

لججتُ وكنتُ في الذكري لجوجاً	لهم طالما بعث النشيجا
ووصف من خديجة بعد وصف	فقد طال انتظاري يا خديجا
بيطن المكتنين على رجائي	حديثك أن أرى منه خروجاً ^(١)
بما خبرتنا من قول قس	من الرهبان أكره أن أعوجا
بأن محمداً سيسود فينا	ويخصم من يكون له حجيجا
ويظهر في البلاد ضياء نور	يقيم به البرية أن تموجا
فيلقى من يحاربُه خساراً	ويلقى من يسأله فُلوجاً ^(٢)
فياليتي إذا ما كان ذا كم	شهدتُ فكنت أولكم ولوجا

(١) ثنى مكة ، لأن لها بطاحاً وظواهر .

(٢) الفلوج : النصر والغلبة .

بنيان الكعبة

فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمساً وثلاثين سنة اجتمعت قريش لبنيان الكعبة ، وكانوا يهْمُونَ بذلك ليسقّفوها ، ويهايون هدمها ، وإنما كانت رَضْمًا^(١) فوق القامة .

وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جُدَّة لرجل من تجّار الروم ، فتحطّمت فأخذوا خشبها فأعدّوه لتسقيفها . وكان بمكة رجل قبضيّ نجار ، فتهياً لهم في أنفسهم بعض ما يصلحها ، وكانت حية تخرج من بئر الكعبة التي كان يُطرح فيها ما يُهدى لها كلَّ يوم ، فتتشرّق^(٢) على جدار الكعبة . وكانت مما يهايون ، وذلك أنه كان لا يدنو منها أحدٌ إلّا احزألت وكشّت^(٣) وفتحت فاهها . فبينما هي ذات يوم تتشرّق على جدار الكعبة كما كانت تصنع بعث الله إليها طائراً فاخطفها فذهب بها ، فقالت قريش : إنّنا لنرجو أن يكون الله قد رضى ما أردنا ، عندنا عاملٌ رفيق ، وعندنا خشب ، وقد كفانا الله الحية .

فلما أجمعوا أمرهم في هدمها وبنائها قام أبو وهب بن عمرو بن عائذ ابن عبد بن عمران بن مخزوم ، فتناول من الكعبة حجراً فوثبَ من يده حتى رجع إلى موضعه ، فقال : يا معشر قريش ، لا تُدخلوا في

(١) الرضم : حجارة منضودة من غير ملاط . (٢) أى تبرز للشمس .

(٣) احزألت : رفعت رأسها . وكشّت : صوتت باحتكاك جلدتها ببعضه ببعض .

بنائها من كسبكم إلا طيباً ، لا يدخل فيها مهر بغيٍّ ، ولا بيع ربا ،
ولا مظلمة أحدٍ من الناس .

ثم إن قريشاً جزأت الكعبة ، فكان شق الباب لبني عبد مناف
وزهرة ، وما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل
من قريش انضموا إليهم ، وكان ظهر الكعبة لبني جُمَحَ وسهم ،
وشق الحجر لبني عبد الدار بن قصي ولبنى أسد بن عبد العزى ،
ولبنى عدي بن كعب .

ثم إن الناس هابوا هدمها وفرقوا منه ، فقال الوليد بن المغيرة :
أنا أبدؤكم في هدمها . فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول : اللهم لم
نزغ^(١) ! اللهم لا نريد إلا الخير ! ثم هدم من ناحية الركنين ، فتربص
الناس تلك الليلة وقالوا : ننظر ، فإن أصيب لم نهدم منها شيئاً ورددناها
كما كانت ، وإن لم يُصبه شيء فقد رضى الله صنعنا ، فهدمنا .

فأصبح الوليد من ليلته غادياً على عمله ، فهدم وهدم الناس معه
حتى إذا انتهى الهدم بهم إلى الأساس ، أساس إبراهيم عليه السلام ،
أفضوا إلى حجارة خضر كالأسنمة^(٢) أخذ بعضهم بعضها بعضاً .

(١) لم نزغ : لم نمل عن دينك

(٢) جمع سنام ، وهو أعلى ظهر البعير . ويروى : « كالأسنة » جمع سنان ،
شبهت به في الخضرة .

ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها ، كل قبيلة تجمع على حدة ، ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن ^(١) فاختصموا فيه ، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى ، حتى تجاوزوا ^(٢) وتحالفوا وأعدوا للقتال .

فزعم بعض أهل الرواية أن أبا أمية بن المغيرة ، وكان عامئذ أسن قريش كلها ، قال : يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه . ففعلوا . فكان أول داخل عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما رأوه قالوا : هذا الأمين ، رضينا ! هذا محمد . فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر قال صلى الله عليه وسلم : هلم إلى ثوباً . فأتي به ، فأخذ الركن فوضعه فيه بيده ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعاً . ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ثم بنى عليه .

(١) يراد به الحجر الأسود ، لأن موضعه في الركن .

(٢) تجاوزوا : انحاز كل قبيل منهم إلى جانب .

إخبار الكهّان من العرب

والأخبار من يهود ، والرهبان من النصارى

وكانت الأخبار من يهود ، والرهبان من النصارى ، والكهّان من العرب ، قد تحدّثوا بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه لما تقارب من زمانه . أما الأخبار من يهود والرهبان من النصارى ، فعلموا وجدوا في كتبهم من صفته وصفة زمانه ، وما كان من عهد أنبيائهم إليهم فيه . وأما الكهّان من العرب فأتهم به الشياطين من الجن فيما تسترق من السمع ، إذ كانت وهى لا تحجب عن ذلك بالقذف بالنجوم . وكان الكاهن والكاهنة لا يزال يقع منهما ذكر بعض أموره ، لا تلقى العرب لذلك فيه بالاً ، حتى بعثه الله ووقعت تلك الأمور التي كانوا يذكرون ، فعرفوها .

فلما تقارب أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وحضر مبعثه ، حجبت الشياطين عن السمع ، وحيل بينها وبين المقاعد التي كانت تقع لاستراق السمع فيها ، فرموا بالنجوم . فعرفت الجن أن ذلك لأمرٍ حدث من أمر الله في العباد .

صفة رسول الله

صلى الله عليه وسلم

قال ابن هشام :

وكانت صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما ذكره عمر مولى
غفرة عن إبراهيم بن محمد بن علي بن أبي طالب قال :

كان علي بن أبي طالب عليه السلام إذا نعت رسول الله قال :
لم يكن بالطويل الممغط^(١) ، ولا القصير المتردد ، وكان ربعة^(٢) من
القوم ، ولم يكن بالجعد القَطَط^(٣) ولا السَّبَط ، كان جَعْدًا رَجُلًا^(٤) ،
ولم يكن بالمطهم^(٥) ولا المكثم^(٦) . وكان أبيض مشرباً ، أدعج العينين^(٧) ،
أهدب الأشفار^(٨) ، جليل المشاش^(٩) والكتد^(١٠) ، دقيق المسربة^(١١)

(١) الممغط : الممتد .

(٢) الربعة : الذي ليس بالطويل ولا القصير .

(٣) القَطَط : الشديد جعودة الشعر .

(٤) الرجل : المسرح الشعر .

(٥) المطهم : العظيم الجسم .

(٦) المكثم : المستدير الوجه في صغر .

(٧) الأدعج : الأسود العينين .

(٨) أهدب الأشفار : طويل أهدابها .

(٩) المشاش : عظام رءوس المفاصل .

(١٠) الكتد : ما بين الكتفين .

(١١) المسربة : الشعر الممتد من الصدر إلى السرة .

أَجْرَدَ^(١) ، شَتْنُ الكَفَيْنِ^(٢) والْقَدَمَيْنِ ، إِذَا مَشَى تَقَلَّعَ^(٣) ، كَأَنَّمَا يَمْشَى
فِي صَبَبٍ^(٤) ، وَإِذَا التَفَتَ التَفَتَ مَعًا ، بَيْنَ كَتْفَيْهِ خَاتَمَ النُّبُوَّةِ ، وَهُوَ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ ، أَجْوَدُ النَّاسِ كَفًّا ، وَأَجْرَأُ النَّاسِ
صَدْرًا ، وَأَصْدَقُ النَّاسِ لَهْجَةً^(٥) ، وَأَوْفَى النَّاسِ ذِمَّةً ، وَأَلْيَنُهُمْ
عَرِيكَةً^(٦) ، وَأَكْرَمُهُمْ عَشْرَةً ، مَنْ رَأَاهُ بِدِيهَةٍ^(٧) هَابَهُ ، وَمَنْ خَالَطَهُ
أَحْبَبَهُ . يَقُولُ نَاعَتُهُ : لَمْ أَرْ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ مِثْلَهُ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

(١) الأجرد : القليل الشعر .

(٢) الشتن : الغليظ .

(٣) تقلع : لم يثبت قدميه .

(٤) الصبب : ما انحدر من الأرض .

(٥) اللهجة : الكلام .

(٦) لين العريكة : حسن العشرة .

(٧) بدية : ابتداء .

صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم

من الإنجيل

قال ابن إسحاق :

وقد كان فيما بلغني عما كان وضع عيسى بنُ مريم فيما جاءه من الله في الإنجيل لأهل الإنجيل من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم مما أثبتَ يُحَنِّسُ الحواريُّ لهم ، حين نسخ لهم الإنجيل عن عهد عيسى ابن مريم عليه السلام في رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم ، أنه قال :

« من أَبْغَضَنِي فَقَدْ أَبْغَضَ الرَّبَّ . وَلَوْلَا أَنِّي صَنَعْتُ بِحَضْرَتِهِمْ صَنَائِعَ لَمْ يَصْنَعُوا أَحَدٌ قَبْلِي مَا كَانَتْ لَهُمْ خَطِيئَةٌ . وَلَكِنْ مِنَ الْآيَةِ بِطَرَوْا وَظَنُوا أَنَّهُمْ يَعِزُّونَنِي ^(١) وَأَيْضًا لِلرَّبِّ ، وَلَكِنْ لَا بَدَّ مِنْ أَنْ تَمَّ الْكَلِمَةُ الَّتِي فِي النَّامُوسِ . إِنَّهُمْ أَبْغَضُونِي مَجَانًا — أَيْ بَاطِلًا . فَلَوْ قَدْ جَاءَ الْمُتَحَمِّنَا هَذَا الَّذِي يَرْسُلُهُ اللَّهُ إِلَيْكُمْ مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ . رُوحُ الْقُدُسِ هَذَا الَّذِي مِنْ عِنْدِ الرَّبِّ خَرَجَ ، فَهُوَ شَهِيدٌ عَلَيَّ وَأَنْتُمْ أَيْضًا ، لِأَنَّكُمْ قَدِيمًا كُنْتُمْ مَعِيَ . فِي هَذَا قُلْتُ لَكُمْ لِكَيْ لَا تَشْكُوا ^(٢) . »

و « الْمُتَحَمِّنَا » ، بالسريانية : محمد . وهو بالرومية « الْبَرَقْلَيْطُس » .

(١) عزه يعزه : غلبه .

(٥) انظر إنجيل يوحنا ١٥ : ٢٣ — ٢٦ .

البعث

فلما بلغ محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين سنة بعثه الله
رحمة للعالمين ، وكافة للناس بشيرا . وكان الله تبارك وتعالى قد أخذ
الميثاق على كل نبي بعثه قبله بالإيمان به ، والتصديق له ، والنصر له على
من خالفه ، وأخذ عليهم أن يؤدوا ذلك إلى كل من آمن بهم وصدقهم ،
فأدوا من ذلك ما كان عليهم من الحق فيه .

عن عائشة رضى الله عنها :

إنَّ أوَّلَ ما بدى به رسول الله صلى الله عليه وسلم من النبوة ،
حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به ، الرؤيا الصادقة ، لا يرى رسول
الله صلى الله عليه وسلم رؤيا في نومه إلا جاءت كفلق الصبح . وحُبَّ
الله تعالى إليه الخلوة ، فلم يكن شئ أحب إليه من أن يخلو وحده .

وعن عبد الملك بن عبيد الله :

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراد الله بكرامته وابتدأه
بالنبوة ، كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى تحسر عنه البيوت ^(١) ،
ويفضى إلى شعاب ^(٢) مكة وبطون أوديتها ، فلا يمر رسول الله صلى
الله عليه وسلم بحجرٍ ولا شجرٍ إلا قال : السلام عليك يا رسول الله .
فيلتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم حوله وعن يمينه وشماله وخلفه ،
فلا يرى إلا الشجر والحجارة . فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) أى تبعد عنه .

(٢) الشعب : ما انفرج بين الجبلين .

كذلك يرى ويسمع ، ما شاء الله أن يمكث . ثم جاءه جبريل عليه السلام بما جاءه من كرامة الله ، وهو بحراء^(١) ، في شهر رمضان .

عن عبيد بن عمير :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاور في حراء من كل سنة شهراً ، وكان ذلك مما تحنث به قريش في الجاهلية^(٢) . فكان يجاور ذلك الشهر من كل سنة يطعم من جاءه من المساكين ، فإذا قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره الكعبة ، قبل أن يدخل بيته ، فيطوف بها سبعة أو ما شاء الله من ذلك ، ثم يرجع إلى بيته . حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله تعالى به فيه ما أراد من كرامته ، من السنة التي بعثه الله تعالى فيها ، وذلك الشهر شهر رمضان ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله ، حتى إذا كانت الليلة التي أكرم الله فيها رسالته ، جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فجاءني جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج^(٣) فيه كتاب ، فقال : اقرأ . قلت : ما أقرأ^(٤) . قال : فغتنى به^(٥) حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلني فقال : اقرأ . قلت : ما أقرأ . فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلني فقال : اقرأ . فقلت :

(١) حراء : جبل من جبال مكة على ثلاثة أميال

(٢) التحنث : التعبد واعتزال الأصنام .

(٣) النمط : ضرب من البسط والديباج : ثياب من الإبريسم .

(٤) ويروى : « ما أنا بقارى » . (٥) غته : عصره عصرا شديدا .

ماذا أقرأ ؟ فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلني فقال : اقرأ .
فقلت : ماذا أقرأ ؟ فقال : (اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان
من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم
يعلم) . قال : فقرأتها ثم انتهى فانصرف عني ، وهبت من نومي
فكأنما كتبت في قلبي كتابا .

فخرجتُ حتى إذا كنتُ في وسطٍ من الجبل سمعتُ صوتاً من
السماء يقول : يا محمد ، أنت رسولُ الله وأنا جبريل ! فرفعتُ رأسي
إلى السماء أنظر ، فإذا جبريل في صورة رجل صافٍ قدميه في أفق
السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل ! فوقفت أنظر إليه
فما أتقدم وما أتأخر ، وجعلتُ أصرف وجهي عنه في آفاق السماء ،
فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك . فما زلتُ واقفاً ما أتقدمُ
أمامي وما أرجع ورأى حتى بعثتُ خديجةً رسلها في طلي ، فبلغوا
أعلى مكة ورجعوا إليها وأنا واقفٌ في مكاني ذلك . ثم انصرف عني
وانصرفتُ راجعاً إلى أهلي حتى أتيتُ خديجةً فجلستُ إلى نخذهما
مضيفاً إليها ^(١) فقالت : يا أبا القاسم ، أين كنت ؟ فوالله لقد بعثتُ
رسلي في طلبك حتى بلغوا مكة ورجعوا إليَّ ! ثم حدثتها بالذي رأيت
فقالت : أبشر يا ابن عمِّ واثبت ، فوالذي نفسُ خديجة بيده إني
لأرجو أن تكون نبيُّ هذه الأمة !

(١) مضيفاً بها : ملتصقاً بها مائلاً إليها .

ثم قامت فجمعت عليها ثيابها ، ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل ، وهو ابن عمّها ، وكان ورقة تنصّر وقرأ الكتب ، وسمع من أهل التوراة والإنجيل ، فأخبرته بما أخبرها به رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى وسمع ، فقال ورقة : قدّوس قدّوس ! والذي نفس ورقة بيده ، لئن كنت صدقتني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر ^(١) الذي كان يأتي موسى ^(٢) ، وإني لنبى هذه الأمة ، فقولى له فليشبت .

فرجعت خديجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بقول ورقة ، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم جواره وانصرف ، صنع كما كان يصنع ، بدأ بالكعبة ، فقال : يا ابن أخي ، أخبرني بما رأيت وسمعت . فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له ورقة : والذي نفسى بيده إنك لنبى هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاء موسى ، ولتُكذِّبَنَّه ، ولتؤذِنَنَّه ، ولتُخرَجَنَّه ، ولتُقاتلَنَّه ^(٣) ! ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرنَّ الله نصرأ يعليه ! ثم أدنى رأسه منه فقبل يافوخه ^(٤) ، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منزله .

(١) أراد به الملك الذى جاء بالوحى ، وأصل الناموس صاحب سر الرجل .
(٢) السهيل : « إنما ذكر ورقة موسى ولم يذكر عيسى وهو أقرب ، لأن ورقة كان قد تنصّر ، والنصارى لا يقولون فى عيسى : إنه نبى يأتيه جبريل ، إنما يقولون فيه : إن أقنوما من الأقانيم الثلاثة اللاهوتية حل بناسوت المسيح واتحد به ، على اختلاف بينهم فى ذلك الحلول » .
(٣) الهاء فى كل هذه الأفعال هى هاء السكت . (٤) يافوخه : أم رأسه .

ابتداء تنزيل القرآن

فابتدى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتنزيل في شهر رمضان .
يقول الله عز وجل : (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس
وبيِّناتٍ من الهدى والفرقان) . وقال الله تعالى : (إنا أنزلناه في ليلة
القدر . وما أدراك ما ليلةُ القدر . ليلةُ القدر خيرٌ من ألف شهر .
تنزلُ الملائكةُ والروحُ فيها بإذن ربهم من كل أمرٍ . سلامٌ هي حتى
مطلع الفجر) .

وقال الله تعالى : (حم . والكتاب المبين . إنا أنزلناه في ليلة مباركة
إنا كنا مُنذِرِينَ . فيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ . أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إنا كُنَّا
مُرْسِلِينَ) . وقال تعالى : (إن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلْنَا عَلَى عَبْدِنَا
يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ التَّقِيَّةِ الْجَمْعَانِ) . وذلك ملتقى رسول الله صلى الله
عليه وسلم والمشرِّكين ببدر .

إسلام خديجة بنت خويلد

وآمنت به خديجة بنت خويلد ، وصدقت بما جاءه من الله ،
ووازرته على أمره ، وكانت أول من آمن بالله وبرسوله ، وصدق
بما جاء منه ، خفف الله بذلك عن نبيه صلى الله عليه وسلم ، لا يسمع
شيئاً مما يكرهه من رد عليه وتكذيب له ، فيحزنه ذلك ، إلا فرج
الله عنه بها إذا رجع إليها ، تثبتته وتخفف عليه ، وتصدقته ، وتهوّن
عليه أمر الناس ، رحمهما الله !

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أُمِرْتُ أَنْ أَبْشُرَ خَدِيجَةَ
ببَيْتٍ مِنْ قَصَبٍ ^(١) ، لَا صَخَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبَ » .

(١) القصب : اللؤلؤ المنحوت .

فترة الوحي

ثم فتر الوحي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فترة من ذلك ،
حتى شق ذلك عليه فأحزنه ، فجاءه جبريل بسورة الضحى ، يُقسِمُ له
ربه ، وهو الذى أكرمه بما أكرمه به : ما ودَّعه وما قلاه ، فقال تعالى :
(والضحى والضحى والليل إذا سبى . ما ودَّعَكَ رَبُّكَ وما قَلَى) ، يقول ما صرمتك
فترتك ، وما أبغضك ثم أحبك . (وللآخرة خيرٌ لك من الأولى)
أى لما عندى من مرجعك إلى خير لك مما عجلت لك من الكرامة
فى الدنيا . (وَلَسَوْفَ يَعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى) من الفلج (١) فى الدنيا ،
والثواب فى الآخرة . (أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى . وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى .
وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى) . يعرفه الله ما ابتدأه به من كرامته فى عاجل
أمره ، ومنه عليه فى يتمه وعيَّنته وضلالته ، واستنقاذه من ذلك كله
برحمته . (فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ . وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ) أى لا تكن
جباراً ولا متكبراً ، ولا فحاشاً فظاً على الضعفاء من عباد الله .
(وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) أى بما جاءك من الله من نعمته وكرامته
من النبوة فحدِّث ، أى اذكرها وادعُ إليها .

فجعل رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يذكر ما أنعم الله به عليه ،
وعلى العباد به من النبوة سرّاً إلى من يطمئنُّ إليه من أهله .

(١) الفلج : الفوز والغلبة .

أول الناس إسلاماً

ثم كان أول ذكرٍ من الناس آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وصلى معه وصدق بما جاءه من الله تعالى : علي بن أبي طالب ، رضوان
الله وسلامه عليه ، وهو يومئذ ابن عشر سنين

وكان من نعمة الله على علي بن أبي طالب ، ومما صنع الله له ،
وأراد به من الخير ، أن قریشاً أصابتهم أزمة شديدة ، وكان أبو طالب
ذا عيال كثير ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس عمه ،
وكان من أيسر بني هاشم : يا عباس ، إن أخاك أبا طالب كثير العيال ،
وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة ، فانطلق بنا فلنخفف عنه
من عياله ، آخذ من بنيه رجلاً وتأخذ أنت رجلاً فنكفهما عنه .
فقال العباس : نعم . فانطلقا حتى أتيا أبا طالب فقالا له : إنا نريد أن
نخفف من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه . فقال لهما أبو طالب :
إذا تركتما لي عقيلاً فاصنعا ما شئتما .

فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً فضمّه إليه ، وأخذ
العباس جعفرأ فضمّه إليه . فلم يزل عليّ مع رسول الله صلى الله عليه
وسلم حتى بعثه الله تبارك وتعالى نبياً . فاتّبعه علي رضي الله عنه ، وآمن
به وصدقّه .

وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا
حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة ، وخرج معه علي بن أبي طالب

مستخفياً من أبيه ومن جميع أعمامه وسائر قومه ، فيصليان الصلوات فيها ، فإذا أمسيا رجعا . فكثرا كذلك ما شاء الله أن يمكثا . ثم إنَّ أبا طالب عثر عليهما يوماً وهما يصليان فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا ابن أخي ، ما هذا الدين الذي أراك تدين به ؟ قال : أى عم ، هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أئينا إبراهيم ، بعثني الله به رسولا إلى العباد ، وأنت يا عم أحقُّ من بذلت له النصيحة ، ودعوته إلى الهدى ، وأحقُّ من أجابني إليه وأعانتى عليه . فقال أبو طالب : أى ابن أخي ، إنى لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يخلص إليك بشيء تكرهه ما بقيت ! ثم أسلم (زيد بن حارثة) بن شراحيل بن كعب بن عبد العزى . وكان حكيم بن حزام بن خويلد قدم من الشام برقيق فيهم زيد بن حارثة ، فدخلت عليه عمته خديجة وهى يومئذ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها : اختارى يا عمه ، أى هؤلاء الغلمان شئت فهو لك . فاختارت زيدا فأخذته ، فرآه رسول الله صلى الله عليه وسلم عندها فاستوهبه منها فوهبته له ، فأعتقه وتبناه ، وذلك قبل أن يوحى إليه . ثم أسلم (أبو بكر بن أبي قحافة) ، واسمه عتيق ، واسم أبى قحافة عثمان . فلما أسلم أبو بكر رضى الله عنه أظهر إسلامه ودعا إلى الله ورسوله . وكان أبو بكر رجلاً مألُفاً لقومه ، محبباً سهلاً ، وكان أنساب قريش لقريش وأعلم قريش بها وبما كان فيها من خير وشر ، وكان

رجلا تاجرا ذا خلقٍ ومعروفٍ، وكان رجالُ قومه يأتونه ويألفونه
لغير واحدٍ من الأمر: لعلبه، وتجارته، وحسن مجالسته. فجعل يدعو
إلى الله وإلى الإسلام مَنْ وثق به من قومه، بمن يغشاه ويجلس إليه.
فأسلم بدعائه عثمانُ بن عفان، والزبير بن العوام، وعبد الرحمن
ابن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة بن عبيد الله. فكان هؤلاء
النفر الثمانية^(١) الذين سبقوا الناس بالإسلام فصلوا وصدقوا.

ثم أسلم أبو عبيدة بن الجراح، وأبو سلمة بن عبد الأسد، والأرقم
ابن أبي الأرقم^(٢) وعثمان بن مظعون وأخوه قدامة وعبد الله،
وعبيدة بن الحارث، وسعيد بن زيد بن عمرو، وامرأته فاطمة
أخت عمر بن الخطاب، وأسماء بنت أبي بكر، وعائشة بنت أبي بكر
وهي يومئذ صغيرة، وخبّاب بن الأرت، وعُمير بن أبي وقاص،
وعبد الله بن مسعود، ومسعود بن القاري، وسليط بن عمرو،
وعياش بن أبي ربيعة، وامرأته أسماء بنت سلامة، وخنيس بن حذافة،
وعامر بن ربيعة، وعبد الله بن جحش، وأخوه أبو أحمد، وجعفر
ابن أبي طالب، وامرأته أسماء بنت عميس، وحاطب بن الحارث،
وامرأته فاطمة بنت المجلل، وأخوه حطّاب، وامرأته فُكَيْهة بنت
يسار، ومعمر بن الحارث، والسائب بن عثمان بن مظعون،

(١) هم علي، وزيد، وأبو بكر، ومن أسلم على يديه.

(٢) وفي داره كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مستخفيا من قريش بمكة
يدعو الناس فيها إلى الإسلام، وكانت داره على الصفا، حتى تكامل المسلمون
أربعين رجلا بإسلام عمر، فلما تكاملوا أربعين رجلا خرجوا.

والمطلب بن أزهري ، وامرأته رملة بنت أبي عوف ، والنحام واسمه
نعيم بن عبد الله ، وعامر بن فهيرة ، وخالد بن سعيد بن العاص ،
وامرأته أمينة بنت خلف ، وحاطب بن عمرو ، وأبو حذيفة بن عتبة
ابن ربيعة ، وواقد بن عبد الله ؛ وخالد وعامر وعاقل وإياس بنو البكير
ابن عبد ياليل ، وعمار بن ياسر ، وصهيب بن سنان الرومي ^(١) .

الجهري بالدعوة

ثم دخل الناس في الإسلام أرسالا ^(٢) من الرجال والنساء ، حتى
فشأ ذكر الإسلام بمكة وتحدث به .

ثم إن الله عز وجل أمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يصدع
بما جاءه منه ، وأن ييادي ^(٣) الناس بأمره وأن يدعو إليه . وكان بين
ما أخفى رسول الله أمره واستتر به إلى أن أمره الله بإظهار دينه ثلاث
سنين من مبعثه ، ثم قال الله تعالى له : (فاصدع بما تؤمر وأعرض عن
المشركين) . وقال تعالى : (وأنذر عشيرتك الأقربين) . واخفيض
جناحك لمن أتبعك من المؤمنين . وقل إني أنا النذير المبين) .

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلوا ذهبوا في
الشعاب فاستخفوا بصلاتهم من قومهم ، فبينما سعد بن أبي وقاص

(١) صهيب عربي ، ولكن الروم سبته صغيرا فنشأ فيهم فصار ألكن ، ثم
اشتراه رجل من كلب فباعه بمكة : فاشتراه عبد الله بن جدعان فاعتقه . وفي الحديث :
« صهيب سابق الروم » .

(٢) جمع رسل بالتحريك ، وهي الجماعة . (٣) المباداة : المجاهرة .

في نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في شعب من شعاب مكة، إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون، فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقاص يومئذ رجلاً من المشركين بلحى بعير فشجّه^(١)، فكان أول دم هريق في الإسلام.

فلما بادى رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه بالإسلام وصدع به كما أمره الله لم يبعد عنه قومه ولم يردوا عليه حتى ذكر آلهتهم وعابها، فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه، وأجمعوا خلافه وعداوته، إلا من عصم الله تعالى منهم بالإسلام، وهم قليل مستخفون.

وحديث^(٢) على رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه أبو طالب، ومنعه وقام دونه، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على أمر الله مظهر الأمر، لا يردّه عنه شيء. فلما رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يعتبهم^(٣) من شيء أنكروه عليه، من فراقهم وعيب آلهتهم، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حدى عليه، وقام دونه فلم يسلبه لهم، مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب فقالوا: يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا وعاب ديننا وسفّه أحلامنا وضلل آباءنا، فإما أن تكفّ عنا، وإما أن تخلى بيننا وبينه! فقال لهم أبو طالب قولاً رفيقاً، وردّهم ردّاً جميلاً، فانصرفوا عنه.

(١) اللحي: العظم الذي فيه الأسنان. شجّه: كسر رأسه.

(٢) أي عطف ورق.

(٣) يعتبهم: يرضيهم.

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم على ما هو عليه ، يُظهر دين الله ويدعو إليه ، ثم شَرَى^(١) الأمرينهم حتى تباعد الرجال وتضاغنوا ، وأكثر قريش ذكر رسول الله بينها ، فتدامروا فيه^(٢) ، وحض بعضهم بعضاً عليه .

ثم إنهم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى فقالوا له : يا أبا طالب ، إن لك سناً وشرفاً ومنزلةً فينا ، وإنّا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنه عنا ، وإنّا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أعلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين .

فبعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له : يا ابن أخي ، إن قومك قد جاءوني فقالوا لي كذا وكذا — للذي كانوا قالوا له — فأبقي على وعلى نفسك ، ولا تحمّلني من الأمر ما لا أطيق .

فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد بدا لعمّه فيه بداء^(٣) أنه خاذله ومُسْلِهِ ، وأنه قد ضعف عن نصرته ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا عمّ ، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله أو أهلك فيه ، ما تركته ! ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكى ، ثم قام ،

(١) شرى : استطار وتفرق .

(٢) أى حض بعضهم بعضاً .

(٣) أى رأى جديد .

فلما ولي ناداه أبو طالب فقال: أقبل يا ابن أخي . فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت ، فوالله لا أسله لك لشيء أبدا .

ثم إن قريشاً حين عرفوا أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله صلى الله عليه وسلم وإسلامه ، وإجماعه لفراقهم في ذلك وعداوتهم ، مشوا إليه بعُمارة بن الوليد بن المغيرة ، فقالوا له : يا أبا طالب ، هذا عُمارة بن الوليد ، أنهد^(١) قتي في قريش وأجمله ، نخذه فلك عقله^(٢) ونُصرته ، واتخذَه ولداً فهو لك ، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك ، وفرّق جماعة قومك وسفّه أحلامهم^(٣) فنقتله ، فإنما هو رجل برجل ! فقال : والله لبئس ما تسومونني^(٤) ! أعطوني ابنكم أغذوه لكم ، وأعطيكم ابني تقتلونه ! هذا والله ما لا يكون أبدا ! فقال المطيع بن عدى : والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك ، وجهدوا على التخلص مما تكرهه ، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً ! فقال أبو طالب للمطيع : والله ما أنصفوني ، ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم عليّ ، فاصنع ما بدالك !

فحب الأمر^(٥) ، وحميت الحرب ، وتنابد القوم ، وبادى بعضهم بعضاً

(٢) العقل : الدية .

(٤) أى تكلفوني .

(١) أى أشد وأقوى .

(٣) أى عقولهم .

(٥) حقب أمرهم : فسد

ثم إن قريشاً تذا مروا^(١) بينهم على من في القبائل منهم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين أسلموا معه ، فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم ، ومنع الله رسوله صلى الله عليه وسلم منهم بعمه أبي طالب .

وقد قام أبو طالب ، حين رأى قريشاً يصنعون ما يصنعون ، في بني هاشم وبني المطلب ، فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله صلى الله عليه وسلم والقيام دونه ، فاجتمعوا إليه ، وقاموا معه ، وأجابوه إلى ما دعاهم إليه ، إلا ما كان من أبي لهبٍ عدو الله الملعون .

قول الوليد بن المغيرة في القرآن

ثم إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفرٌ من قريش ، وكان ذا سنٍّ فيهم ، وقد حضر الموسم فقال لهم : يا معشر قريش ، إنه قد حضر هذا الموسم وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ، ولا تختلفوا فيكذب بعضهم بعضاً ، ويرد قولكم بعضه بعضاً .

فقالوا : فأنت يا أبا عبد شمسٍ فقلْ وأقم لنا رأياً نقول به .
قال : بل أنتم فقولوا أسمع . قالوا : نقول كاهن . قال : لا والله ما هو بكاهن ، لقد رأينا الكُهَّانَ فما هو بزمرمة^(٢) الكاهن ولا سمجعه ، قالوا : فنقول : مجنون . قال : ما هو بمجنون ، لقد رأينا الجنون وعرفناه ، فما هو بخنقه ولا تخالجه ولا وسوسته .

(١) تذا مروا : حض بعضهم بعضاً . (٢) الزمرمة : كلام خفي لا يسمع .

قالوا: فنقول: شاعر. قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله
رجزه وهزجه وقرينه، ومقبوضه ومبسوطه، فما هو بالشعر.

قالوا: فنقول: ساحر. قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحار
وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم^(١).

قالوا: فما تقول أنت يا أبا عبد شمس. قال: والله إن لقوله لحلاوة،
وإن أصله لعذق^(٢)، وإن فرعه لجناة^(٣)، وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً
إلا عرف أنه باطل. وإن أقرب القول فيه لأن تقولوا: ساحر،
جاء بقوله هو سحر يفرق بين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته،
وبين المرء وعشيرته. فتفرقوا عنه بذلك، فجلسوا يجلسون بسبيل
الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه، وذكروا
لهم أمره. فأنزل الله تعالى في الوليد بن المغيرة: (ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ
وَحِيدًا. وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا. وَبَنِينَ شُهُودًا. ثُمَّ مَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا.
ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ. كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا).

فجعل أولئك النفر يقولون ذلك في رسول الله صلى الله عليه وسلم
لمن لقوا من الناس، وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله
صلى الله عليه وسلم فانتشر ذكره في بلاد العرب كلها.

(١) كان الساحر يعقد خيطاً ثم ينث فيه.

(٢) العذق، بالفتح: النخلة.

(٣) الجناة: ما يجنى.

ذكر مآلِ رسول الله صلى الله عليه وسلم

من قومه

ثم إن قريشاً اشتدَّ أمرُهُم، للشَّقاء الذي أصابهم في عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ومَن أسلم معه منهم، فأغروا به سفهاءهم فكذبوه وأذوه، ورقوه بالشعر والسَّحر والكِهانة والجنون، ورسول الله صلى الله عليه وسلم مظهرٌ لأمر الله لا يستخفي به، مُبادٍ^(١) لهم بما يكرهون من عيب دينهم واعتزال أوثانهم، وفراقه إياهم على كفرهم.

قال عبد الله بن عمرو بن العاص :

حضرتهم وقد اجتمع أشرفهم يوماً في الحِجر، فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا : ما رأينا مثلاً ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قطَّ ! سَفَهَ أحلامنا، وسَبَّ آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمرٍ عظيم !

فبينما هم في ذلك إذ طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبل يمشي حتى استلم الركن، ثم مرَّ بهم طائفاً بالبيت، فلما مرَّ بهم غمزوه ببعض القول، قال : فعرفت ذلك في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم. فلما مرَّ بهم الثانية غمزوه بمثلها، فعرفت ذلك في وجه رسول صلى الله عليه وسلم، ثم مرَّ بهم الثالثة فغمزوه بمثلها، فوقف ثم قال : « أتسمعون يا معشر قريش، أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذِّبح^(٢) ! » .

(١) أى مجاهر .

(٢) كناية عن الهلاك إن لم يؤمنوا .

فَأَخَذَتِ الْقَوْمَ كُلَّهُ حَتَّى مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا كَأَنَّمَا عَلَى رَأْسِهِ
طَيْرٌ وَقَعَ ، حَتَّى إِنْ أَشَدَّهُمْ فِيهِ وَصَاةٌ ^(١) قَبْلَ ذَلِكَ لَيَرْفُوهُ ^(٢) بِأَحْسَنِ
مَا يَجِدُ مِنَ الْقَوْلِ ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَقُولُ : انصرف يا أبا القاسم ، فوالله
مَا كُنْتُ جَهُولًا !

فَانصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى إِذَا كَانَ الْغَدُ
اجْتَمَعُوا فِي الْحِجْرِ وَأَنَا مَعَهُمْ ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : ذَكَرْتُمْ مَا بَلَغَ
مِنْكُمْ وَمَا بَلَغَكُمْ عَنْهُ حَتَّى إِذَا بَادَأَكُمْ بِمَا تَكْرَهُونَ تَرْكُتُمُوهُ !

فَبَيْنَمَا هُمْ فِي ذَلِكَ طَلَعَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَثَبُوا
وِثْبَةً رَجُلٍ وَاحِدٍ ، وَأَحَاطُوا بِهِ يَقُولُونَ : أَنْتَ الَّذِي تَقُولُ كَذَا
وَكَذَا — لِمَا كَانَ يَقُولُ مِنْ عَيْبِ آلِهِمْ وَدِينِهِمْ — فَيَقُولُ رَسُولُ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : نَعَمْ أَنَا الَّذِي أَقُولُ ذَلِكَ .

قَالَ : فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا مِنْهُمْ أَخَذَ بِمَجْمَعِ رِدَائِهِ ، فَقَامَ أَبُو بَكْرٍ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دُونَهُ وَهُوَ يَبْكِي وَيَقُولُ : أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ
رَبِّي اللَّهُ !

ثُمَّ انصَرَفُوا عَنْهُ . فَإِنَّ ذَلِكَ لِأَشَدُّ مَا رَأَيْتُ قَرِيشًا نَالُوا مِنْهُ قَطًّا !

(١) الوصاية : الوصية ، أى وصية بالأذى .

(٢) يرفؤه : يسكنه ويهدئه .

إسلام حمزة

حدثني رجل من أسلم كان واعية :

أن أبا جهلٍ مرَّ برسول الله صلى الله عليه وسلم عند اللصّفا
فآذاه وشتّمه ، ونال منه بعض ما يكره من العيب لدينه ، والتضعيف
لأمره ، فلم يكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومولاة لعبد الله
ابن جُدعان في مسكنٍ لها تسمع ذلك ، ثم انصرف عنه فعمدَ إلى
نادٍ من قريش عند الكعبة فجلس معهم .

فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه أن أقبل متوشحاً
قوسه^(١) ، راجعاً من قنصٍ له^(٢) ، وكان صاحب قنص يرميه ويخرج له ،
وكان إذا فعل ذلك لم يمرّ على نادٍ من قريش إلا وقف وسلم وتحدث
معه ، وكان أعزّ فتى في قريش وأشدّه شكيمة ، فلما مرّ بالمولاة وقد
رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيته قالت له : يا أبا عمار ،
لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد أنفاً من أبي الحكم^(٣) بن هشام ؟
وجدّه ها هنا جالساً فآذاه وسبّه ، وبلغ منه ما يكره ، ثم انصرف عنه
ولم يكلمه محمد صلى الله عليه وسلم !

(١) أى متقلداً إياه .

(٢) القنص : الصيد .

(٣) أبو الحكم : كنية أخرى لأبي جهل . واسمه عمرو بن هشام بن المغيرة
ابن عبد الله بن عمر بن مخزوم .

فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته ، فخرج يسعى ولم يقف على أحد ، مُعِدًّا لأبي جهل إذا لقيه أن يُوقع به ، فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم ، فأقبل نحوه حتى إذا قام على رأسه رفع القوسَ فضربه بها فشجّه شجّةً منكراً ، ثم قال : أتشتّمه وأنا على دينه أقول ما يقول ؟ فردّ ذلك علىّ إن استطعت .

فقامت رجالٌ من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل : دعوا أبا عُمارة ، فإنّي والله قد سببتُ ابنَ أخيه سبّاً قبيحاً ، وتم حمزة رضى الله عنه على إسلامه وعلى ما تابع عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حمزة عرفته قريشٌ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عزّ وامتنع ، وأن حمزة سيمنعه . فكفّوا عن بعض ما كانوا ينالون منه .

قول عتبة بن ربيعة في أمر رسول الله

حدثت أن عتبة بن ربيعة — وكان سيداً — قال يوماً وهو جالس في نادى قريش ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد وحده : يا معشر قريش ، ألا أقوم إلى محمد فأكله وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة ورأوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يزيدون ويكثرُونَ . فقالوا : بلى يا أبا الوليد ، قم إليه فكلّمه . فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا ابن أخي ، إنك منا حيث قد علمت من السّطة^(١) في العشيرة ، والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمرٍ عظيم فرقت به جماعتهم ، وسفّهت به أحلامهم ، وعبت به من مضى من آبائهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : قل يا أبا الوليد أسمع .

قال : يا ابن أخي ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك ، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رِئياً^(٢) تراه لا تستطيع

(١) السّطة : الشرف ، من الوسط ، كالعدة من الوعد .

(٢) الرئى : ما يترأى للإنسان من الجن .

ردّه عن نفسك طلبنا لك الطبّ وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ،
فإنّه ربّما غلب التابع^(١) على الرجل حتى يداوى منه .

حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يستمع منه
قال : أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم . قال : فاسمع مني . قال : أفعل
فقال : (بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تنزيل من الرحمن الرحيم .
كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون . بشيرا ونذيرا
فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون . وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا
إليه) . ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها يقرأها عليه ،
فلما سمعها منه عتبة أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمدا
عليهما يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السجدة
منها^(٢) فسجد ، ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك .

فقام عتبة إلى أصحابه فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم
أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به . فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك
يا أبا الوليد ؟ قال : ورائي أني سمعت قولا والله ما سمعت بمثله قط ،
والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة . يا معشر قريش ،

(١) التابع : الصاحب من الجن .

(٢) هي قوله تعالى : « ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا
للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون » .

أطيعوني واجعلوها بي، واخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزله،
فوالله ليكوننَّ لقوله الذي سمعتُ منه نبأ عظيم، فإن تُصِبَّه العربُ فقد
كُفِيتُموه بغيركم، وإن يَظهرْ على العرب فملككم، وعزّه عزكم،
وكنتم أسعد الناس به !

قالوا : سَحَرَكَ اللهُ يا أبا الوليد بلسانه . قال : هذا رأي فيه
فاصنعوا ما بدا لكم .

ما دار بين رسول الله صلى الله عليه وسلم

وبين رؤساء قريش

ثم إنَّ الإسلام جعل يفشو بمكة في قبائل قريش في الرجال والنساء، وقريش تحبس من قدرت على حبسه وتفتن من استطاعت فتنته من المسلمين.

ثم إنَّ أشراف قريش من كل قبيلة، وهم عتبة بن ربيعة، وشيبة ابن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، والنضر بن الحارث، وأبو البختري ابن هشام، والأسود بن المطلب، وزمعة بن الأسود، والوليد بن المغيرة، وأبو جهل بن هشام، وعبد الله بن أبي أمية، والعاصي بن وائل، ونُبيه ومُنبه ابنا الحجاج، وأمّية بن خلف، اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: ابعثوا إلى محمد فكلّموه وخاصّموه حتى تُعذروا فيه. فبعثوا إليه: إنَّ أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلّموك فأتهم. فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعا، وهو يظنُّ أن قد بدا لهم فيما كلّمهم فيه بداء، وكان عليهم حريصاً يحبُّ رشدَهم ويعزُّ عليه عنّهم^(١)، حتّى جلس إليهم، فقالوا له: يا محمد، إنّنا قد بعثنا إليك لنكلّمك، وإنّا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعبت

(١) العنت: الجور والأذى.

الدين ، وشتمت الآلهة ، وسفّهت الأحلام ، وفرقت الجماعة ، فما بقي
أمرٌ قبيح إلا قد جئت به فيما بيننا وبينك ، فإن كنت إنما جئت بهذا
الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ،
وإن كنت إنما تطلب به الشرفَ فينا فنحن نسوّدك علينا ، وإن كنت
تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً تراه
قد غلب عليك بذلنا لك أموالنا في طلب الطبّ لك حتى نبرئك منه
أو نُعذّر فيك .

فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما بي ما تقولون ،
ما جئت بما جئتم به أطلب أموالكم ولا الشرفَ فيكم ولا الملك عليكم ،
ولكن الله بعثني إليكم رسولا ، وأنزل عليّ كتاباً وأمرني أن
أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فبلغتكم رسالات ربي ونصحت لكم ،
فإن تقبلوا مني ما جئكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن
تردّوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم .

قالوا : يا محمد ، فإن كنت غير قابلٍ منّا شيئاً مما عرضناه عليك
فإنك قد علت أن ليس من الناس أحدٌ أضيقَ بلدًا ، ولا أقلّ ماءً ،
ولا أشدّ عيشاً منّا ، فسل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به فليسرّ
عنا هذه الجبال التي قد ضيّقت علينا ، وليبسط لنا بلادنا ، وليفجر لنا
فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق ، وليبعث لنا من مضى من آبائنا ،
وليكن فيمن يبعث لنا منهم قصي بن كلاب ، فإنه كان شيخ صدق ،

فَنسَأَلُهُمْ عَمَّا تَقُولُ ، أَحَقُّ هُوَ أَمْ بَاطِلٌ فَإِنْ صَدَّقوكَ وَصَنَعْتَ مَا سَأَلْنَاكَ
صَدَقْنَاكَ ، وَعَرَفْنَا بِهِ مَنَزَلَتَكَ مِنَ اللَّهِ ، وَأَنَّهُ بَعَثَكَ رَسُولًا كَمَا تَقُولُ .

فَقَالَ لَهُمْ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ : مَا بِهِذَا بُعِثْتُ إِلَيْكُمْ ، إِنَّمَا
جِئْتُكُمْ مِنَ اللَّهِ بِمَا بَعَثَنِي بِهِ ، وَقَدْ بَلَّغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ، فَإِنْ
تَقَبَّلُوهُ فَهُوَ حُظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَإِنْ تَرُدُّوهُ عَلَيَّ أَصْبِرْ لِأَمْرِ اللَّهِ
تَعَالَى حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ .

قَالُوا : فَإِذَا لَمْ تَفْعَلْ هَذَا لَنَا فَخُذْ لِنَفْسِكَ ، سَلْ رَبَّكَ أَنْ يَبْعَثَ مَعَكَ
مَلَكًا يَصَدِّقُكَ بِمَا تَقُولُ ، وَيُرَاجِعُنَا عَنْكَ ، وَسَلُّهُ فَلْيَجْعَلْ لَكَ جَنَانًا
وَقُصُورًا وَكُنُوزًا مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ ، يُغْنِيكَ بِهَا عَمَّا نَرَاكَ تَبْتَغِي .
فَإِنَّكَ تَقُومُ بِالْأَسْوَاقِ كَمَا نَقُومُ ، وَتَلْتَمِسُ الْمَعَاشَ كَمَا نَلْتَمِسُهُ ، حَتَّى
نَعْرِفَ فَضْلَكَ وَمَنَزَلَتَكَ مِنْ رَبِّكَ إِنْ كُنْتَ رَسُولًا فِيمَا تَزْعُمُ .

فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : مَا أَنَا بِفَاعِلٍ ، وَمَا أَنَا
بِالَّذِي يَسْأَلُ رَبَّهُ هَذَا ، وَمَا بُعِثْتُ إِلَيْكُمْ بِهَذَا ، وَلَكِنْ اللَّهُ بَعَثَنِي
بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، فَإِنْ تَقَبَّلُوا مَا جِئْتُكُمْ بِهِ فَهُوَ حُظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ ، وَإِنْ تَرُدُّوهُ عَلَيَّ أَصْبِرْ لِأَمْرِ اللَّهِ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ .

قَالُوا : فَأَسْقِطِ السَّمَاءَ عَلَيْنَا كِسْفًا^(١) كَمَا زَعَمْتَ أَنْ رَبَّكَ إِنْ شَاءَ
فَعَلَ ؛ فَإِنَّا لَا نُؤْمِنُ لَكَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلَ .

(١) جمع كسفة بالكسر ، وهى القطعة من الشيء .

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذلك إلى الله ، إن شاء أن يفعل به بكم فعل .

قالوا : يا محمد ، أفما علم ربك أنا سنجلس معك ونسألك عما سألتك عنه ، ونطلب منك ما نطلب ، فيتقدم إليك فيعملك ما تراجعنا به ، ويخبرك ما هو صانع في ذلك بنا ، إذ لم نقبل منك ما جئتنا به ! إنه قد بلغنا أنه إنما يعملك هذا رجل باليامة يقال له « الرحمن »^(١) ، وإنا والله لا نؤمن بالرحمن أبداً ، فقد أعذَرنا إليك يا محمد ، وإنا والله لا نتركك وما بلغت منا حتى نهلك أو تهلكنا ! وقال قائلهم : نحن نعبد الملائكة ؛ وهى بنات الله . وقال قائلهم : لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلاً .

فلما قالوا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم قام عنهم ، وقام معه عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة ، وهو ابن عمته^(٢) . فقال له : يا محمد ، عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبله منهم ، ثم سألك لأنفسهم أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول ، ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل ، ثم سألك أن تأخذ لنفسك ما يعرفون به فضلك عليهم ومنزلتك من الله فلم تفعل ، فوالله لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتينا ، ثم تأتى معك

(١) هو مسيلة بن حبيب الحنفي ، المعروف بمسيلة الكذاب ، كان قد تسمى بالرحمن في الجاهلية ، وكان من المعمرين . الروض الأنف .

(٢) أسلم عبد الله قبل فتح مكة .

أربعةٌ من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول ، وإيمُ الله لو فعلتَ ذلك ما ظننتُ أني أصدقك !

ثم انصرف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وانصرف عنه رسول الله إلى أهله حزينا آسفا ، لما فاتته مما كان يطمع به من قومه حين دَعَوْه ، ولما رأى من مبادئهم إِيَّاه .

صَنِيعُ أَبِي جَهْلٍ

فلما قام عنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال أبو جهل :
يا معشر قريش ، إن محمداً قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا ، وشم آباءنا ، وتسفيه أحلامنا ، وشم آلهتنا ، وإني أعاهد الله لأجلسنَّ له غداً بحجرٍ ما أطيق حمله ، فإذا سجدَ في صلاته فضختُ به رأسه ، فأسلوني عند ذلك أو امنعوني ، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم !

قالوا : والله لا نُسليكَ لشيء أبداً ، فامض لما تريد .

فلما أصبح أبو جهل أخذ حجراً كما وصف ثم جلس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظره ، وغدا رسول الله كما كان يغدو ، وكان بمكة وقبلته إلى الشام ، فكان إذا صلى صلى بين الركنين البرأني والأسود ، وجعل الكعبة بينه وبين الشام . فقام يصلي وقد غدت قريش فجلسوا في أنديةهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل ، فلما سجد

رسول الله صلى الله عليه وسلم احتمل أبو جهل الحجر، ثم أقبل نحوه حتى إذا دنا منه رجع منهزماً مُتَقَعاً لونه^(١) مرعوباً، قد يبست يداه على حجره، حتى قذف الحجر من يده. وقامت إليه رجال قريش فقالوا له: مالك يا أبا الحكم؟ قال: قمتُ إليه لأفعل به ما قلتُ لكم البارحة، فلما دنوتُ منه عَرَضَ لى دونه فخلتُ من الإبل لا والله ما رأيتُ مثلَ هامته، ولا مثلَ قَصْرِته^(٢) ولا أنيابه لفحل قط، فهم بي أن يأكلني!

خبر النضر بن الحارث

فلما قال لهم ذلك أبو جهل قام النضر بن الحارث فقال: يا معشر قريش، إنه والله قد نزل بكم أمرٌ ما أتيتُم له بحيلة بعد، قد كان محمدٌ فيكم غلاماً حدثاً، أَرْضَاكم فيكم وأصدقكم حديثاً، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيبَ، وجاءكم بما جاء به قلتم: ساحر! لا، والله ما هو بساحر، لقد رأينا السحرة ونفثهم وعقدهم. وقلتم: كاهن، لا والله ما هو بكاهن، قد رأينا الكهنة وتخالجهم، وسمعنا سجعهم. وقلتم: شاعر، لا والله ما هو بشاعر، قد رأينا الشعر وسمعنا

(١) انتقع لونه (بالبناء للمفعول): تغير من هم أو فزع.

(٢) القصرة: أصل العنق.

أَصْنَفَهُ كُلَّهَا: هَزَجَهُ وَرَجَزَهُ. وَقَلَّمَهُ: مَجْنُونٌ، لَا وَاللَّهِ مَا هُوَ بِمَجْنُونٍ،
لَقَدْ رَأَيْنَا الْجَنْوْنَ، فَمَا هُوَ بِخَنْقِهِ، وَلَا وَسْوَستِهِ، وَلَا تَخْلِيْطِهِ. يَامَعْشَرَ
قَرِيْشٍ، فَانْظُرُوا فِي شَأْنِكُمْ، فَإِنَّهُ وَاللَّهِ لَقَدْ نَزَلَ بِكُمْ أَمْرٌ عَظِيمٌ!

وكان النضر بن الحارث من شياطين قريش، ومن كان يؤذى
رسول الله صلى الله عليه وسلم، وَيَنْصِبُ لَهُ الْعَدَاوَةَ، وكان قد قدم
الحيرة وتعلَّم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رُسَم وإِسْفنديار،
فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً فذكر فيه بالله،
وحذَّر قَوْمَهُ مَا أَصَابَ مَنْ قَبْلَهُمْ مِنْ الْأُمَمِ مِنْ نِقْمَةِ اللَّهِ، خَلْفَهُ
فِي مَجْلِسِهِ إِذَا قَامَ ثُمَّ قَالَ: أَنَا وَاللَّهِ يَامَعْشَرَ قَرِيْشٍ أَحْسَنُ حَدِيثاً مِنْهُ،
فَهَلُمَّ إِلَيَّ فَأَنَا أَحَدُكُمْ أَحْسَنَ مِنْ حَدِيثِهِ. ثُمَّ يَحْدِثُهُمْ عَنْ مَلُوكِ فَارِسَ
وَرُسَمَ وَإِسْفنديار، ثُمَّ يَقُولُ: بِمَاذَا مُحَمَّدٌ أَحْسَنُ حَدِيثاً مِنِّي؟

وكان ابن عباس رضى الله عنهما يقول: نزل فيه ثمان آيات من
القرآن: قول الله عز وجل: (إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)
وكل ما ذكر فيه من الأساطير من القرآن.

ذكر عدوان المشركين على المستضعفين

من أسلم

ثم إنهم عدوا على من أسلم وأتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أصحابه ، فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين ، فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ، وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر ، من استضعفوا منهم ، يفتنونهم عن دينهم ، فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذي يصيبه ، ومنهم من يصلب لهم ويعصمه الله منهم .

وكان بلال مولى أبي بكر رضى الله عنهما ، لبعض بنى جمح ، مولدا من مولديهم ، وهو بلال بن رباح ، وكان اسم أمه حمامة ، وكان صادق الإسلام طاهر القلب . وكان أمية بن خلف بن وهب بن حذافة ابن جمح يخرج به إذا حميت الظهيرة فيطره على ظهره في بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول له : لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى ! فيقول وهو في ذلك البلاء : أحد أحد !! وكان ورقة بن نوفل يمر به وهو يعذب بذلك وهو يقول أحد أحد ، فيقول : أحد أحد والله يا بلال ! ثم يقبل على أمية بن خلف ومن يصنع ذلك به من بنى جمح فيقول : أحلف بالله لئن قتلتموه على هذا لأتخذنه حنانا ^(١) ! . حتى مر به

(١) أى موضع حنان ، أتمسح به متبركا .

أبو بكر الصديق رضى الله عنه يوماً وهم يصنعون به ذلك ، فقال
لأمية بن خلف : ألا تتقى الله فى هذا المسكين ، حتى متى ! قال : أنت
الذى أفسدتَه فَأَنْقِذْهُ مما ترى ! فقال أبو بكر : أفعل ، عندى غلامٌ أسودُّ
أجلدُ منه وأقوى ، على دينك ، أعطيكه به . قال : قد قبلت . فقال :
هو لك . فأعطاه أبو بكر الصديق رضى الله عنه غلامه ذلك ،
وأخذه فأعتقه .

ثم أعتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ست رقاب ،
بلالٌ سابعهم : عامر بن فهيرة ، وأم عُبَيْس ، وزَيْنِرة وأصيب بصرها
حين أعتقها فقالت قريش : ما أذهبَ بصرها إلا اللاتُ والعزى !
فقالت : كذبوا وييت الله ، ما تضرُّ اللاتُ والعزى وما تنفعان !
فردَّ الله بصرها .

وأعتق النهديةَ وبناتها ، وكانت لامرأة من بنى عبد الدار ، فمرَّ بهما
وقد بعثتهما سيدهما بطحين لها وهى تقول : والله لا أعتقكما أبداً !
فقال أبو بكر رضى الله عنه : حلٌّ^(١) يا أم فلان ! فقالت : حلٌّ ؟ أنت
أفسدتَهما فأعتقتهما ! قال : فبكم هما ؟ قالت : بكذا وكذا . قال : قد
أخذتَهما ، وهما حرَّتَانِ ، أرجعا إليهما طحينهما . قالتا : أو نفرُغ منه
يا أبا بكر ثم نردّه إليهما ؟ قال : وذلك إن شئتما .

(١) أى تحللى من يمينك .

ومرّ بجارية بنى مؤمل ، وكانت مُسلمة ، وعمر بن الخطاب يعذبها
لتترك الإسلام ، وهو يومئذ مشرك ، وهو يضربها حتى إذا ملّ قال :
إني أعتذرُ إليك ، إني لم أتركك إلا ملالة ! فتقول : كذلك فعل الله بك !
فابتاعها أبو بكر فأعتقها .

قال أبو قحافة لأبي بكر : يا بُنَيَّ ، إني أراك تُعتِقُ رقاباً
ضعافاً ، فلو أنّك إذ فعلتَ ما فعلتَ أعتقتَ رجالاً جُلداً يمنعونك
ويقومون دونك ؟ فقال أبو بكر : يا أبا ث ، إني إنما أريد ما أريد الله
عزّ وجلّ !

وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وأمه ، وكانوا
أهل بيتِ إسلام ، إذا حميت الظهيرة ، يعذبونهم برمضاء مكة^(١) ،
فيمرّ بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول : « صبراً آل ياسر ،
موعدكم الجنة ! » . فأما أمه فقتلوها وهي تأبى إلا الإسلام .

وكان أبو جهل الفاسق الذي يُغري بهم في رجالٍ من قريش ، إذا
سمِعَ بالرجل قد أسلم ، له شرفٌ ومنعة ، أنبّه وأخزاه وقال : تركتَ
دينَ أبيك وهو خيرٌ منك ! لنُسِفْنَه حِلَمَك ، ولنُفِلَنَّ^(٢) رأيك ،

(١) الرمضاء : الرمل الساخن من شدة حرارة الشمس .

(٢) فیل رأیه : قبحه وخطأه .

ولنضعنَّ شرفك ! وإن كان تاجراً قال : والله لنكسِّدَنَّ تجارتك ،
ولنُهْلِكَنَّ مالك ! وإن كان ضعيفاً أغرَى به .

عن سعيد بن جبير قال :

قلت لعبد الله بن عباس : أكان المشركون يبلغون من
أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من العذاب ما يُعذَّرون
به في ترك دينهم ؟ قال : نعم ، والله ، إن كانوا ليضربون
أحدهم ويُجِيعونه ويعطِّشونه حتى ما يقدر أن يستوى جالساً من شدة
الضرِّ الذي نزل به ، حتَّى يعطيهم ما سألوهُ من الفتنة ، حتى يقولوا له :
اللات والعزى إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم . حتى إن الجُعَل^(١)
ليرثُ بهم فيقولون له : هذا الجُعَل إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم ،
افتدأ منهم مما يبلغون من جهده .

(١) الجُعَل : دابة سوداء كالخنفساء من دواب الأرض ، قيل هو أبو جعران .

الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة

فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يصيب أصحابه من البلاء وما هو فيه من العافية ، بمكانه من الله ومن عمّه أبي طالب ، وأنه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء ، قال لهم : لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يُظلم عنده أحد ، وهي أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه . فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة ، وفراراً إلى الله بدينهم . فكانت أول هجرة كانت في الإسلام .

وكان أول من خرج من المسلمين عثمان بن عفان معه امرأته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو حذيفة بن عتبة معه امرأته سهيلة بنت سهيل ، والزبير بن العوام ، ومصعب بن عمير ، وعبد الرحمن ابن عوف ، وأبو سلمة بن عبد الأسد وامرأته أم سلمة بنت أبي أمية ، وعثمان بن مظعون ، وعامر بن ربيعة معه امرأته ليلى بنت أبي حثمة ، وأبو سبرة بن أبي رهم ، وسهيل بن بيضاء . فكان هؤلاء العشرة أول من خرج من المسلمين إلى أرض الحبشة (١) .

ثم خرج جعفر بن أبي طالب رضى الله عنه ، وتتابع المسلمون حتى اجتمعوا بأرض الحبشة ، فكانوا بها ، منهم من خرج بأهله معه ، ومنهم من خرج بنفسه لا أهل له معه .

فكان جميع من لحق بأرض الحبشة وهاجر إليها من المسلمين سوى أبناءهم الذين خرجوا بهم معهم صغاراً أو ولدوا بها ثلاثة وثمانين رجلاً .

(١) قال ابن هشام : وكان عليهم عثمان بن مظعون .

إرسال قريش إلى الحبشة

في طلب المهاجرين إليها

فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد آمنوا
واطمأننوا بأرض الحبشة، وأنهم قد أصابوا بها داراً وقراراً، اتتمروا
بينهم أن يبعثوا فيهم منهم رجلين من قريش جُلدين إلى النجاشي،
فيردّهم عليهم، ليفتنوهم عن دينهم، ويُخرجوهم من دارهم التي اطمأننوا
بها وأمنوا فيها، فبعثوا عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص
ابن وائل، وجمعوا لهما هدايا للنجاشي ولبطارقتة ثم بعثوهما إليه .

عن أم سلمة بنت أبي أمية بن المغيرة زوج رسول الله صلى الله
عليه وسلم قالت :

لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا بها خير جارٍ، النجاشي، أمنا على
ديننا، وعبدنا الله تعالى لا نُؤذِي ولا نسمع شيئاً نكرهه . فلما بلغ
ذلك قريشاً اتتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم
جلدين، وأن يُهدوا للنجاشي هدايا مما يُستطرف من متاع مكة،
وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم^(١) . فجمعوا له أدماً كثيراً، ولم
يتركوا من بطارقتة بطريقاً إلا أهدوا له هدية، ثم بعثوا بذلك
عبد الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص، وأمروهما بأمرهم،

(١) الأدم : الجلود .

وقالوا لهما : ادفعا إلى كلِّ بطريقٍ هديته قبل أن تكلمَّا النجاشيَّ فيهم ،
ثم قدما إلى النجاشيَّ هداياه ، ثمَّ سلَّاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم .
فخرجتا حتى قدما على النجاشيَّ ونحن عنده بخير دار ، عند خير جار ،
فلم يبقَ من بطارقتِه بطريقٍ إلَّا دفعا إليه هديته قبل أن يكلمَّا النجاشيَّ ،
وقالا لكلِّ بطريقٍ منهم : إنَّه قد ضوى ^(١) إلى بلد الملكِ مِنَّا غلمانُ
سفهاء ، فارقوا دينَ قومهم ولم يدخلوا في دينكم ، وجاءوا بدين
مبتدعٍ ، لا نعرفه نحن ولا أنتم ، وقد بعثنا إلى الملكِ فيهم أشرافُ
قومهم ليردَّهم إليهم ، فإذا كلَّنا الملكَ فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم
إلينا ولا يكلمهم ، فإنَّ قومهم أعلى بهم عينا ^(٢) وأعلمُ بما عابوا عليهم .
فقالوا لهما : نعم .

ثم إنَّهما قدما هداياهما إلى النجاشيَّ فقبِلها منهما . ثمَّ كلَّاه فقالا له :
أيُّها الملكُ ، إنَّه قد ضوى إلى بلدك مِنَّا غلمانُ سفهاء ، فارقوا دينَ قومهم
ولم يدخلوا في دينك ، وجاءوا بدينٍ ابتدَعوه لا نعرفه نحن ولا أنت ،
وقد بعثنا إليك فيهم أشرافُ قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشيرتهم
لتردَّهم إليهم ، فهم أعلى بهم عينا وأعلمُ بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه .
قالت : ولم يكن شيءٌ أبغضَ إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو
ابن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشيَّ : فقالت بطارقتُه حوله :

(١) ضوى إليه : لجأ وأوى .

(٢) هو أعلى به عينا ، أى أبصر به .

صَدَقَا أَيُّهَا الْمَلِكُ ، قَوْمُهُمْ أَعْلَى بِهِمْ عَيْنَا وَأَعْلَمُ بِمَا عَابُوا عَلَيْهِمْ ، فَأَسْلَمَهُمْ
إِلَيْهِمَا فَلِيرَدَّاهُمْ إِلَى بِلَادِهِمْ وَقَوْمِهِمْ . فغَضِبَ النِّجَاشِيُّ ثُمَّ قَالَ :
لَا هَا اللَّهُ (١) ، إِذَا لَا أَسْلَمَهُمْ إِلَيْهِمَا ، وَلَا يَكَادُ قَوْمٌ جَاوَرُونِي ، وَنَزَلُوا
بِلَادِي ، وَاخْتَارُونِي عَلَى مَنْ سِوَايَ ، حَتَّى أَدْعُوهُمْ فَأَسْأَلَهُمْ عَمَّا يَقُولُ
هَذَانِ فِي أَمْرِهِمْ ، فَإِنْ كَانُوا كَمَا يَقُولُونَ أَسْلَمْتُهُمْ إِلَيْهِمَا ، وَرَدَدْتُهُمْ إِلَى
قَوْمِهِمْ ، وَإِنْ كَانُوا عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ مَنَعْتُهُمْ مِنْهُمَا وَأَحْسَنْتُ جَوَارَهُمْ
مَا جَاوَرُونِي .

قَالَتْ : ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
فَدَعَاهُمْ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُ اجْتَمَعُوا ثُمَّ قَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ : مَا تَقُولُونَ
لِلرَّجُلِ إِذَا جَسْتُمُوهُ ؟ قَالُوا : نَقُولُ وَاللَّهِ مَا عَلِمْنَا ، وَمَا أَمْرَنَا بِهِ نَبِينَا
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَأَنَّنا فِي ذَلِكَ مَا هُوَ كَائِنْ . فَلَمَّا جَاءُوا ، وَقَدْ دَعَا
النِّجَاشِيُّ أَسَاقِفَتَهُ فَنَشَرُوا مَصَاحِفَهُمْ حَوْلَهُ ، سَأَلَهُمْ فَقَالَ لَهُمْ : مَا هَذَا
الَّذِي قَدْ فَارَقْتُمْ فِيهِ قَوْمَكُمْ وَلَمْ تَدْخُلُوا بِهِ فِي دِينِي وَلَا فِي دِينِ
أَحَدٍ مِنْ هَذِهِ الْمَلَلِ ؟

فَكَانَ الَّذِي كَلَّمَهُ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ ، فَقَالَ لَهُ : أَيُّهَا الْمَلِكُ ، كُنَّا
قَوْمًا أَهْلَ جَاهِلِيَّةٍ ، نَعْبُدُ الْأَصْنَامَ ، وَنَأْكُلُ الْمَيْتَةَ ، وَنَأْتِي الْفَوَاحِشَ ،
وَنَقْطَعُ الْأَرْحَامَ ، وَنُسِيءُ الْجَوَارَ ، وَيَأْكُلُ الْقَوِيُّ مِنَ الضَّعِيفِ ؛

(١) أَيْ لَا وَاللَّهِ .

فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا ، نعرف نسبه و صدقه ،
وأمانته وعفافه ، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد
نحن وآباؤنا من دونه ، من الحجارة والأوثان ، وأمرنا بصدق
الحديث ، وأداء الأمانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن
المحارم والدماء ، ونهانا عن الفواحش ، وقول الزور ، وأكل مال
اليتم ، وقذف المحصنات ، وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشارك به
شيئا ، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام — قالت : فعدّ عليه أمور
الإسلام — فصدقناه وآمنّا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله ، فعبدنا
الله وحده فلم نُشرك به شيئا ، وحرّمنا ما حرّم علينا ، وأحللنا ما أحلّ
لنا ، فعدا علينا قوّمنا فعدّونا وفتنونا عن ديننا ليردّونا إلى عبادة
الأوثان من عبادة الله تعالى ، وأن نستحلّ ما كنّا نستحلّ من الخبائث ،
فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا
إلى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا في جوارك ، ورجونا
ألا نُظلمَ عندك أيها الملك !

فقال له النجاشي : هل معك مما جاء به عن الله من شيء ؟

فقال له جعفر : نعم . فقال له النجاشي : فاقرأه علي . فقرأ عليه
صدرا من (كهيعص) . قالت : فبكي والله النجاشي حتى اخضلت^(١)

(١) أي ابتلت من الدموع .

لحيته ، وبكت أساقفته حتى أخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم !
ثم قال لهم النجاشي : إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة^(١)
واحدة ! انطلقا . فلا والله لا أسلهم إليكما ، ولا يكادون !

قالت : فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص : والله لا تبينه
غداً بما أستأصل به خضراءهم^(٢) ! فقال له عبد الله بن أبي ربيعة —
وكان أثنى^(٣) الرجلين فينا — : لا تفعل ، فإن لهم أرحاماً وإن كانوا
قد خالفونا . قال : والله لأخبرته أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد !
ثم غدا عليه من الغد فقال له : أيها الملك ، إني أقولون في عيسى
ابن مريم قولاً عظيماً ، فأرسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه .

فأرسل إليهم ليسألهم عنه . قالت : ولم ينزل بنا مثلها قط . فاجتمع
القوم ثم قال بعضهم لبعض : ماذا تقولون في عيسى بن مريم إذا
سألكم عنه ؟ قالوا : نقول والله ما قال الله . وما جاءنا به نبينا ،
كائنا في ذلك ما هو كائن !

فلما دخلوا عليه قال لهم : ماذا تقولون في عيسى بن مريم ؟ فقال
جعفر بن أبي طالب : نقول فيه الذي جاءنا به نبينا صلى الله عليه وسلم ،

(١) المشكاة : الكوة غير النافذة .

(٢) أي شجرتهم التي تفرعوا منها . وخضراء كل شيء : أصله .

(٣) ويروى : « أبقى » .

يقول : هو عبد الله ورسوله ورؤُوحه ، وكلثته ألقاها إلى مريم العذراء البتول^(١) .

فضرب النجاشي يده إلى الأرض فأخذ منها عوداً ، ثم قال : والله ما عدا عيسى بن مريم مما قلت هذا العود^(٢) .

فتناخرت بطارقه حوله حين قال ما قال ، فقال : وإن نخرتم والله ، اذهبوا فأنتم سُيُوم بأرضي^(٣) ، مَنْ سَبَّكُمْ غَرِم ، مَنْ سَبَّكُمْ غَرِم ! ما أَحَبُّ أن لي دبراً^(٤) من ذهبٍ وأنى آذيت رجلاً منكم ! ردوا عليهما هداياهما ولا حاجة لي بها .

قالت : فخرجا من عنده مقبوحين ، مردوداً عليهما ما جاء به ، وأقمنا عنده بخير دارٍ مع خير جار .

قالت : فوالله إنا لعلّ ذلك إذ نزل به رجلٌ من الحبشة ينازعه في ملكه ، فوالله ما علمتُنا حزناً حزناً قط كان أشدَّ علينا من حزنٍ حزنه عند ذلك ، تخوفاً أن يظهر ذلك الرجلُ على النجاشي ، فيأتى رجلٌ لا يعرف من حقنا ما كان النجاشي يُعرف منه . وسار إليه النجاشي وبينهما عرض النيل ، فقال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) البتول : العذراء المنقطعة عن الأزواج .

(٢) أى مقدار هذا العود .

(٣) ويروى : « سيوم ، أى آمنون .

(٤) الدبر ، بلغة الحبشة : الجبل .

مَنْ رَجُلٌ يُخْرِجُ حَتَّى يَحْضُرَ وَقِيعَةُ الْقَوْمِ ثُمَّ يَأْتِينَا بِالْخَبَرِ؟ فَقَالَ الزُّبَيْرُ
ابْنُ الْعَوَّامِ: أَنَا. قَالُوا: فَأَنْتَ. وَكَانَ مِنْ أَحْدَثِ الْقَوْمِ سِنًا. فَنفخوا له
قُرْبَةً ففعلها في صدره، ثُمَّ سَبَحَ عَلَيْهَا حَتَّى خَرَجَ إِلَى نَاحِيَةِ النَّيْلِ الَّتِي بِهَا
مَلْتَقَى الْقَوْمُ، ثُمَّ انْطَلَقَ حَتَّى حَضَرَهُمْ.

قَالَتْ: فَدَعُونَا اللَّهَ لِلنَّجَاشِيِّ بِالظُّهُورِ عَلَى عَدُوِّهِ، وَالتَّمَكُّينَ لَهُ فِي
بِلَادِهِ. فَوَاللَّهِ إِنَّا لَعَلَّيْ ذَٰلِكَ مُتَوَقِّعُونَ لِمَا هُوَ كَائِنٌ، إِذْ طَلَعَ الزُّبَيْرُ وَهُوَ
يَسْعَى، فَلَمَعَ بَشُوبُهُ^(١) وَهُوَ يَقُولُ: أَلَا أَبْشِرُوا فَقَدْ ظَفِرَ النَّجَاشِيُّ!
وَأَهْلَكَ اللَّهُ عَدُوَّهُ، وَمَكَّنَ لَهُ فِي بِلَادِهِ، وَاسْتَوْسَقَ^(٢) عَلَيْهِ أَمْرُ
الْحَبْشَةِ. فَكُنَّا عِنْدَهُ فِي خَيْرِ مَنْزِلٍ، حَتَّى قَدَمْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ بِمَكَّةَ.

(١) لمع بشوبه: رفعه وحركه ليراه غيره.

(٢) استوسق: اجتمع.

إسلام عمر بن الخطاب

ولما قدم عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة على قريش ، ولم يدركوا ما طلبوا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وردّهما النجاشي بما يكرهون ، وأسلم عمر بن الخطاب ، وكان رجلاً ذا شكيمة لا يُرامُ ما وراء ظهره ، امتنع به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وبحمزة ، حتى عازوا قريشاً^(١) .

وكان عبد الله بن مسعود يقول : ما كنا نقدر أن نصليَ عند الكعبة حتى أسلم عمر بن الخطاب ، فلما أسلم قاتل قريشاً حتى صلى عند الكعبة ، وصلينا معه . وكان إسلام عمر بعد خروج من خرج من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحبشة .

وكان إسلام عمر فيما بلغني ، أن أخته فاطمة بنت الخطاب كانت قد أسلمت ، وأسلم بعلها سعيد بن زيد ، وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر ، وكان نعيم بن عبد الله النخّام ، رجل من قومه من بني عدى ابن كعب ، قد أسلم ، وكان أيضاً يستخفي بإسلامه فرقاً من قومه^(٢) .

وكان خباب بن الارت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن ، فخرج عمر يوماً متوشحاً سيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورهطاً من أصحابه قد ذكروا له أنهم قد اجتمعوا في بيتٍ عند

(١) أي غلبوهم .

(٢) الفرق : الخوف .

الصفاء ، وهم قريبٌ من أربعين ما بين رجالٍ ونساء ، ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه حمزة بن عبد المطلب ، وأبو بكر الصديق ، وعلى بن أبي طالب ، في رجال من المسلمين ، ممن كان أقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة ، فلقيه نعيم بن عبد الله فقال له : أين تريد يا عمر ؟ فقال : أريد محمداً هذا الصابى ، الذى فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها ، وسب آلهتها ، فأقتله . فقال له نعيم : والله لقد غرّتك نفسك من نفسك يا عمر ! أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً ؟ ! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟ قال : وأى أهل بيتي ؟ قال : ختلك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو ، وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلمها وتابعا محمداً على دينه ، فعليك بهما ^(١) .

فرجع عمرُ عامداً إلى أخته وختته ^(٢) ، وعندهما خباب بن الارت معه صحيفة فيها (طه) يقرئهما إياها . فلما سمعوا حسَّ عمرُ تغيب خباب في مخدعٍ لهم ^(٣) أو في بعض البيت ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذاها ، وقد سمع عمرُ حين دنا إلى البيت قراءة

(١) إنما أراد بذلك صرفه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خشية عليه . وإيذاء فاطمة وزوجها أهون من ذلك أمرا .

(٢) الختن : زوج البنت أو الأخت .

(٣) المخدع : بيت صغير داخل البيت الكبير .

خَبَابٍ عليهما ، فلما دخل قال : ما هذه الهَيْئَةُ ^(١) التي سمعتُ ؟ قالوا له : ما سمعتُ شيئا . قال : بلى والله ، لقد أُخْبِرْتُ أنكما تابعتما محمداً على دينه ! وبطشَ بختنه سعيد بن زيد ، فقامت إليه أخته فاطمة بنتُ الخطاب لتكفِّه عن زوجها ، فضرَبها فشجَّها ، فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه : نعم ، قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك ! فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما كان صنع ، فارعوى ، وقال لأخته : أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتُكم تقرأون أنفاً أنظرُ ما هذا الذي جاء به محمد — وكان عمر كاتباً ^(٢) — فلما قال ذلك قالت له أخته : إنا نخشاك عليها . قال : لا تخافى . وحلفَ لها بألته ليردَّنها إذا قرأها إليها . فلما قال ذلك طمعت في إسلامه فقالت له : يا أخى ، إنك نجس ، على شركك ، وإنه لا يمسُّها إلا الطَّاهر ^(٣) ! فقام عمر فاغتسل ، فأعطته الصحيفة وفيها (طه) فقرأها ، فلما قرأ منها صدراً قال : ما أحسنَ هذا الكلامَ وأكرمَه ! فلما سمع ذلك خبابٌ خرج إليه فقال له : يا عمر ، والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصَّك بدعوة نبيِّه ، فإنِّي سمعته أمسٍ وهو يقول : اللهم أيد الإسلام بأبى الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب ! فالله الله يا عمر .

(١) الهَيْئَةُ : صوت كلام لا يفهم .

(٢) أى عارفاً بالكتابة .

(٣) اختلف في الطهارة عند مس المصحف ، فقليل فرض ، وقليل مندوب .

فقال له عند ذلك عمر : فدُلّني يا خبابُ على محمد حتى آتيه فأسلم .
فقال له خباب : هو في بيتٍ عند الصفا ، معه نفرٌ من أصحابه .

فأخذ عمر سيفه فتوشَّحه ، ثم عمَد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
وأصحابه فضربَ عليهم البابَ ، فلما سمِعوا صوته قام رجلٌ من
أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظرَ من خلل الباب ، فرآه
متوشِّحاً بالسيف ، فرجعَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فزعٌ
فقال : يا رسول الله ، هذا عمر بن الخطاب متوشِّحاً بالسيف . فقال حمزة
ابن عبد المطلب : فأذن له ، فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له ، وإن كان
جاء يريد شراً قتلناه بسيفه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
أذن له . فأذن له الرجل ونهضَ إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم
حتى لقيه في الحجرة ، فأخذَ حُجْرَتَهُ^(١) أو بمجمع رداءه ، ثم جبَّده به
جبدةً شديدة وقال : ما جاء بك يا ابن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن
تنتهي حتى يُنزلَ الله بك قارعة^(٢) ! فقال عمر : يا رسول الله جئتُك ،
جئتُك لأومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله !

فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبيرةً عرفَ أهل البيت
من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عمر قد أسلم .

(١) الحجرة : موضع شد الإزار .

(٢) القارعة : الداهية .

فتفرّق أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكانهم وقد
عزّوا في أنفسهم حين أسلم عمر ، مع إسلام حمزة ، وعرفوا
أنهما سيمنعان رسول الله صلى الله عليه وسلم وينتصفون بهما
من عدوّهم .

قال عمر : لما أسلمت تلك الليلة تذكّرت أيّ أهل مكة أشدّ لرسول
الله صلى الله عليه وسلم عداوة حتّى آتته فأخبره أنّي قد أسلمت . قال :
قلت أبو جهل . فأقبلت حين أصبحت حتّى ضربت عليه بابه . قال :
نخرج إلىّ أبو جهل فقال : مرحباً وأهلاً بابن أختي^(١) ، ما جاء بك ؟
قال : جئت لأخبرك أنّي قد آمنت بالله وبرسوله محمد ، وصدّقت
بما جاء به . قال : فضرب الباب في وجهي ، وقال : قبحك الله وقبح
ما جئت به !

(١) كانت أم عمر حنتمة بنت هشام بن المغيرة ، أخت أبي جهل بن هشام .

خبر الصحيفة

فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد نزلوا بلداً أصابوه أماناً وقراراً، وأن النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم، وأن عمر قد أسلم فكان هو وحمزة بن عبد المطلب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وجعل الإسلام يفشو في القبائل، اجتمعوا واثمروا بينهم أن يكتبوا كتاباً يتعاقدون فيه على بني هاشم وبني عبد المطلب، على ألا ينكحوا إليهم ولا ينكحوهم، ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم.

فلما اجتمعوا لذلك كتبوه في صحيفة، ثم تعاهدوا وتواثقوا على ذلك، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة توكيداً على أنفسهم.

وكان كاتب الصحيفة منصور بن عكرمة، فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فشُلَّ بعض أصابعه.

فلما فعلت ذلك قريش انحازت بنو المطلب إلى أبي طالب بن عبد المطلب، فدخلوا معه في شعبه واجتمعوا إليه، وخرج من بني هاشم أبو لهب عبد العزى بن عبد المطلب، إلى قريش فظاھروهم. وكان يقول في بعض ما يقول:

يَعِدُنِي مُحَمَّدٌ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا، يَزْعُمُ أَنَّهَا كَائِنَةٌ بَعْدَ الْمَوْتِ، فَمَاذَا وَضَعَ فِي يَدَيَّ بَعْدَ ذَلِكَ؟ ثُمَّ يَنْفُخُ يَدَيْهِ وَيَقُولُ: تَبَّالِكُمَا، مَا أَرَى

فيكما شيئاً مما يقول محمد ! فأنزل الله تعالى فيه : (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ
وَتَبَّتْ (١)).

فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً حتى جهِدوا ، لا يصل إليهم
شيء إلا سرّاً ، مستخفياً به من أراد صلّتهم من قريش .

(١) وقيل : إن سبب نزولها أنه لما نزل قوله تعالى : « وأنذر عشيرتك الأقربين » ،
خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتى الصفا ، فصعد عليه وقال : يا صباحاه !
فلما اجتمعوا إليه قالوا : أرايتم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم
أكنتم مصدقي ؟ قال : ما جربنا عليك كذباً . قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب
شديد . فقال أبو لهب : تبا لك ألهذا جمعتنا ! فأنزل الله تعالى : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ
وَتَبَّتْ » .

ذكر ما لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم من قومه من الأذى

فجعلت قريش^١ حين منعه الله منها وقام عمه وقومه من بني هاشم
وبني المطلب دونه ، وحالوا بينهم وبين ما أرادوا من البطش به ،
يهمزونه ويستهنئون به ويخاصمونه ، وجعل القرآن ينزل في قريش
بأحداشهم وفيمن نصب لعداوته منهم ، فمنهم من سمي لنا ومنهم من
نزل فيه القرآن في عامة من ذكر الله من الكفار .

فكان ممن سمي لنا من قريش ممن نزل فيه القرآن عمه أبو لهب بن
عبد المطلب ، وامراته أم جميل بنت حرب بن أمية « حمالة الخطب »
لأنها كانت تحمل الشوك فتطرحه على طريق رسول الله صلى الله
عليه وسلم حيث يمر ، فأنزل الله تعالى فيهما :

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ . مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ . سَيَصْلَىٰ
نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ . وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ . فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ) .

قال ابن إسحاق : فذكر لي أن أم جميل ، حين سمعت ما نزل فيها
وفي زوجها من القرآن ، أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو
جالس في المسجد عند الكعبة ومعه أبو بكر الصديق ، وفي يدها
فهر^(١) من حجارة ، فلما وقفت عليهما أخذ الله ببصرها عن رسول
الله صلى الله عليه وسلم ، فلا ترى إلا أبا بكر ، فقالت : يا أبا بكر ، أين

(١) الفهر : حجر في مقدار ملء الكف .

صاحبك فقد بلغني أنه يهجونى ! والله لو وجدته لضربت بهذا
الفهر فاه ! ثم انصرفت ، فقال أبو بكر : يا رسول الله ، أما تراها
رأتك ؟ فقال : ما رأيتنى ، لقد أخذ الله بصرها عنى .

وأمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن مجمح ، كان إذا رأى رسول
الله صلى الله عليه وسلم همزه ولمزه ^(١) ، فأنزل الله تعالى فيه : (وَيَلْ
لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ . الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ، يُحْسِبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ .
كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ . نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ . الَّتِي
تَطَّلِعُ عَلَى الْآفَئِدَةِ . إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ . فِي عَمَدٍ مُّمَدَّدَةٍ) .

والعاص بن وائل السهمي ، كان خناب بن الأرت ، صاحب
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قيناً يعمل السيوف ، وكان قد باع من
العاص بن وائل سيوفاً عملها له ، حتى كان له عليه مال ، فجاء يتقاضاه ،
فقال له : يا خناب ، أليس يزعم محمدٌ صاحبكم هذا الذى أنت على
دينه أن فى الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب أو فضة أو ثياب أو خدم !
قال خناب : بلى . قال : فأنظرني إلى يوم القيامة يا خناب ، حتى أرجع
إلى تلك الدار فأقضيكَ هنا لك حقك ، فوالله لا تكون أنت وصاحبك

(١) الهمز : أن يشتم الرجل علانية ويكسر عينيه عليه ، ويغمز به .
واللمز أن يعيبه سرا .

يا خباب أثر عند الله مني ولا أعظم حظاً في ذلك . فأنزل الله تعالى فيه :
(أفرأيت الذي كَفَرَ بآياتنا وقال لا أُوتِين مَالاً وولدا . أَطْلَعَ الْغَيْبَ)
إلى قوله : (ونَزَلُهُ ما يقول وَيَأْتِينَا فَرْدًا) .

ولقي أبو جهل بن هشام رسول الله صلى الله عليه وسلم — فيما
بلغني — فقال له : والله يا محمد لتتركن سب آلِهتنا أو لنسبَن إلهك الذي
تعبد ! فأنزل الله تعالى فيه : (ولا تُسَبِّحُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ) . فذكر لي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
كفَّ عن سب آلِهتهم وجعل يدعوهم إلى الله .

والنضر بن الحارث بن علقمة بن كَلْدَة بن عبد مناف بن عبد الدار
ابن قصي ، كان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً فدعا
فيه إلى الله تعالى وتلا فيه القرآن ، وحذر فيه قريشاً ما أصاب الأُهم
الخالية ، خلفه في مجلسه إذا قام ، فحَدَّثهم عن رُسَمِ الشَّيْثِ (١) ، وعن
إِسْفَنْدِيَار ، وملوك فارس ثم يقول : والله ما محمد بأحسن حديثاً
منِّي وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتبتهَا كما اكتبتهَا محمد . فأنزل
الله فيه : (وقالوا أساطيرُ الأولين اكتبتهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً .
قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا)
ونزل فيه : (إِذَا تُمَلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أساطيرُ الأولين) . ونزل فيه :
(وَيَلْ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ . يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُمَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ يَصِرُ مُسْتَكْبِرًا
كَأَنَّهُ لَمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنِهِ وَقرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ) .

(١) معناه في الفارسية الشمس ، أوضوؤها .

والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي ، وكان من
أشراف القوم ومن يُستَمع منه ، فكان يُصيب من رسول الله صلى الله
عليه وسلم ويردُّ عليه ، فأنزل الله تعالى فيه : (وَلَا تُطِيعُ كُلَّ حَلَّافٍ
مُهِينٍ . هَمَّازٍ مَشَاءٍ بَنَمِيمٍ) إلى قوله (زَنِيمٍ) .

والوليد بن المغيرة قال : أُنزل على محمدٍ وأُترك وأنا كبير قريش
وسيدّها ! ويترك أبو مسعود عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف ،
ونحن عظيمي القريتين ^(١) ! فأنزل الله تعالى فيه : (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا
الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) . إلى قوله (مِمَّا يَجْمَعُونَ) .

وأبي بن خلف ، وعقبة بن أبي مُعَيْط ، وكانا متصافيين ، حسناً
ما بينهما ، فكان عُقْبَةُ قد جلس إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمع
منه ، فبلغ ذلك أبيّاً ، فأتى عُقْبَةَ فقال له : ألم يبلغني أنك جالست محمداً
وسمعتَ منه ! وجهي من وجهك حرامٌ أن أكلّك — واستغلظ من
اليمن — إن أنت جلست إليه أو سمعتَ منه ، أو لم تأتِه فتتفل في
وجهه ! ففعل ذلك عدوُّ الله عُقْبَةُ بن أبي مُعَيْطٍ لعنه الله ، فأنزل الله تعالى
فيهما : (وَيَوْمَ يَعِضُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ
سَبِيلًا) إلى قوله (لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا) .

ومشي أبي بن خلف إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعظمٍ بالٍ
قد ارفّت فقال : يا محمد ، أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعد ما أرم ^(٢) !

(١) القرّيتان : مكة والطائف . (٢) أرم : بلى ، وصار رمة .

ثم فته في يده ثم نفخه في الريح نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نعم ، أنا أقول ذلك ، يبعثه الله وإياك بعد ما تكونان هكذا ، ثم يدخلك الله النار ! فأنزل الله تعالى : (وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَتَمَّ مِنْهُ تُوقِدُونَ) .

واعترض رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يطوف بالكعبة فيما بلغني ، الأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العزى ، والوليد بن المغيرة ، وأمّية بن أبي خلف ، والعاص بن وائل السهمي ، وكانوا ذوى أسنان في قومهم ، فقالوا : يا محمد ، هلم فلنعبد ما تعبد ، فنشترك نحن وأنت في الأمر ، فإن كان الذى تعبد خيراً مما نعبد ، كنّا قد أخذنا بحظنا منه ، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد ، كنت قد أخذت بحظك منه . فأنزل الله تعالى فيهم : (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ . وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ) .

وأبو جهل بن هشام ، لما ذكر الله عز وجل شجرة الزقوم تخويفاً لهم بها قال : يا معشر قريش : هل تدرون ما شجرة الزقوم التى يخوفكم بها محمد ؟ قالوا : لا . قال : عجوة يثرب بالزبد ، والله لئن استمكنّا منها

لَتَنْزِقَنَّهَا نَزْقًا^(١) ! فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ : (إِنْ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعَامُ الْإِثْمِ .
كَأَلْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ كَغَلِي الْحَمِيمِ) أَيْ لَيْسَ كَمَا يَقُولُ .

وَوَقَفَ الْوَلِيدُ بْنُ الْمَغِيرَةِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ،
وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَكَلِّمُهُ ، وَقَدْ طَمِعَ فِي إِسْلَامِهِ ، فَبَيْنَا
هُوَ فِي ذَلِكَ إِذْ مَرَّ بِهِ ابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ الْأَعْمَى ، فَكَلَّمَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَجَعَلَ يَسْتَقِرُّهُ الْقُرْآنُ ، فَشَقَّ ذَلِكَ مِنْهُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى أَضْجَرَ ، وَذَلِكَ أَنَّهُ شَغْلُهُ عَمَّا كَانَ فِيهِ مِنْ أَمْرِ
الْوَلِيدِ ، وَمَا طَمِعَ فِيهِ مِنْ إِسْلَامِهِ ، فَلَمَّا أَكْثَرَ عَلَيْهِ أَنْصَرَفَ عَنْهُ عَابِسًا
وَتَرَكَهُ . فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ : (عَبَسَ وَتَوَلَّى . أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى) إِلَى
قَوْلِهِ تَعَالَى : (فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ . مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ) . أَيْ إِنَّمَا بَعْثُكَ
بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، لَمْ أَخْصَّ بِكَ أَحَدًا دُونَ أَحَدٍ ، فَلَا تَمْنَعُهُ مِمَّنْ ابْتِغَاهُ ،
وَلَا تَتَصَدَّقَ بِهِ لِمَنْ لَا يَرِيدُهُ .

وَكَانَ النَّفَرُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَيْتِهِ
أَبَا لَهَبٍ وَالْحَكَمُ بْنُ أَبِي الْعَاصِ ، وَعَقْبَةُ بْنُ أَبِي مَعِيْطٍ ، وَعَدِيُّ بْنُ
حَمْرَاءَ الثَّقَفِيِّ ، وَابْنُ الْأَصْدَاءِ الْهَذَلِيُّ ، وَكَانُوا جِيرَانَهُ ، لَمْ يَسْلَمْ مِنْهُمْ
أَحَدٌ إِلَّا الْحَكَمُ بْنُ أَبِي الْعَاصِ ، فَكَانَ أَحَدَهُمْ — فِيمَا ذُكِرَ لِي — يَطْرَحُ
عَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَحِمَ الشَّاةِ وَهُوَ يَصِلُ ، وَكَانَ أَحَدَهُمْ يَطْرَحُهَا
فِي بُرْمَتِهِ^(٢) إِذَا نُصِبَتْ لَهُ ، حَتَّى اتَّخَذَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(٢) البرمة : القدر من حجارة .

(١) التزقم : الابتلاع .

حجراً^(١) يستتر به منهم إذا صلى . فكان إذا طر حوا عليه ذلك الأذى ،
يخرج به صلى الله عليه وسلم على العُود ، فيقف به على بابه ثم يقول :
يا بني عبد مناف ، أى جوارٍ هذا ؟ ! ثم يلقيه فى الطريق .

عودة مهاجرة الحبشة

لما بلغهم إسلام أهل مكة

وبلغ أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين خرجوا إلى
أرض الحبشة إسلام أهل مكة ، فأقبلوا لما بلغهم من ذلك حتى إذا
دنوا من مكة بلغهم أن ما كانوا يتحدثوا به من إسلام أهل مكة كان
باطلاً ، فلم يدخل منهم أحدٌ إلا بجوارٍ أو مستخفياً . وجميع من قدم
عليه من مكة من أصحابه من أرض الحبشة ثلاثة وثلاثون رجلاً .

فكان من دخل منهم بجوارٍ فيمن سُمي لنا : عثمان بن مظعون
ابن حبيب الجمحي ، دخل بجوارٍ من الوليد بن المغيرة ؛ وأبو سلمة
ابن عبد الأسد بن هلال بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، ودخل بجوارٍ
من أبي طالب بن عبد المطلب . وأم أبي سلمة برة بنت عبد المطلب .

(١) الحجر ، بالكسر : كل ما حجرتة من حائط .

حديث نقض الصحيفة

ثم إنه قام في نقض تلك الصحيفة التي تكاتبت فيها قريش على بني هاشم وبني المطلب نفر من قريش ، ولم يُبل فيها أحد أحسن من بلاء هشام بن عمرو ، وذلك أنه كان ابن أخى نضلة بن هاشم بن عبد مناف لأمه ، فكان هشام لبني هاشم واصلا ، وكان ذا شرف في قومه ، فكان فيما بلغني يأتي بالبعير ، وبنو هاشم وبنو المطلب في الشعب ليلا ، قد أوقره^(١) طعاما ، حتى إذا أقبل به فم الشعب خلع خطامه من رأسه ، ثم ضرب على جنبه ، فدخل الشعب عليهم . ثم يأتي به قد أوقره بزأ^(٢) فيفعل به مثل ذلك .

ثم إنه مشى إلى زهير بن أبي أمية بن المغيرة ، وكانت أمه عاتكة بنت عبد المطلب ، فقال : يا زهير ، أقد رضيت أن تأكل الطعام ، وتلبس الثياب ، وتنكح النساء ، وأخوالك حيث قد علمت ، ولا يباعون ولا يبتاع منهم ، ولا ينكحون ولا ينكح إليهم . أما إنني لأحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته إلى

(١) أوقره : حمّله .

(٢) البز : الثياب .

مثل ما دُعاكَ إليه منهم ما أجابكَ إليه أبداً ! قال : ويحك يا هشام فماذا أصنع ؟ إنما أنا رجلٌ واحد ، والله أن لو كان معي رجلٌ آخرُ لَقُمْتُ في نقضها حتى أنقضَها . قال : قد وجدتُ رجلاً . قال : فمن هو ؟ قال : أنا . قال له زهير : أبغينا رجلاً ثالثاً .

فذهب إلى المطعم بن عديٍّ فقال له : يا مطعم ، أقدرِ رضىت أن يهلكَ بطنانٍ من بني عبد منافٍ وأنت شاهدٌ على ذلك ، موافقٌ لقريشٍ فيه ؟ ! أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعاً . قال : ويحك فماذا أصنع ؟ إنما أنا رجلٌ واحد . قال : قد وجدتُ ثانياً . قال : من هو ؟ قال : أنا . قال : أبغينا ثالثاً . قال : قد فعلت . قال : من هو ؟ قال : زهير بن أبي أمية . قال : أبغينا رابعاً .

فذهب إلى أبي البختري بن هشام ، فقال له نحواً مما قال للمطعم ابن عدي ، فقال : وهل من أحدٍ يعين على هذا ؟ قال نعم . قال : من هو ؟ قال : زهير بن أبي أمية ، والمطعم بن عدي ، وأنا معك . قال : أبغينا خامساً .

فذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب ، فكلمه وذكر له قرابتهم وحقهم ، فقال له : وهل على هذا الأمر الذي تدعونى إليه من أحد ؟ قال : نعم . ثم سمي له القوم .

فَاتَّعَدُوا خَطْمَ الْحُجُونِ^(١) لَيْلًا بِأَعْلَى مَكَّةَ ، فَاجْتَمَعُوا هُنَاكَ
فَاجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَتَعَاقَدُوا عَلَى الْقِيَامِ فِي الصَّحِيفَةِ حَتَّى يَنْقُضُوهَا . وَقَالَ
زُهَيْرُ : أَنَا أَبَدُوكُمْ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَتَكَلَّمُ .

فَلَمَّا أَصْبَحُوا غَدَوْا إِلَى أُنْدِيتِهِمْ ، وَغَدَا زُهَيْرُ بْنُ أُمَيَّةَ عَلَيْهِ حُلَّةٌ
فَطَافَ بِالْبَيْتِ سَبْعًا ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ : يَا أَهْلَ مَكَّةَ ، أَنَا كُلُّ
الطَّعَامِ وَنَلْبَسُ الثِّيَابَ ، وَبَنُو هَاشِمٍ هَلَكُوا لَا يَبَاعُ وَلَا يَبْتَاعُ مِنْهُمْ !
وَاللَّهِ لَا أَقْعُدُ حَتَّى تَشُقَّ هَذِهِ الصَّحِيفَةُ الْقَاطِعَةُ الظَّالِمَةَ !

قَالَ أَبُو جَهْلٍ — وَكَانَ فِي نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ : كَذَبْتَ وَاللَّهِ
لَا تُشَقُّ !

قَالَ زَمْعَةُ بْنُ الْأَسْوَدِ : أَنْتَ وَاللَّهِ أَكْذَبُ ، مَا رَضِينَا كِتَابَتَهَا
حَيْثُ كُتِبَتْ . قَالَ أَبُو الْبَخْتَرِيِّ : صَدَقَ زَمْعَةُ ، لَا نَرْضَى مَا كُتِبَ
فِيهَا وَلَا نَقْرُبُهُ . قَالَ الْمُطْعَمُ بْنُ عَدِيِّ : صَدَقْتُمَا ، وَكَذَبَ مَنْ قَالَ غَيْرَ
ذَلِكَ ، نَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ مِنْهَا وَمِمَّا كُتِبَ فِيهَا ! قَالَ هِشَامُ بْنُ عَمْرٍو نَحْوًا
مِنْ ذَلِكَ .

فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ : هَذَا أَمْرٌ قُضِيَ بَلِيلٌ ، تَشْوِوْرٌ فِيهِ بَغِيرُ هَذَا الْمَكَانِ .
قَالَ : وَأَبُو طَالِبٍ جَالِسٌ فِي نَاحِيَةِ الْمَسْجِدِ . فَقَامَ الْمُطْعَمُ إِلَى
الصَّحِيفَةِ لِيَشْقَهَا فَوَجَدَ الْأَرْضَ قَدْ أَكَلَتْهَا إِلَّا « بِاسْمِكَ اللَّهُمَّ » .

وَكَانَ كَاتِبُ الصَّحِيفَةِ مَنْصُورُ بْنُ عِكْرَمَةَ ، فَشَلَّتْ يَدُهُ فِيمَا يَزْعُمُونَ .

(١) خَطْمُ الْحُجُونِ : مَوْضِعٌ . وَالْحُجُونُ : جَبَلٌ بِأَعْلَى مَكَّةَ .

أمر الإراشي الذي باع أبا جهلٍ إبله

قال ابن إسحاق : حدثني عبد الملك بن عبد الله بن أبي سفيان الثقفي
وكان واعية ، قال :

قدم رجلٌ من إراشٍ بإبلٍ له مَكَّةَ ، فابتاعها منه أبو جهلٍ ، فمطَّله
بأثمانها ، فأقبلَ الإراشيُّ حتَّى وقفَ على نادٍ من قريشٍ ، ورسول الله
صلى الله عليه وسلم في ناحية المسجد جالس ، فقال : يا معشرَ قريشٍ ،
مَنْ رجلٌ يُؤدِّيني^(١) على أبي الحكم بن هشام ؛ فإنِّي رجلٌ غريبٌ ، ابنُ
سبيلٍ ، وقد غلبني على حقِّي ؟ فقال له أهلُ ذلك المجلس : أترى ذلك
الرجلَ الجالس — لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهم يهزءون به ،
لما يعلمون بينه وبين أبي جهلٍ من العداوة — اذهبْ إليه فإنَّه
يؤدِّيك عليه !

فأقبلَ الإراشيُّ حتَّى وقفَ على رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
فقال : يا عبدَ الله ، إنَّ أبا الحكم بنَ هشام قد غلبني على حقِّي لي قبله ،
وأنا رجلٌ غريبٌ ابنُ سبيلٍ ، وقد سألتُ هؤلاء القومَ عن رجلٍ
يؤدِّيني عليه ، يأخذ لي حقِّي منه ، فأشاروا لي إليك ، فخذ لي حقِّي منه
يرحمك الله ! قال : انطلقْ إليه . وقام معه رسول الله صلى الله عليه وسلم
فلما رأوه قام معه قالوا للرجلِ مِمَّنْ معهم : اتَّبِعْه فانظر ماذا يصنع ؟

(١) يؤدِّيني : يعينني .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى جاءه فضربَ عليه
بابه ، فقال : مَنْ هذا ؟ قال : محمد ، فخرجَ إلى . فخرج إليه وما في
وجهه من رائحة^(١) ، قد انتقع لونه ، فقال : أعطِ هذا الرجلَ حقَّه ،
قال : نعم ، لا تبرحَ حتى أعطيه الذي له . فدخلَ فخرجَ إليه بحقه
فدفعه إليه .

ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال للإراشي :
الحقُّ بشأنك . فأقبل الإراشي حتى وقفَ على ذلك المجلس فقال :
جزاه الله خيراً ، فقد والله أخذَ لي بحقِّي .

قال : وجاء الرجلُ الذي بعثوا معه فقالوا : ويحك ! ماذا رأيت ؟
قال : عجباً من العجب . والله ما هو إلا أن ضربَ عليه بابَه ، فخرجَ
إليه وما معه رُوحه ، فقال له : أعطِ هذا حقَّه ، فقال : نعم ، لا تبرحَ
حتى أخرجَ إليه حقَّه ، فدخلَ فخرجَ إليه بحقه فأعطاه إياه !

ثم لم يلبث أبو جهل أن جاء ، فقالوا له : ويلك ! مالك ؟ والله
ما رأينا مثل ما صنعت قطُّ ! قال : ويحكمُ ، والله ما هو إلا أن ضربَ
على بابي وسمعتُ صوته ، فملتُ رُعباً ثم خرجتُ إليه ، وإن فوقَ
رأسه لفحلاً من الإبل ما رأيتُ مثل هامته ، ولا قصرته ، ولا أنيا به
لفحلٍ قطُّ ! والله لو أبيتُ لأكلني !

(١) أى بقية روح .

حديث الإسراء

ثم أُسْرِىَ برَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى^(١) ، وَهُوَ بَيْتُ الْمُقَدَّسِ مِنْ إِيلِيَاءَ ، وَقَدْ فَشَا الْإِسْلَامُ بِمَكَّةَ فِي قَرِيْشٍ وَفِي الْقَبَائِلِ كُلِّهَا .

كَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ يَقُولُ :

أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْبُرَاقِ ، وَهِيَ الدَّابَّةُ الَّتِي كَانَتْ تُحْمَلُ عَلَيْهَا الْأَنْبِيَاءُ قَبْلَهُ ، تَضَعُ حَافِرَهَا فِي مَنْتَهَى طَرَفِهَا ؛ فُحْمِلَ عَلَيْهَا ، ثُمَّ خَرَجَ بِهِ صَاحِبُهُ ، يَرَى الْآيَاتِ فِيمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى بَيْتِ الْمُقَدَّسِ ، فَوَجَدَ فِيهِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلَ وَمُوسَى وَعِيسَى فِي نَفَرٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَدْ جُمِعُوا لَهُ ، فَصَلَّى بِهِمْ . ثُمَّ أَتَى بِثَلَاثَةِ آنِيَةٍ : إِنَاءٌ فِيهِ لَبَنٌ ، وَإِنَاءٌ فِيهِ خَمْرٌ ، وَإِنَاءٌ فِيهِ مَاءٌ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : فَسَمِعْتُ قَائِلًا يَقُولُ حِينَ عُرِضَتْ عَلَيَّ : إِنْ أَخَذَ الْمَاءُ غَرِقَ وَغَرِقَتْ أُمَّتُهُ ، وَإِنْ أَخَذَ الْخَمْرَ غَوَى وَغَوَتْ أُمَّتُهُ ، وَإِنْ أَخَذَ اللَّبْنَ هُدِيَ وَهَدِيَتْ أُمَّتُهُ . قَالَ : فَأَخَذْتُ إِنَاءَ اللَّبَنِ فَشَرِبْتُ مِنْهُ ، فَقَالَ لِي جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ : هُدِيَتْ وَهَدِيَتْ أُمَّتُكَ يَا مُحَمَّدُ !

وَحُدِّثَتْ عَنِ الْحُسَيْنِ أَنَّهُ قَالَ :

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ فِي الْحِجْرِ إِذْ جَاءَنِي جَبْرِيلُ فَهَمَزَنِي بِقَدَمِهِ ، فَجَلَسْتُ فَلَمْ أَرْ شَيْئًا ، فَعَدْتُ إِلَى مُضْجِعِي ؛

(١) قَالَ السَّهْبِيُّ : قِيلَ كَانَ قَبْلَ الْهَجْرَةِ بَعَامَ .

فجاءني الثانية فهمزني بقدمه ، فجلستُ فلم أر شيئاً ، فعدت إلى مضجعي ؛
فجاءني الثالثة فهمزني بقدمه ، فجلستُ فأخذَ بعضدي ، فقامتُ معه ،
فخرج بي إلى باب المسجد ، فإذا دابةٌ أبيض ، بين البغل والحمار ،
في نخذه جناحان يحفز^(١) بهما رجليه ، يضع يده في منتهى طرفه ،
فحملني عليه ، ثم خرجَ معي لا يفوتني ولا أفوته .

قال الحسن في حديثه : ففضي رسول الله صلى الله عليه وسلم ومضى
جبريل عليه السلام معه حتى انتهى به إلى بيت المقدس ، فوجد فيه
إبراهيم وموسى وعيسى في نفرٍ من الأنبياء ، فأمرهم رسول الله صلى
الله عليه وسلم فصلَّ بهم ، ثم أتى يانعين في أحدهما خمر وفي الآخر لبن ،
فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم إناء اللبن فشرب منه وترك إناء
الخمر ، فقال له جبريل : هديتَ للفطرة وهديتَ أمتك يا محمد ،
وحرمتَ عليكم الخمر . ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى
مكة ، فلما أصبح غدا على قريش فأخبرهم الخبر فقال أكثر الناس :
هذا والله الأمر^(٢) البين ! والله إن العيرَ لتطرد^(٣) شهراً من مكة إلى
الشام مدبرةً ، وشهراً مقبلةً ، أفينذهب ذلك محمد في ليلةٍ واحدةٍ
ويرجع إلى مكة !

(١) يحفز : يدفع .

(٢) الأمر ، بكسر الهمزة : العجيب المنكر .

(٣) العير : القافلة . تطرد اطرادا : تجرى وتسرع .

قال : فارتد كثير ممن كان أسلم ، وذهب الناس إلى أبي بكر فقالوا له :
هل لك يا أبا بكر في صاحبك ، يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس
وصلى فيه ورجع إلى مكة ! فقال لهم أبو بكر : إنكم تكذبون عليه .
فقالوا : بلى ، ها هو ذلك في المسجد يحدث به الناس . فقال أبو بكر :
والله لئن كان قاله لقد صدق ، فما يعجبكم من ذلك ! فوالله إنه ليخبرني
أن الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض في ساعة من ليلٍ أو نهار
فأصدقُه ! فهذا أبعد مما تعجبون منه . ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله
صلى الله عليه وسلم فقال : يا نبي الله ، أحدثت هؤلاء القوم أنك جئت
بيت المقدس هذه الليلة ؟ قال : نعم . قال : يا نبي الله فصفه لي ، فإنني
قد جئتُه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فرفع لي حتى نظرتُ
إليه ، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يصفه لأبي بكر ويقول
أبو بكر : صدقت ، أشهد أنك رسول الله . حتى إذا انتهى قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر : وأنت يا أبا بكر الصديق . فيومئذٍ
سمّاه « الصديق » .

عن سعيد بن المسيّب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
وصف لأصحابه إبراهيم وموسى وعيسى حين رآهم في تلك
الليلة فقال :

أما إبراهيم فلم أر رجلاً أشبه قط بصاحبكم ، ولا صاحبكم أشبه به منه ^(١) . وأما موسى فرجل آدم طويل ضرب جعد أقي ^(٢) كأنه من رجال شنوءة ^(٣) . وأما عيسى بن مريم فرجل أحمر بين القصير والطويل ، سبط الشعر ، كثير خيلان الوجه ^(٤) ، كأنه خرج من ديماس ^(٥) ، نخال رأسه يقطر ماء وليس به ماء ، أشبه رجالكم به عروة بن مسعود الثقفي .

(١) أي ولم أر رجلاً صاحبكم أشبه به منه .

(٢) آدم : أسمر . الضرب : الخفيف اللحم . الجعد : المجتمع بعضه إلى بعض . الأقي : العالي قصبة الأنف .

(٣) شنوءة : قبيلة من الأزد .

(٤) الخيلان : جمع خال ، وهو الشامة السوداء .

(٥) الديماس ، بكسر الدال وفتحها : الحمام .

قصة المعراج

قال ابن إسحاق : وحدثني من لا أتهم عن أبي سعيد الخدري
رضي الله عنه أنه قال :

سمعتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : لما فرغتُ مما كان
في بيت المقدس أتى بالمعراج ، ولم أر شيئاً قط أحسنَ منه ، وهو الذي
يُمَدُّ إليه مِيتَكُمْ عَيْنِيهِ إِذَا حَضَرَ ، فأصعدني صاحبي فيه حتى انتهى بي
إلى بابٍ من أبواب السماء يقال له باب الحفظة ، عليه مَلَكٌ من الملائكة
يقال له إسماعيل ، تحت يديه اثنا عشر ألفَ ملك ، تحت يدي كلِّ ملك
منهم اثنا عشر ألفَ ملك — يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم
حين حدث بهذا الحديث : (وما يَعْلَمُ جنودَ ربِّكَ إِلَّا هو) — فلما
دخل بي قال : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا محمد . قال : أو قد بُعث ؟
قال : نعم . قال : فدعالي بخيرٍ وقاله .

لما دخلت السماء الدنيا رأيت بها رجلاً جالساً تعرض عليه
أرواح بني آدم ، فيقول لبعضها إذا عُرِضَتْ عليه خيراً ويُسرُّ به ،
ويقول : روح طيبة خرجت من جسدٍ طيب . ويقول لبعضها إذا
عُرِضَتْ عليه : أفٍّ ! ويعبِسُ بوجهه ويقول : روح خبيثة خرجت

من جسدٍ خبيث . قلتُ: مَنْ هذا يا جبريل ؟ قال : هذا أبوك آدم ،
تعرّض عليه أرواحُ ذريته فإذا مرّت به روح المؤمن منهم سرّ بها
وقال : روح طيبة خرجت من جسدٍ طيّب ! وإذا مرّت به روح
الكافر منهم أفّف^(١) منها وكرّهما وساءه ذلك ، وقال : روح خبيثة
خرجت من جسدٍ خبيث !

ثمّ رأيت رجالاً لهم مشافر^(٢) كمشافر الإبل ، في أيديهم قطعٌ
من نار كالآفهار^(٣) ، يقذفونها في أفواههم فتخرج من أدبارهم . فقلت :
من هؤلاء يا جبريل ؟ قال : هؤلاء أكلةُ أموال اليتامى ظلماً .

ثمّ رأيت رجالاً لهم بطونٌ لم أر مثلاً قطّ ، بسبيل آل فرعون^(٤)
يمرّون عليهم كالإبل المهيومة^(٥) حين يُعرّضون على النار ، يطئونهم
لا يقدرّون على أن يتحوّلوا من مكانهم ذلك . قلت : من هؤلاء
يا جبريل ؟ قال : هؤلاء أكلةُ الربا .

ثمّ رأيت رجالاً بين أيديهم لحمٌ سمين طيّب ، إلى جنبه لحمٌ غثٌ
متنن^(٦) ، يأكلون من الغث المتنن ويتركون السمين الطيّب . قلت :

(١) أى قال : أفّ ، تضجراً . (٢) المشفر : شفة البعير .

(٣) الآفهار : جمع فهر ، حجر مقدار ملء الكف

(٤) آل فرعون ، لهم فى الآخرة أشد العذاب .

(٥) المهيومة : العطاش . (٦) الغث : الضعيف المهزول .

مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِيلُ ؟ قَالَ : هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَتْرَكُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَهُمْ
مِنَ النِّسَاءِ ، وَيَذْهَبُونَ إِلَى مَا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْهُنَّ .

ثُمَّ رَأَيْتُ نِسَاءً مَعْلَقَاتٍ بُثْدِيَّهِنَّ ، فَقُلْتُ : مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جَبْرِيلُ ؟
قَالَ : هَؤُلَاءِ اللَّاتِي أَدْخَلْنَ عَلَى الرِّجَالِ مَنْ لَيْسَ مِنْ أَوْلَادِهِمْ .

ثُمَّ أَصْعَدَنِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ ، فَإِذَا فِيهَا ابْنَا الْخَالَةِ : عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ ،
وَيَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا .

ثُمَّ أَصْعَدَنِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ ، فَإِذَا فِيهَا رَجُلٌ صُورَتُهُ كَصُورَةِ
الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ ، قُلْتُ : مَنْ هَذَا يَا جَبْرِيلُ ؟ قَالَ : هَذَا أَخُوكَ
يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ .

ثُمَّ أَصْعَدَنِي إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ ، فَإِذَا فِيهَا كَهْلٌ أَيْضُ الرَّأْسِ
وَاللَّحْيَةِ ، عَظِيمُ الْعُثُنُونِ (١) ، لَمْ أَرْ كَهْلًا أَجْمَلَ مِنْهُ ؛ قُلْتُ : مَنْ هَذَا
يَا جَبْرِيلُ ؟ قَالَ : هَذَا الْمُحَبَّبُ فِي قَوْمِهِ هَارُونَ بْنُ عِمْرَانَ .

ثُمَّ أَصْعَدَنِي إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ ، فَإِذَا فِيهَا رَجُلٌ آدَمُ طَوِيلٌ أَقْنَى ،
كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنْوَةِ ؛ فَقُلْتُ لَهُ : مَنْ هَذَا يَا جَبْرِيلُ ؟ قَالَ : هَذَا
أَخُوكَ مُوسَى بْنُ عِمْرَانَ .

ثُمَّ أَصْعَدَنِي إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ ، فَإِذَا فِيهَا كَهْلٌ جَالِسٌ عَلَى كُرْسَى
إِلَى بَابِ الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ، يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ ،
لَا يَرْجِعُونَ فِيهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، لَمْ أَرْ رَجُلًا أَشْبَهَ بِصَاحِبِكُمْ

(١) الْعُثُنُونُ : اللَّحْيَةُ .

ولا صاحبكم أشبه به منه . قلت : من هذا يا جبريل ؟ قال : هذا
أبوك ابراهيم .

ثم دخل بي الجنة فرأيت فيها جاريةً للعساء^(١) فسألتها : لمن أنت ؟
وقد أعجبتني ورأيتها ، فقالت : لزيد بن حارثة .

فبشر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : فأقبلت راجعاً ، فلما مررت
بموسى بن عمران ، ونعم الصاحب كان لكم ، سألتني : كم فُرض عليك
من الصلاة ؟ فقلت : خمسين صلاة كل يوم . فقال : إن الصلاة ثقيلة ،
وإن أمّتك ضعيفة ، فارجعْ إلى ربّك فاسأله أن يخفف عنك وعن
أمّتك . فرجعتُ فسألتُ ربّي أن يخفف عني وعن أمّتي ، فوضع
عني عشراً . ثم انصرفت فمررتُ على موسى فقال لي مثل
ذلك ، فرجعتُ فسألتُ ربّي فوضع عني عشراً . ثم انصرفت
فمررتُ على موسى فقال لي مثل ذلك ، فرجعتُ فسألتُه فوضع عني عشراً
ثم لم يزل يقول لي مثل ذلك ، كلّما رجعتُ إليه قال : فارجع فاسأل .
حتى انتهيت إلى أن وضع ذلك عني إلا خمس صلوات في كل يوم
وليلة . ثم رجعتُ إلى موسى فقال لي مثل ذلك ، فقلت : قد راجعتُ
ربّي وسألتُه ، حتى استحيتُ منه ، فما أنا بفاعل .

فمن أذهبنّ منكم إيماناً بهنّ واحتساباً لهنّ ، كان له أجر خمسين
صلاة مكتوبة .

(١) اللعساء : التي يضرب لون شفقتها إلى السواد قليلاً .

وفاة أبي طالب وخديجة

ثم إنَّ خديجة بنتَ خويلدٍ وأبا طالب هلكا في عامٍ واحدٍ ، فتابعتهما على رسول الله صلى الله عليه وسلم المصائبُ ، بهُلك خديجة ، وكانت له وزيرَ صدقٍ على الإسلام ، يشكو إليها ؛ وبهُلك عمُّه أبي طالب ، وكان له عضداً وحرزاً في أمره ، ومنعةً وناصرأ على قومه ، وذلك قبلَ مهاجره إلى المدينة بثلاث سنين .

فلما هلك أبو طالبٍ نالت قريشٌ من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب ، حتى اعترضه سفينةٌ من سفهاء قريش ، فنثر على رأسه تراباً . ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته والترابُ على رأسه ، فقامت إحدى بناته فجعلت تغسل عنه الترابَ وهي تبكي ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لها : لا تبكي يا بُنَيَّةُ فإنَّ اللهَ مانعٌ أباك . ويقول بين ذلك : ما نالت مني قريشٌ شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب .

ولما اشتكى أبو طالب^(١) وبلغ قريشاً ثقله ، قالت قريشٌ بعضها لبعض : إن حمزة وعُمر قد أسلما ، وقد فشا أمرُ محمدٍ في قبائل قريش كلها ، فانطلقوا بنا إلى أبي طالبٍ فليأخذ لنا على ابن أخيه ، وليُعْطِه منا ، والله ما نأمنُ أن يبتزُّونا أموالنا .

(١) اشتكى : مرض . والشكو والشكوى والشكاة والشكاء : المرض .

قال ابن عباس : مشوا إلى أبي طالب فكلّموه ، وهم أشراف قومه :
عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو جهل بن هشام ، وأمّية بن
خلف ، وأبو سفيان بن حرب ، في رجالٍ من أشرافهم ، فقالوا :
يا أبا طالب ، إنك منا حيث قد علمت ، وقد حضرك ما ترى وتخوّفنا
عليك ، وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك ، فادّعه نُخذله منا ونُخذ
لنا منه ، ليكفّ عنا ونكفّ عنه ، وليدعنا وديننا ندعه ودينه .

فبعث إليه أبو طالب فجاءه ، فقال : يا ابن أخي ، هؤلاء أشراف
قومك ، قد اجتمعوا لك ليُعطوك وليأخذوا منك . فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : نعم كلمة واحدة تعطونها تملكون بها العرب ،
وتدين لكم بها العجم . فقال أبو جهل : نعم وأبيك وعشر كلمات :
قال : « تقولون لا إله إلا الله ، وتخلعون ما تعبدون من دونه » .
فصفّقوا بأيديهم ثم قالوا : أتريد يا محمد أن تجعل الآلهة إلهًا واحدًا ،
إن أمرك لعجيب ! ثم قال بعضهم لبعض : إنه والله ما هذا الرجل
بمعطيكم شيئاً مما تريدون ، فانطلقوا وامضوا على دين آبائكم ، حتّى
يحكم الله بينكم وبينه .

ثم تفرقوا ، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : والله يا ابن أخي ،
ما رأيتك سألتهم شططا ! فلما قالها أبو طالب طمّع رسول الله صلى الله
عليه وسلم في إسلامه ، فجعل يقول له : أى عمّ ، فأنت فقلها استحلّ
لك بها الشفاعة يوم القيامة .

فلما رأى حرصَ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : يا ابن أخى ،
والله لو لا مخافةُ السُّبَّةِ عليك وعلى بنى أيبك من بعدى وأن تظن
قريشُ أنى إنما قتلها جزعاً من الموت لقاتلها ، لا أقولها إلا لأسرك بها .
فلما تقارب من أبى طالبِ الموتُ نظر العباس إليه يحرك شفّيته ،
فأصغى إليه بأذنه فقال : يا ابن أخى ، والله لقد قال أخى الكلمة التى
أمرته أن يقولها ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لم أسمع .

قال : وأنزل الله تعالى فى الرَّهْطِ الذين كانوا اجتمعوا إليه وقال
لهم ما قال وردّوا عليه ما ردّوا : (صَ وَالْقُرْآنِ ذِى الذِّكْرِ . بَلِ
الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ) إلى قوله تعالى : (أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إلهًا
وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ . وَانطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا
عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ . مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ) —
يعنون النصارى لقولهم : (إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ) — (إِنَّ هَذَا
إِلَّا اخْتِلَاقٌ) .

ثم هلك أبو طالب .

سعى الرسول إلى ثقيف يطلب النصرة

ولما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى ما لم تكن تنال منه في حياة عمه أبي طالب ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف يلتمس النصرة من ثقيف ، والمنعة بهم من قومه ، ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل ، فخرج إليهم وحده .

ولما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الطائف ، عمد إلى نفر من ثقيف ، هم يومئذ سادة ثقيف وأشرافهم ، وهم إخوة ثلاثة : عبد ياليل بن عمرو بن عمير ، ومسعود بن عمرو بن عمير ، وحبيب ابن عمرو بن عمير ، وعند أحدهم امرأة من قريش من بني جمح ، فجلس إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاهم إلى الله وكلبهم بما جاءهم له من نصرتهم على الإسلام ، والقيام معه على من خالفه من قومه ، فقال له أحدهم : هو يمرط^(١) ثياب الكعبة إن كان الله أرسلك . وقال الآخر : أما وجد الله أحدا يرسله غيرك ! وقال الثالث : والله لا أكلبك أبدا ، لئن كنت رسولا من الله كما تقول ، لآنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلبك !

(١) يمرطها : ينزعها ويرمي بها .

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من عندهم ، وقد قال لهم : إذا فعلتم ما فعلتم فاكموا عني . وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يبلغ قومه عنه فيذئروهم^(١) ذلك عليه . فلم يفعلوا وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، وألجئوه إلى حائط^(٢) لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه ، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه ، فعمد إلى ظل حبل^(٣) من عنب ، فجلس فيه وابنا ربيعة ينظران إليه ، ويريان ما لقي من سفهاء أهل الطائف . وقد لقي رسول الله صلى الله عليه وسلم المرأة التي من بني جهم فقال لها : ماذا لقينا من أحمائك !!

فلما اطمأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال — فيما ذكر لي — : اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي ، وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني : إلى بعيد يتجهمني^(٤) ، أم إلى عدو ملكته أمري ؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي . أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بي غضبك ، أو يحل علي سخطك ، لك العتي^(٥) حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك !

(١) أذأره عليه : أثاره وجراه . (٢) الحائط : البستان إذا كان عليه جدار .

(٣) الحبل : شجرة العنب . (٤) يتجهمني : يلقاني بالغلظة والوجه الكريه .

(٥) العتي : الرجوع عن الإساءة إلى ما يرضى العاتب .

فلما رآه ابنا ربيعة : عتبة وشيبة ، وما لقي ، تحركت له رَحْمُهُما ،
فدعوا غلاماً لهما نصرانيا يقال له « عَدَّاس » فقالا له : خُذْ قِطْفًا من
هذا العنب فضعه في هذا الطبق ، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل فقل له
يأكل منه . ففعل عدَّاس ، ثم أقبل به حتَّى وضعه بين يدي رسول الله
صلَّى الله عليه وسلم . ثم قال له : كل . فلما وضع رسول الله صلَّى الله
عليه وسلم فيه يده قال : باسم الله . ثم أكل ، فنظر عدَّاس في وجهه ثم
قال : والله إنَّ هذا الكلامَ ما يقوله أهل هذه البلاد ! فقال له رسول
الله صلَّى الله عليه وسلم : ومن أيِّ البلاد أنت يا عدَّاس ، وما دينك ؟
قال : نصراني ، وأنا رجلٌ من أهل نينوى ^(١) . فقال رسول الله صلَّى
الله عليه وسلم : من قرية الرجل الصالح يونس بن مَتَّى . فقال له
عدَّاس : وما يدريك ما يونس بن متى ؟ فقال رسول الله صلَّى الله عليه
وسلم : ذاك أخي ، كان نبياً وأنا نبي ! فأكبَّ عدَّاس على رسول الله
صلَّى الله عليه وسلم يقبل رأسه ويديه وقدميه .

قال : يقول ابنا ربيعة أحدهما لصاحبه : أما غلامك فقد أفسده
عليك ! فلما جاءهما عدَّاس قالَا له : ويلك يا عدَّاس ، مالك تقبل رأس
هذا الرجل ويديه وقدميه ؟ قال : يا سيدي ، ما في الأرض شيءٌ خير
من هذا ، لقد أخبرني بأمرٍ ما يعلمه إلا نبي ! قالَا له : ويحك يا عدَّاس ،
لا يصرفنك عن دينك ، فإن دينك خير من دينه !

(١) نينوى : قرية بالموصل ، من العراق .

أمر جنّ نصيبين

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف من الطائف راجعاً إلى مكة ، حين يئس من خير ثقيف ، حتى إذا كان بنخلة^(١) قام من جوف الليل يصلي ، فمرّ به النفر من الجنّ الذين ذكرهم الله تبارك وتعالى ، وهم — فيما ذكر لي — سبعة نفرٍ من جنّ أهل نصيبين^(٢) ، فاستمعوا له ، فلما فرغ من صلاته ولّوا إلى قومهم منذرين ، قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا .

فقصّ الله خبرهم عليه صلى الله عليه وسلم . قال الله عز وجل :
(وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ) إلى قوله :
(وَيَجْرِمُونَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ) . وقال تبارك وتعالى : (قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ) إلى آخر القصّة من خبرهم في هذه السورة .

(١) نخلة : واديان على ليلتين من مكة ، يقال لأحدهما نخلة الشامية ، وللآخر نخلة اليمانية .

(٢) نصيبين : مدينة من بلاد الجزيرة على طريق القوافل من الموصل إلى الشام .

عرض رسول الله صلى الله عليه وسلم

نفسه على القبائل

ثم قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وقومه أشد ما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه ، إلا قليلا مستضعفين من آمن به ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه في المواسم إذا كانت ، على قبائل العرب ، يدعوهم إلى الله ، ويخبرهم أنه نبي مرسل ، ويسألهم أن يصدقوه ويمنعوه حتى يبين لهم عن الله ما بعثه به .

قال ربيعة بن عباد :

إني لغلّام شاب مع أبي بمِني ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقف على منازل القبائل من العرب ، فيقول : يا بني فلان ، إني رسول الله إليكم ، يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بي وتصدقوا بي وتمنعوني ، حتى أبين عن الله ما بعثني به . وخلفه رجل أحول وضئ ، له غديرتان^(١) ، عليه حلة عدنية ، فإذا فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من قوله وما دعا إليه ، قال ذلك الرجل : يا بني فلان ، إن هذا إنما يدعوكم إلى أن تسلكوا اللات والعزى من أعناقكم ، وحلفاءكم من

(١) الغديرة : الذؤابة من الشعر .

بنى مالك بن أقيش^(١) ، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة ، فلا تطيعوه
ولا تسمعوا منه !

فقلت لأبي : من هذا الذى يتبعه ويردُّ عليه ما يقول ؟ قال : هذا
عمه عبد العزى بن عبد المطلب ، أبو هب .

قال ابن إسحاق : حدثنا ابن شهاب الزهري : أنه أتى كندة في
منازلهم ، وفيهم سيّد لهم يقال له مُليح ، فدعاهم إلى الله عزَّ وجلَّ ،
وعرضَ عليهم نفسه فأبوا عليه .

وأنه أتى بنى عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله عزَّ وجلَّ وعرضَ
عليهم نفسه ، فقال له رجلٌ منهم يقال له « ييخرة بن فراس » : والله
لو أنى أخذتُ هذا الفتى من قريش لأكلتُ به العرب ! ثم قال له :
أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرَكَ اللهُ على مَنْ خالفكَ
أَيكونُ لنا الأمر من بعدك ؟ قال : الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء .
فقال له : أَقْهَدْ^(٢) نَحْوَنا للعرب دونك ، فإذا أظهرَكَ اللهُ كان الأمرُ
لغيرنا ؟ لا حاجة لنا بأمرِكَ ! فأبوا عليه .

فلما صدر الناسُ رجعت بنو عامرٍ إلى شيخٍ لهم قد كانت أدركته
السنُّ حتى لا يقدرُ أن يوافيَ معهم المواسم ، فكانوا إذا رجعوا إليه

(١) هم حى من الجن تنسب إليهم الإبل الأقيشية ، وهى إبل ليست عتاقا ،
تنفر من كل شيء .

(٢) تهدف : تصير هدفاً للرعى .

حدّثوه بما يكون في ذلك الموسم ، فلما قدموا عليه ذلك العام سألهم عما كان في موسمهم ، فقالوا : جاءنا قتي من قريش ، ثم أحد بني عبد المطلب ، يزعم أنه نبي ، يدعوننا إلى أن نمنعه ونقوم معه ونخرج به إلى بلادنا ! فوضع الشيخ يديه على رأسه ثم قال : يا بني عامر ، هل لها من تلافٍ ^(١) ، هل لذنابها من مطلب ^(٢) ! والذي نفس فلان بيده ما تقو لها إسماعيل قط ، وإنها لحق ، فأين رأيكم كان عنكم ؟ !

عن عبد الله بن كعب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى بني حنيفة في منازلهم فدعاهم إلى الله ، وعرض عليهم نفسه ، فلم يكن أحد من العرب أقبح عليه ردّا منهم .

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك من أمره ، كلما اجتمع له الناس بالموسم أتاهم يدعو القبائل إلى الله وإلى الإسلام ، ويعرض عليهم نفسه وما جاء به من الله من الهدى والرحمة ، وهو لا يسمع بقادمٍ يقدم مكة من العرب ، له اسمٌ وشرف ، إلا تصدّى له فدعاه إلى الله ، وعرض عليه ما عنده .

قدم سويد بن صامت ، أحد بني عمرو بن عوف ، مكة حاجاً أو معتمراً ، فتصدّى له رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سمع به ،

(١) التلافى : التدارك .

(٢) مثل يضرب لما فات ، وهو من « ذنابي الطائر » أى ذنبه ، إذا أفلت من الحباله فطلبت الأخذ به .

فدعاه إلى الله وإلى الإسلام ، فقال له سويد : فلعلّ معك مثل الذي
معي . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما الذي معك ؟ قال :
مَجَلَّةُ لُقْمَانَ . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : اعرضها عليّ .
فعرّضها عليه . فقال له : إنّ هذا لكلامٌ حسن ، والذي معي أفضلُ
من هذا ، قرآنُ أنزله الله تعالى عليّ ، هو هُدى ونور . فتلا عليه
رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ، ودعاه إلى الإسلام فلم يَبْعُدْ
منه . وقال : إنّ هذا لقولٌ حسن . ثم انصرف عنه ، فقدم المدينة
على قومه ، فلم يلبث أن قتلته الخزرج .

فإن كان رجالٌ من قومه ليقولون : إنا لنراه قد قتل وهو مسلم .
وكان قتله قبل يوم بُعاث^(١)

(١) بُعاث : موضع من نواحي المدينة ، كانت فيه حرب بين الأوس والخزرج .

بدء إسلام الأنصار

فلما أراد الله عز وجل إظهار دينه ، وإعزاز نبيّه صلى الله عليه وسلم ، وإنجاز موعده له ، خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في الموسم الذي لقيه فيه النفر من الأنصار ، فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم ، فبينما هو عند العقبة ^(١) لقي رهطاً من الخزرج أراد الله بهم خيراً ^(٢) .

لما لقيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لهم : من أنتم ؟ قالوا : نفر من الخزرج . قال : أمن موالى يهود ؟ قالوا : نعم . قال : أفلا تجلسون أكلّكم ؟ قالوا : بلى . فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن .

وكان مما صنع الله لهم به في الإسلام ، أن يهود كانوا معهم في بلادهم . وكانوا أهل كتاب وعلم ، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان ، وكانوا قد غزَوْهم ببلادهم ، فكانوا إذا كان بينهم شيء قالوا لهم : إِنْ نَبِيًّا مَبْعُوثٌ الْآنَ قَدْ أَظْلَمَ زَمَانُهُ ، تَبِعْهُ فَتَقْتُلْكُمْ مَعَهُ قَتْلَ عَادٍ وَإِرم !

(١) العقبة : موضع بين منى ومكة ، بينها وبين مكة نحو ميلين ، ومنها ترمى جمرة العقبة .

(٢) كان ذلك في السنة الحادية عشرة من النبوة .

فلما كلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أولئك النفر ، ودعاهم إلى الله ، قال بعضهم لبعض : تعلموا والله إنه للنبي الذي توعدكم بهم يهود ، فلا يسبقنكم إليه .

فأجابوه فيما دعاهم إليه ، بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ، وقالوا : إنا قد تركنا قومنا ولا قومَ بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك ، فسندم عليهم فدعاهم إلى أمرك ، ونعرض عليهم الذي أجبتك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجلَ أعزُّ منك .

ثم انصرفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا . وهم فيما ذكر لي ستة نفر من الخزرج .

فلما قدموا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ودعاهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم ، فلم تبق دارٌ من دور الأنصار إلَّا وفيها ذكرٌ من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

بيعة العقبة الأولى

حتى إذا كان العام المقبل وأتى الموسم من الأنصار اثنا عشر رجلاً ،
فلقوه بالعقبة، وهى العقبة الأولى ، فبايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم
على بيعة النساء^(١) ، وذلك قبل أن تُفترَضَ عليهم الحرب ، منهم أسعد بن
زُرارة ، ورافع بن مالك ، وعبادة بن الصامت ، وأبو الهيثم بن التيهان .
عن عبادة بن الصامت قال :

كنت فيمن حضر العقبة الأولى ، وكنا اثني عشر رجلاً ، فبايعنا
رسول الله صلى الله عليه وسلم على بيعة النساء ، وذلك قبل أن تُفترَضَ
الحرب ، على ألا نشرك بالله شيئاً ، ولا نَسْرِق ، ولا نَزْنِي ، ولا نَقْتُل
أولادنا ، ولا نَأْتِي بيهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا ، ولا نعصيه في
معروف . فإن وفيتُم فلكم الجنة ، وإن غشيتُم من ذلك شيئاً فأمركم
إلى الله عز وجل ، إن شاء عذب ، وإن شاء غفر .

قال ابن إسحاق : فلما انصرف عنه القوم بعث رسول الله صلى الله
عليه وسلم معهم مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف ، وأمره أن
يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام ، ويفقههم في الدين ، فكان يسمى
المقرئ بالمدينة .

كان يصلى بهم ، وذلك أن الأوس والخزرج كره بعضهم
أن يؤتمه بعض .

(١) أى على نمطها . وكانت بيعة النساء في ثاني يوم الفتح على جبل الصفا
بعد ما فرغ من بيعة الرجال .

بيعة العقبة الثانية

ثم إن مصعب بن عمير رجع إلى مكة ، وخرج من خرج من
الأنصار من المسلمين إلى الموسم ، مع حجاج قومهم من أهل الشرك ،
حتى قدموا مكة ، فواعدوا رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة ،
من أوسط أيام التشريق^(١) حين أراد الله بهم ما أراد من كرامته ،
والنصر لنيته ، وإعزاز الإسلام وأهله ، وإذلال الشرك وأهله .

قال كعب بن مالك :

خرجنا في حجاج قومنا من المشركين ، وقد صلينا وفقهنا ،
ومعنا البراء بن معرور ، سيدنا وكبيرنا ، فلما وجهنا^(٢) لسفرنا وخرجنا
من المدينة قال البراء لنا : يا هؤلاء ، إني قد رأيت رأيا فوالله ما أدرى
أتوافقونني عليه أم لا ؟ قلنا : وما ذاك ؟ قال : رأيت ألا أدع هذه
البنية مني بظهر — يعنى الكعبة — وأن أصلي إليها . فقلنا : والله ما بلغنا
أن نبينا صلى الله عليه وسلم يصلي إلا إلى الشام^(٣) ، وما نريد أن نخالفه .
فقال : إني لمصل إليهما . فقلنا له : لكننا لا نفعل . فكنا إذا حضرت
الصلاة صلينا إلى الشام وصلينا إلى الكعبة ، حتى قدمنا مكة ، وقد كنا
عينا عليه ما صنع وأبى إلا الإقامة على ذلك . فلما قدمنا مكة قال لي :

(١) أيام التشريق : ثلاثة بعد النحر ، كانوا يشرقون فيها لحم الأضاحي للشمس .

(٢) وجهنا : اتجهنا .

(٣) أى بيت المقدس .

يا ابنَ أخى ، انطلق بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نسأله عما صنعتُ في سفرى هذا ، فإنه والله لقد وقعَ في نفسى منه شئٌ ، لما رأيت من خلافكم إياى فيه .

قال : فخرجنا نسأل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكنا لا نعرفه ولم نره قبل ذلك ، فلقينا رجلا من أهل مكة فسألناه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : هل تعرفانه ؟ فقلنا : لا . قال : فهل تعرفان العباس بن عبد المطلب عمه . قلنا : نعم — وقد كنا نعرف العباس ، كان لا يزال يقدم علينا تاجرا — قال : فإذا دخلتما المسجد فهو الرجلُ الجالسُ مع العباس . فدخلنا المسجد فإذا العباسُ جالس ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس معه ، فسلمنا ثم جلسنا إليه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم للعباس : هل تعرف هذين الرجلين يا أبا العباس ؟ قال : نعم ، هذا البراء بن معرور سيد قومه ، وهذا كعب بن مالك . فوالله ما أنسى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : الشاعر ؟ قلت : نعم . فقال له البراء بن معرور : يا نبيَّ الله ، إني خرجت في سفرى هذا وقد هدانى الله للإسلام ، فرأيت ألا أجعل هذه البنية منى بظهر ، فصليتُ إليها ، وقد خالفنى أصحابى فى ذلك ، حتى وقعَ في نفسى من ذلك شئٌ ، فماذا ترى يا رسول الله ؟ قال : قد كنتَ على قبلةٍ لو صبرت عليها !

قال : فرجع البراء إلى قبلة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصلى معنا إلى الشام .

ثم خرجنا إلى الحج ، وواعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة من أوسط أيام التشريق . فلما فرغنا من الحج وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لها ومعنا عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر ، سيد من ساداتنا ، وشریف من أشرافنا ، أخذناه معنا ، وكنا نكتم من معنا من قومنا من المشركين أمرنا ، فكلّمناه وقلنا له : يا أبا جابر ، إنك سيد من ساداتنا ، وشریف من أشرافنا ، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون خطباً للنار غداً . ثم دعونا إلى الإسلام ، وأخبرناه بميعاد الرسول صلى الله عليه وسلم إيانا العقبة . فأسلم وشهد معنا العقبة وكان نقيباً .

فمننا تلك الليلة مع قومنا في رحالنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله صلى الله عليه وسلم نتسلّل تسلّل القطا مستخفين ، حتّى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ، ومعنا امرأتان من نسائنا : نسيبة بنت كعب ، وأسماء بنت عمرو بن عدى^(١) .

قال : فاجتمعنا في الشعب منتظر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى جاءنا معه عمه العباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه ،

(١) قال ابن إسحاق : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يوافق النساء ، إنما كان يأخذ عليهن ، فإذا أقررن قال : اذهبن فقد بايعتكن .

إِلَّا أَنَّهُ أَحَبُّ أَنْ يَحْضَرَ أَمْرَ ابْنِ أَخِيهِ وَيَتَوَثَّقَ لَهُ . فَلَمَّا جَلَسَ كَانَ أَوَّلُ
 مُتَكَلِّمٍ الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلُبِ ، فَقَالَ : يَا مَعْشَرَ الْخَزَرَجِ — وَكَانَتْ
 الْعَرَبُ تَسْمِي هَذَا الْحَيَّ مِنَ الْأَنْصَارِ : الْخَزَرَجِ ، خَزَرَجَهَا وَأَوْسَهَا —
 إِنَّ مُحَمَّدًا مِنَّا حَيْثُ قَدْ عَلِمْتُمْ ، وَقَدْ مَنَعَاهُ مِنْ قَوْمِنَا . مِمَّنْ هُوَ عَلَى مِثْلِ
 رَأَيْنَا فِيهِ ، فَهُوَ فِي عِزٍّ مِنْ قَوْمِهِ ، وَمَنْعَةٍ فِي بَلَدِهِ ، وَإِنَّهُ قَدْ أَبَى
 إِلَّا الْإِنْحِيَاذَ إِلَيْكُمْ ، وَاللَّحُوقَ بِكُمْ ، فَإِنْ كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ وَافُونَ لَهُ بِمَا
 دَعَاكُمْ بِهِ ، وَمَا نَعُوهُ مِمَّنْ خَالَفَهُ فَأَتَمُّ وَمَا تَحْمِلْتُمْ مِنْ ذَلِكَ ، وَإِنْ
 كُنْتُمْ تَرَوْنَ أَنَّكُمْ مُسْلِمُوهُ وَخَاذِلُوهُ بَعْدَ الْخُرُوجِ بِهِ إِلَيْكُمْ فَهِيَ الْآنَ
 فَدَعُوهُ ، فَإِنَّهُ فِي عِزٍّ وَمَنْعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ وَبَلَدِهِ . فَقُلْنَا لَهُ : قَدْ سَمِعْنَا مَا قُلْتَ ،
 فَتَكَلَّمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، نَخِذْ لِنَفْسِكَ وَلِرَبِّكَ مَا أَحْبَبْتَ .

فَتَكَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَتَلَا الْقُرْآنَ ، وَدَعَا إِلَى اللَّهِ ،
 وَرَغَّبَ فِي الْإِسْلَامِ ، ثُمَّ قَالَ : أَبَايَعُكُمْ عَلَى أَنْ تَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ مِنْهُ
 نِسَاءَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ !

فَأَخَذَ الْبَرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ يَدَهُ ثُمَّ قَالَ : نَعَمْ ، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ
 نَبِيًّا ، لَنَمْنَعَنَّكَ مِمَّا نَمْنَعُ مِنْهُ أَزْرُنَا^(١) ، فَبَايَعَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ، فَنَحْنُ وَاللَّهُ
 أَبْنَاءُ الْحُرُوبِ ، وَأَهْلُ الْحَلْقَةِ^(٢) ، وَرَثَتُهَا كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ !

(١) كَسَنُوا بِالْأَزْرِ عَنِ النِّسَاءِ ، أَوْ عَنِ النِّفَوسِ ، يُقَالُ لِكُلِّ مِنْهُمَا : إِزَارٌ .

(٢) الْحَلْقَةُ : السِّلَاحُ كُلُّهُ .

فاعترض القول ، والبراء يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
أبو الهيثم بن التيهان ، فقال : يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرجال حباً
وإننا قاطعوها — يعنى اليهود — فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم
أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟ فتبسم رسول الله صلى الله
عليه وسلم ثم قال : بل الدّم الدم ، والهدم الهدم ^(١) ، أنا منكم وأنتم منى ،
أحارب من حاربتى ، وأسالم من سالمتم !

وقد كان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أخرجوا إلى منكم
اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم . فأخرجوا منهم اثني عشر
نقبياً ، تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس ^(٢) .

وكان أول من ضرب على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم البراء
ابن معرور ، ثم بايع بعد القوم .

فلما بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صرخ الشيطان من

(١) الهدم ، بإسكان الدال وفتحها : إهدار الدم ، أى إن طلب دمكم فقد
طلب دى ، وإن أهدر دمكم فقد أهدر دى . والهدم ، بالتحريك : القبر والمنزل ،
أى أقبر حيث تقبرون ، وأنزل حيث تنزلون .

(٢) أما نقباء الخزرج السبعة فهم : أسعد بن زرارة ، وسعد بن الربيع ،
وعبد الله بن رواحة ، ورافع بن مالك ، والبراء بن معرور ، وعبد الله بن عمرو
ابن حرام ، وعبادة بن الصامت .

وأما نقباء الأوس فهم : أسيد بن حضير ، وسعد بن خيثمة ، ورفاعة بن المنذر .
قال ابن هشام : وأهل العلم يعدون فيهم أبا الهيثم بن التيهان ، ولا يعدون رفاعة .

رأس العقبة بأنفذ صوتٍ سمعته قطّ! يا أهل الجباب (١)، هل لكم في مذمم (٢) والصبابة (٣) معه، قد اجتمعوا على حربكم؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هذا أذب العقبة، هذا ابن أزيب (٤)!

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ارفضوا إلى رحاكم. فقال له العباس بن عباد بن نضلة: والله الذي بعثك بالحق، إن شئت لتملن على أهل منى غداً بأسيا فإنا! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لم تؤمر بذلك، ولكن ارجعوا إلى رحاكم.

فرجعنا إلى مضاجعنا، فمنا عليها حتى أصبحنا، فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش فقالوا: يا معشر الخزرج، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حيٍّ من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم، منكم!

فانبعث من هناك من مشركي قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شيء، وما علمناه! وقد صدقوا، لم يعلموه. قال: وبعضنا ينظر إلى بعض.

(١) الجباب: المنازل، منازل منى.

(٢) كان المشركون يلقبونه بذلك.

(٣) الصبابة: جمع صاب. والصابي: الخارج من دينه، كانوا يسمون من أسلم بذلك.

(٤) أذب بن أزيب: اسم شيطان.

ونفر الناس من منى ، فتنطس^(١) القوم الخبر فوجدوه قد كان ،
 وخرجوا في طلب القوم ، فأدركوا سعد بن عبادة بأذاخر^(٢) ، والمنذر
 ابن عمرو ، وكلاهما كان نقيبا . فأما المنذر فأعجز القوم ، وأما سعد
 فأخذوه ، فربطوا يديه إلى عنقه بنسج رحله^(٣) ، ثم أقبلوا به حتى
 أدخلوه مكة يضربونه ، ويجذبونه بحمته^(٤) ؛ وكان ذا شعر كثير .

قال سعد :

فوالله إني لفي أيديهم إذ طلع على نفر^(٥) من قريش ، فيهم رجل
 وضى^(٦) أبيض ، شعشاع^(٥) حلو^(٥) من الرجال ، فقلت في نفسي : إن يك
 عند أحد من القوم خير^(٦) فعند هذا . فلما دنا منى رفع يده فلكمني لكمة
 شديدة ، فقلت في نفسي : والله ما عندهم بعد هذا من خير ! فوالله إني
 لفي أيديهم يسحبونني إذ أوى لي^(٦) رجل^(٦) ممن كان معهم فقال :
 ويحك ! أما بينك وبين أحد من قريش جوار ولا عهد ؟ قلت : بلى
 والله ، لقد كنت أجير لجبير بن مطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف
 تجارته ، وأمنعهم ممن أراد ظلهم بيلادي ؛ وللحارث بن حرب بن أمية

(١) أى أكثروا البحث .

(٢) أذاخر : موضع قريب من مكة .

(٣) النسج : شراك يشد به الرجل .

(٤) الجملة : مجتمع شعر الرأس .

(٥) الشعشاع : الطويل الحسن .

(٦) أوى له : رقى له ورحمه .

ابن عبد شمس بن عبد مناف . قال : ويحك فاهتف باسم الرجلين ،
واذكر ما بينك وبينهما .

قال : ففعلتُ وخرج ذلك الرجلُ إليهما ، فوجدَهما في المسجد
عند الكعبة ، فقال لهما : إنَّ رجلاً من الخزرج الآن يُضرب بالأبطح
ويهتف بكما ، ويدكر أنَّ بينه وبينكما جواراً . قالا : ومن هو ؟ قال :
سعد بن عباد . قالا : صدق والله ، إنَّ كان ليَجيرُ لنا تجارتنا ، ويمنعهم
أنَّ يظلموا ببلده !

قال : فجاءا خالصاً سعداً من أيديهم ، فانطلق .

شروط بيعة العقبة الأخيرة

وكانت بيعة الحرب حين أذن الله لرسوله في القتال شروطاً سوى شرطه عليهم في العقبة الأولى . كانت الأولى على بيعة النساء ، وذلك أن الله تعالى لم يكن أذن لرسوله صلى الله عليه وسلم في الحرب ، فلما أذن الله له فيها ، وبايعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في العقبة الأخيرة على حرب الأحمر والأسود ، أخذ لنفسه ، واشترط على القوم لربه ، وجعل لهم على الوفاء بذلك الجنة .

قال عباد بن الصامت :

بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بيعة الحرب ، على السمع والطاعة ؛ في عُسْرنا وَيُسْرنا ، وَمَنْشَطنا وَمَكْرَهنا^(١) ، وأَثَرِ علينا^(٢) ، وألا تنزع الأمرَ أهله ، وأن نقول بالحق أينما كنا ، لا نخاف في الله لومة لائم .

(١) المنشط : الأمر تنشط له وتخف له . وهو خلاف المكروه .

(٢) الأثرية بمعنى الاستئثار ، إشارة إلى إيثارهم المهاجرين على أنفسهم .

نزول الأمر بالقتال

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بيعة العقبة لم يؤذن له في الحرب ولم يُحلل له الدماء ، إنما يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى ، والصفح عن الجاهل ، وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم ، ونفّوهم من بلادهم ، فهم من بين مفتون في دينه ، ومن بين معذب في أيديهم ، وبين هارب في البلاد فراراً منهم ؛ منهم من بأرض الحبشة ، ومنهم من بالمدينة ، وفي كل وجه . فلما عتت قريش على الله عز وجل ، وردوا عليه ما أرادهم به من الكرامة ، وكذبوا نبيه صلى الله عليه وسلم ، وعذبوا ونفّوا من عبده ووحدته وصدق نبيه ، واعتصم بدينه ، أذن الله عز وجل لرسوله صلى الله عليه وسلم في القتال والانتصار ممن ظلمهم وبغى عليهم ، فكانت أول آية أنزلت في إذنه له في الحرب ، وإحلاله له الدماء والقتال ، فيما بلغني عن عروة بن الزبير وغيره من العلماء ، قول الله تبارك وتعالى : (أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَانِهِمْ ظُلُمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ . الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ السَّامَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَلَكِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ) . الَّذِينَ إِنْ مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا

الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَمُّرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ
عَاقِبَةُ الْأُمُورِ).

أى إنى إنما أحللت لهم القتال لأنهم ظلموا، ولم يكن لهم ذنبٌ فيما
بينهم وبين الناس ، وإنهم إذا ظهروا أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة
وأمرُوا بالمعروف ونهوا عن المنكر . يعنى النبي صلى الله عليه وسلم
وأصحابه رضى الله عنهم أجمعين .

ثم أنزل الله تبارك وتعالى عليه : (وقا تلوهم حتى لا تكون فتنةً)
أى لا يفتن مؤمنٌ عن دينه (ويكون الدين لله) ، أى حتى يُعبد الله
لا يعبد معه غيره .

الإذن بهجرة المسلمين إلى المدينة

فلما أذن الله تعالى له صلى الله عليه وسلم فى الحرب ، وبايعه هذا
الحى من الأنصار على الإسلام والنصرة له ولمن اتبعه وأوى إليه من
المسلمين ، أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أصحابه من المهاجرين
من قومه ، ومن معه بمكة من المسلمين ، بالخروج إلى المدينة والهجرة
إليها ، وللحقوق بإخوانهم من الأنصار ، وقال : « إن الله عز وجل
قد جعل لكم إخواناً وداراً آمناً بها » . فخرجوا أرسالاً^(١) ، وأقام
رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ينتظر أن يأذن له ربه فى الخروج
من مكة ، والهجرة إلى المدينة .

(١) أى جماعات ، واحدة إثر الأخرى .

ذكر المهاجرين إلى المدينة

فكان أول من هاجر إلى المدينة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من المهاجرين من قريش من بني مخزوم أبو سلمة بن عبد الأسد ، هاجر إلى المدينة قبل بيعة أصحاب العقبة بسنة ، وكان قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة من أرض الحبشة ، فلما آذته قريش وبلغه إسلام من أسلم من الأنصار ، خرج إلى المدينة مهاجراً .

ثم كان أول من قدمها من المهاجرين بعد أبي سلمة عامر بن ربيعة ، معه امرأته ليلى بنت أبي حثمة . ثم عبد الله بن جحش ، احتمل بأهله وبأخيه عبد بن جحش ، وهو أبو أحمد ، وكان أبو أحمد رجلاً ضريراً البصر ، وكان يطوف مكة أعلاها وأسفلها بغير قائد ، وكان شاعراً .
ثم خرج عمر بن الخطاب ، وعياش بن أبي ربيعة المخزومي ، حتى قدما المدينة ، ثم تتابع المهاجرون .

هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بعد أصحابه من المهاجرين ينتظر أن يؤذن له في الهجرة، ولم يتخلف معه بمكة أحد من المهاجرين إلا من حبس وفتن، إلا علي بن أبي طالب، وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق، رضى الله عنهما. وكان أبو بكر كثيراً ما يستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم: « لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً ». فيطمع أبو بكر أن يكونه.

ولما رأت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد صارت له شيعته وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم، ورأوا خروج أصحابه من المهاجرين إليهم، عرفوا أنهم قد نزلوا داراً وأصابوا منهم منعة، فخذروا خروج رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم، وعرفوا أنه قد أجمع لحربهم.

فاجتمعوا له في دار الندوة — وهي دار قصي بن كلاب التي كانت قريش لا تقضى أمراً إلا فيها — يتشاورون فيها ما يصنعون في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، حين خافوه.

عن ابن عباس قال: لما أجمعوا لذلك واتعدوا أن يدخلوا في دار الندوة، ليتشاوروا فيها في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، غدوا في اليوم الذي اتعدوا له، وكان ذلك اليوم يسمى يوم الزحمة،

فاعترضهم إبليس في هيئة شيخ جليل^(١) ، عليه بَت^(٢) . فوقف على باب الدار ، فلما رأوه واقفاً على بابها قالوا : مَنْ الشيخ ؟ قال : شيخ من أهل نجد^(٣) سمع بالذي اتَّعدتم له ، فحضر معكم ليسمع ما تقولون ، وعسى ألا يُعَدَّكم منه رأياً ونُصحاً ! قالوا : أجل فادخل . فدخل معهم وقد اجتمع فيها أشراف قُرَيش ، فقال بعضهم لبعض : إنَّ هذا الرجل قد كان من أمره ما قد رأيتم ، فإنَّا والله ما نأمنه على الوثوب علينا فيمن قد اتَّبعه من غيرنا . فاجتمعوا فيه رأياً .

فتشاوروا ثم قال قائل منهم : احبسوه في الحديد وأغلقوا عليه باباً ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه من الشعراء الذين كانوا قبله ، زهيراً والنابعة ، ومن مضى منهم ، من هذا الموت ، حتى يصيبه ما أصابهم ! فقال الشيخ النجدي : لا والله ما هذا لكم برأى ، والله لئن حبستموه كما تقولون ، لينخرجنَّ أمرُهُ من وراء الباب الذي أغلقتُم دونه إلى أصحابه ، فلا وشكوا أن يثبوا عليكم فينزِعوه من أيديكم ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم . ما هذا لكم برأى ، فانظروا في غيره .

(١) جليل : مسن .

(٢) البت : كساء غليظ مربع .

(٣) السهيلي : إنما قال لهم ، إني من أهل نجد ، لأنهم قالوا لا يدخلن معكم في المشاورة أحد من أهل تهامة ، لأن هواهم مع محمد ، فلذلك تمثل لهم في صورة شيخ نجدى .

فتشاوروا ثم قال قائل منهم^(١) : نُخرجه من بين أظهرنا ، فننفيه من بلادنا ، فإذا أخرجَ عنا فوالله ما نبالي أين ذهب ، ولا حيث وقع ، إذا غابَ عنا وفرغنا منه ، فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت .

فقال الشيخ النجدي : لا والله ، ما هذا لكم برأى ، ألم تروا حسن حديثه ، وحلاوة منطقته ، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به ، والله لو فعلتم ذلك ما أمتم أن يُحَلَّ على حيٍّ من العرب ، فيغلبَ عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه ، ثم يسير بهم إليكم حتى يطمأكم بهم في بلادكم ، فيأخذَ أمركم من أيديكم ، ثم يفعلَ بكم ما أراد ، أديرُوا فيه رأياً غير هذا .

فقال أبو جهل بن هشام : والله إنَّ لي لرأياً ما أراكم وقعتم عليه بعدُ . قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟ قال : أن نأخذ من كل قبيلةٍ قتي شاباً جليداً نسيباً وسيطاً^(٢) فينا ، ثم نعطي كل قتي منهم سيفاً صارماً ، ثم يعمدوا إليه فيضربوه بها ضربة رجل واحدٍ فيقتلوه ، فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرَّق دمه في القبائل جميعاً ، فلم يقدر بنو عبد منافٍ على حرب قومهم جميعاً ، فرضُّوا منا بالعقل^(٣) ، فعقلناه لهم .

(١) هو أبو الأسود ربيعة بن عامر .

(٢) الوسيط : الشريف .

(٣) العقل : الدية .

فقال الشيخ النجدي : القول ما قال الرجل ، هذا الرأي لا رأى غيره !! فتفرق القوم على ذلك وهم يجمعون له .

فأتى جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لا تبست هذه الليلة على فراشك الذي كنت تبست عليه .

فلما كانت عتمة من الليل اجتمعوا على بابه يرصدونه متى ينام ، فيثبون عليه . فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانهم قال لعلي بن أبي طالب : نَمْ على فراشي ، وتَسَجَّ (١) يبردي هذا الحضرمي الأخضر (٢) قَمَّ فيه ، فإنه لن يخلص إليك شيء تكرهه منهم .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينام في برده ذلك إذا نام .

عن محمد بن كعب القرظي قال :

لما اجتمعوا له وفيهم أبو جهل بن هشام ، فقال وهم على بابه : إنَّ محمدا يزعم أنكم إن تابعتموه كنتم ملوك العرب والعجم ، ثم بُعثتم من بعد موتكم فجعلت لكم جنان^١ بجنان الأردن ، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح ، ثم بعثتم من بعد موتكم ، ثم جعلت لكم نار^٢ تُحرقون فيها .

وخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ حفنة من تراب في يده ، ثم قال : أنا أقول ذلك ، أنت أحدهم . وأخذ الله تعالى

(١) تسجى بالثوب : غطى به جسده ووجهه .

(٢) الحضرمي : منسوب إلى حضرموت .

على أبصارهم عنه فلا يرونه . فجعل ينثر ذلك التراب على رؤوسهم
وهو يتلو هؤلاء الآيات من يس : (يس . والقرآن الحكيم) إلى قوله :
(فأغشيناهم فهم لا يبصرون) ، حتى فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم
من هؤلاء الآيات ، ولم يبقَ منهم رجلٌ إلا وقد وضع على رأسه
ترابا ، ثم انصرف إلى حيث أراد أن يذهب .

فأتاهم آت ممن لم يكن معهم فقال : ما تنتظرون ها هنا ؟ قالوا
محمدًا . قال : خيبكم الله ! قد والله خرج عليكم محمد ، ثم ما ترك منكم
رجلاً إلا وقد وضع على رأسه ترابا ، وانطلق لحاجته ، أفما ترون
ما بكم ؟ فوضع كل رجلٍ منهم يده على رأسه فإذا عليه تراب ، ثم
جعلوا يتطلعون فيرون عليا على الفراش متسجياً يبرد رسول الله
صلى الله عليه وسلم فيقولون : والله إن هذا لمحمدٌ نائماً عليه برده .
فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا . فقام على رضى الله عنه عن الفراش
فقالوا : والله لقد كان صدقنا الذى حدثنا .

قال ابن إسحاق : وكان أبو بكر رضى الله عنه رجلاً ذا مال ،
فكان حين استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة فقال له
رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً —
قد طمع بأن يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما يعنى نفسه حين
قال له ذلك — فابتاع راحلتين فاحتبسهما في داره يعلفهما ،
إعداداً لذلك .

قالت عائشة : كان لا يخطئ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار ، إما بكرة وإما عشية ، حتى إذا كان اليوم الذي أذن فيه لرسول الله صلى الله عليه وسلم في الهجرة والخروج من مكة من بين ظهراني قومه ، أتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهجرة في ساعة كان لا يأتي فيها ، فلما رآه أبو بكر قال : ما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الساعة إلا لأمر حدث . فلما دخل تأخر له أبو بكر عن سريره ، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء بنت أبي بكر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أخرج عني من عندك . فقال يا رسول الله : إنما هما ابنتاي ، وما ذاك ؟ فذاك أبي وأمي ! فقال : إن الله قد أذن لي في الخروج والهجرة . فقال أبو بكر : الصُّحبة يا رسول الله ؟ قال : الصُّحبة . قالت : فوالله ما شعرت قط قبل ذلك اليوم أن أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكي يومئذ . ثم قال : يا نبي الله ، إن هاتين راحلتان قد كنت أعدتهما لهذا . فاستأجرا عبد الله ابن أرقط ، وكان مشركاً ، يدهما على الطريق ، فدفعا إليه راحلتيهما ، فكانتا عنده يرعاهما لميعادهما .

قال ابن إسحاق : ولم يعلم فيما بلغني بخروج رسول الله صلى الله عليه وسلم أحد ، حين خرج ، إلا علي بن أبي طالب ، وأبو بكر الصديق وآل أبي بكر . أما علي فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم — فيما بلغني — أخبره بخروجه ، وأمره أن يتخلف بعده بمكة . حتى يؤدى

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع التي كانت عنده للناس ،
وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس بمكة أحدٌ عنده شيءٌ يخشى
عليه إلا وضعه عنده ، لما يعلم من صدقه وأمانته .

فلما أجمع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخروجَ ، أتى أبا بكر
ابن أبي قحافة ، فخرجا من خوخة^(١) لأبي بكر في ظهر بيته ، ثم عمداً
إلى غارِ ثور^(٢) فدخلاه ، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله بن أبي بكر أن
يتسمعَ لهما ما يقول الناسُ فيهما نهاره ، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون
في ذلك اليوم من الخبر . وأمر عامر بن فهيرة موله أن يرعى غنمه
نهاره ثم يريحها عليهما ، يأتيهما إذا أمسى في الغار . وكانت أسماء بنت
أبي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما^(٣) .

فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم في الغار ثلاثاً ومعه أبو بكر ،
وجعلت قريشٌ فيه ، حين فقدوه ، مائة ناقة ، لمن يرثه عليهم . وكان
عبد الله بن أبي بكر يكون في قريش نهاره معهم ، يسمع ما يأمرون به ،
وما يقولون في شأن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبي بكر ، ثم

(١) الخوخة : باب صغير كالنافذة الكبيرة تكون بين بيتين ينصب عليها باب .

(٢) ثور : جبل بأسفل مكة .

(٣) ابن هشام عن الحسن البصري : « انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم
وأبو بكر إلى الغار ليلاً ، فدخل أبو بكر رضى الله عنه قبل رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، فليس الغار ، لينظر : أفيه سبع أو حية ؟ يقي رسول الله صلى الله عليه وسلم
بنفسه » .

يأتيهما إذا أمسى فيخبرهما الخبر . وكان عامر بن فهيرة مولى أبي بكر
رضي الله عنه ، يرعى في رعيان أهل مكة ، فإذا أمسى أراح عليهما غنم
أبي بكر ، فاحتلبا وذبحما ، فإذا عبد الله بن أبي بكر غدا من عندهما إلى
مكة ، اتبع عامر بن فهيرة أثره بالغنم حتى يعنى عليه ، حتى إذا مضت
الثلاث ، وسكن عنهما الناس ، أتاهما صاحبهما الذي استأجراه ،
بيعيريهما وبيعير له ، وأتتهما أسماء بنت أبي بكر بسفرتيهما ، ونسيت
أن تجعل لها عصاما^(١) ، فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السفرة فإذا ليس لها
لها عصام ، فتحلل نطاقتها فتجعله عصاما ، ثم علقتها به .

فكان يقال لأسماء بنت أبي بكر : ذات النطاق ، لذلك^(٢) .

فلما قرب أبو بكر ، رضي الله عنه ، الراحلتين إلى رسول الله صلى
الله عليه وسلم قدّم له أفضلهما ثم قال : اركب ، فداك أبي وأمي !
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني لا أركب بعيراً ليس لي .
قال : فهي لك يا رسول الله ، بأبي أنت وأمي ! قال : لا ، ولكن ما الثمن
الذي ابتعتها به ؟ قال : كذا وكذا . قال : قد أخذتها به . قال : هما لك
يا رسول الله .

(١) العصام : رباط القرية والمزادة ونحوهما .

(٢) قال ابن هشام : « وسمعت غير واحد من أهل العلم يقول : ذات النطاقين .
وتفسيره أنها لما أرادت أن تعلق السفرة شقت نطاقتها بائنين ، فعلقت السفرة
بواحد ، وانتطقت بالآخر » .

فرکبا وانطلقا ، وأردف أبو بكرٍ الصديق رضي الله عنه عامراً
ابن فهيرة مولاه خلفه ، لينخدُمهما في الطريق .

قالت أسماء بنت أبي بكر : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم
وأبو بكر ، رضي الله عنه ، أتانا نفرٌ من قريشٍ فيهم أبو جهل بن
هشام ، فوقفوا على باب أبي بكر ، فخرجت إليهم فقالوا : أين أبوكِ
يا بنت أبي بكر ؟ قلت : لا أدري والله أين أبي . قالت : فرفع أبو جهل
يده — وكان فاحشاً خبيثاً — فطعمَ خدِّي لطمةً طرح منها قرطى !

ثم انصرفوا . فمكثنا ثلاث ليال وما ندرى أين وجهُ رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، حتَّى أقبلَ رجلٌ من الجنِّ من أسفل مكة ، يتغنَّى
بأبياتٍ من شعرِ غناء العرب ، وإن الناس ليتبعونه يسمعون صوته
ما يرونه ، حتَّى خرج من أعلى مكة وهو يقول :

جزى الله ربُّ الناس خيراً جزائه رفيقَيْن حلاً خيمتي أمّ معبدٍ^(١)
هما نزلا بالبرِّ ثم تروحا فأفلحَ من أمسى رفيقَ محمدٍ
ليهنِ بني كعبٍ مكانُ فتاتهم ومقعدُها للؤمنين بمرصدٍ

(١) أم معبد ، واسمها عاتكة بنت خالد : امرأة من بني كعب ، نزل بها رسول
الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر ، وعامر بن فهيرة ، وعبد الله بن أرقط ، فسألوها
لحماً وتمراً يشترون منها ، فلم يصيبوا عندها شيئاً ، ورأى رسول الله شاة بكسر
الخيمة لاتدر ، فاستأذنها أن يحلبها ، فمسح ضرعها فدرت درا غزيراً ، ثم بايعته
المرأة على الإسلام .

فلما سمعنا قوله عرفنا حيث وجهُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وأن وجهه إلى المدينة .

قال سراقة بن مالك جعشم : لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة مهاجراً إلى المدينة جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن رده عليهم . فبينما أنا جالس في نادى قومى إذ أقبل رجلٌ منّا حتى وقف علينا ، فقال : والله لقد رأيت ركبةً ثلاثةً مروا على أنفأ ، إني لأراهم محمداً وأصحابه . فأومأت إليه بعيني : أن اسكت . ثم قلت : إنما هم بنو فلانٍ يبتغون ضالةً لهم ! قال : لعله . ثم سكت . ثم مكثت قليلاً ثم قمت فدخلت بيتي ، ثم أمرت بفرسى فقيّدت لي إلى بطن الوادى ، وأمرت بسلاحى فأخرج لي من دُبر حجرتي ، ثم أخذت قداحي التي أستمسم بها ، ثم انطلقت فلبست لأمّتي ^(١) ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها ، فخرج السهم الذى أكره « لا يضره » ^(٢) . وكنت أرجو أن أردّه على قريش فأخذ المائة الناقة . فركبت على أثره ، فبينما فرسى يشتدُّ بى عثر بى ، فسقطت عنه ، فقلت : ما هذا ! ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها ، فخرج السهم الذى أكره « لا يضره » . فأيت إلا أن أتبعه ، فركبت فى أثره ، فلما بدا لى القوم ورأيتهم عثر بى فسقطت عنه فقلت : ما هذا ! ثم أخرجت قداحي

(١) اللأمة : الدرع والسلاح .

(٢) أى المكتوب فيه هذه الكلمة .

فاستقسمت بها ، فخرج السهم الذي أكره « لا يضره » . فأبيت إلا أن أتبعه ، فركبت في أثره ، فلما بدا لي القوم ورايتهم عثر بي فرسى . فذهبت يداه في الأرض ، وسقطت عنه ، ثم انتزع يديه من الأرض ، وتبعهما دخان كالإعصار . فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد منع مني وأنه ظاهر^(١) ، فناديت القوم فقلت : أنا سراقه بن جعشم ، أنظروني أكلتكم ، فوالله لا أريكم ، ولا يأتكم مني شيء تكرهونه . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر : قل له : وما تبتغي منا ؟ فقال ذلك أبو بكر ، قلت : تكتب لي كتابا يكون آية بيني وبينك . قال : اكتب له يا أبا بكر .

فكتب لي كتاباً في عظم ، أو في رقعة ، أو في خزفة ، ثم ألقاه إلي ، فأخذته فجعلته في كنانتي ثم رجعت . فسكت فلم أذكر شيئاً مما كان ، حتى إذا كان فتح مكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفرغ من حنين والطائف ، خرجت ومعى الكتاب لألقاه ، فلقيته بالجعرانة^(٢) ، فدخلت في كتيبة من خيل الأنصار ، فجعلوا يقرعونني بالرماح ويقولون : إليك إليك ، ماذا تريد ؟ فدنوت من رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على ناقته ، والله لكأنني أنظر إلى

(١) أي غالب منتصر .

(٢) جعرانة : ماء بين الطائف ومكة .

ساقه في غرزه^(١) كأنها جُمارة ، فرفعت يدي بالكتاب ثم قلت :
يا رسول الله . هذا كتابك لي ، أنا سراقه بن جعشم . فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : يومُ وفاءٍ وبر ، ادنه . فدنوتُ منه فأسلمت .
ثم تذكرت شيئاً أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عنه
فما أذكره ، إلا أني قلت : يا رسول الله ، الضالة من الإبل تغشى
حياضى وقد ملأتها لإبلى ، هل من أجرٍ في أن أسقيها ؟ قال : « نعم ، في كل
ذات كبدٍ حرّى أجر » . ثم رجعت إلى قومي فسئلت إلى رسول
الله صلى الله عليه وسلم صدقتى .

قال ابن إسحاق :

فلما خرج بهما دليلهما عبد الله بن أرقط ، سلك بهما أسفل مكة
ثم مضى بهما على الساحل حتى عارض الطريق أسفل من عُسفان ،
ثم سلك بهما على أسفل أبح ، ثم استجاز بهما حتى عارض بهما
الطريق بعد أن أجاز قديداً ، ثم أجاز بهما من مكانه ذلك فسلك
بهما الخرار ، ثم سلك بهما لقفاً ، ثم أجاز بهما مدجة لقفاً ، ثم
استبطن بهما مدجة محاج ، ثم سلك بهما مرجح محاج ، ثم تبطن
بهما مرجح من ذى الغضوين ثم بطن ذى كشر ، ثم أخذ بهما على
الجداجد ، ثم على الأجرد . ثم سلك بهما ذا سلم من بطن أعداء
مدجة تعهن ، ثم على العبايد ، ثم أجاز بهما الفاجة .

(١) الغرز للرحل ، بمنزلة الركاب للسرّج .

قال ابن هشام: ثم هبط بهما العرج وقد أبطأ عليهما بعضُ ظهرهم،
فحمل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلًا من أسلم يقال له أوس
ابن حجر، على جملٍ له يقال له ابن الرِّداء، إلى المدينة، وبعث معه
غلاماً له يقال له مسعود بن هنيذة، ثم خرج بهما دليلهما من العرج،
فسلك بهما ثنية العائر عن يمين ركوبة، حتى هبط بهما بطن رثم،
ثم قدم بهما قباء على بني عمرو بن عوف، لا ثنتي عشرة ليلة خلت
من شهر ربيع الأول يوم الاثنين، حين اشتدَّ الضَّحاء وكادت الشمس
تعتدل.

قدوم قباء

عن عبد الرحمن بن عويم بن ساعدة ، قال : حدّثني رجالٌ من قومي ، من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا :

لما سمعنا بمخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة ، وتوكّفنا^(١) قدومه ، كنّا نخرج إذا صلّينا الصبح إلى ظاهر حرّتنا ننظر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوالله لا نبرح حتّى تغلبنا الشمس على الظلال ، فإذا لم نجد ظلًّا دخلنا ، وذلك في أيام حارّة ، حتّى إذا كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم جلسنا كما كنّا نجلس ، حتّى إذا لم يبقَ ظلٌّ دخلنا بيوتنا . وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخلنا البيوت ، فكان أوّل من رآه رجلٌ اليهود ، وقد رأى ما كنّا نصنع وأنا ننظر قدوم رسول الله صلى الله عليه وسلم علينا ، فصرخ بأعلى صوته : يا بني قيلة^(٢) ، هذا جدّكم^(٣) قد جاء .

فخرّجنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في ظلّ نخلة ، ومعه أبو بكر رضى الله عنه في مثل سنّته ، وأكثرنا لم يكن رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ذلك ، وركبه الناس^(٤) وما يعرفونه من أبي بكر ،

(١) توكّفناه : استشعرناه وانتظرناه .

(٢) هم الأنصار جميعا ، وقيلة جدة كانت لهم .

(٣) الجدة ، الحظ . (٤) أى ازدحموا عليه .

حتى زال الظلّ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقام أبو بكرٍ فأظله
بردائه ، فعرفناه عند ذلك .

قال ابن إسحاق :

فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم — فيما يذكرون — على
كلثوم بن هدم ، ويقال : بل نزل على سعد بن خيشمة . ويقول من
يذكر أنه نزل على كلثوم بن هدم : إنما كان رسول الله صلى الله عليه
وسلم إذا خرج من منزل كلثوم بن هدم جلس للناس في بيت سعد
ابن خيشمة ، وذلك أنه كان عزباً لا أهل له ، وكان منزل الأعزاب
من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين .

ونزل أبو بكر الصديق رضى الله عنه على حبيب بن إساف .
ويقول قائل : كان منزله على خارجة بن زيد .

وأقام على بن أبي طالب عليه السلام بمكة ثلاث ليالٍ وأيامها ،
حتى أدى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم الودائع التي كانت عنده
للناس ، حتى إذا فرغ منها لحق برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزل
معه على كلثوم بن هدم .

فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بقباء ، في بني عمرو بن عوف ،
يوم الاثنين ، ويوم الثلاثاء ، ويوم الأربعاء ، ويوم الخميس . وأسس

مسجده .

قدوم المدينة

ثم أخرجه الله من بين أظهرهم يوم الجمعة . فأدركت رسول الله صلى الله عليه وسلم الجمعة في بني سالم بن عوف ، فصلاها في المسجد الذي في بطن الوادي ، وادي رانوء ، فكانت أول جمعة صلاها بالمدينة .

فأتاه عتبان بن مالك ، وعباس بن عباد بن نضلة ، في رجال من بني سالم بن عوف ، فقالوا : يا رسول الله ، أقم عندنا في العدد والعدة والمنعة . قال : خلوا سبيلها ، فإنها مأمورة ، لناقته . فخلوا سبيلها ، فانطلقت حتى إذا وازنت دار بني يياضة تلقاه زياد بن لبيد ، وفروة ابن عمرو ، في رجال من بني يياضة ، فقالوا : يا رسول الله ، هلم إلينا ، إلى العدد والعدة والمنعة . قال : خلوا سبيلها فإنها مأمورة . فانطلقت حتى إذا مرت بدار بني ساعدة اعترضه سعد بن عباد ، والمنذر بن عمرو ، في رجال من بني ساعدة ، فقالوا : يا رسول الله ، هلم إلينا إلى العدد والعدة والمنعة . قال : خلوا سبيلها فإنها مأمورة . فخلوا سبيلها فانطلقت ، حتى إذا وازنت دار بني الحارث بن الخزرج ، اعترضه سعد بن الربيع ، وخارجة بن زيد ، وعبد الله بن رواحة ، في رجال من بني الحارث بن الخزرج فقالوا : يا رسول الله ، هلم إلينا ، إلى العدد والعدة والمنعة . قال : خلوا سبيلها فإنها مأمورة . فخلوا سبيلها فانطلقت .

حتى إذا مرت بدار بني عدى بن النجار ، وهم أخواله دينا ، — أم عبد المطلب سلمى بنت عمرو ، إحدى نسائهم — اعترضه سليط بن قيس وأبو سليط أسيرة بن أبي خارجة ، في رجال من بني عدى بن النجار ، فقالوا : يا رسول الله ، هلم إلى أخوالك ، إلى العدد والعدة والمنعة . قال : خلوا سبيلها فإنها مأمورة . فخلوا سبيلها فانطلقت .

حتى إذا أتت دار بني مالك بن النجار ، بركت على باب مسجده صلى الله عليه وسلم ، وهو يومئذٍ مربد^(١) لغلामين يتيمين من بني النجار — وهما في حجر معاذ بن عفراء — سهل وسهيل ابني عمرو . فلما بركت ورسول الله صلى الله عليه وسلم عليها لم ينزل وثبت ، فسارت غير بعيدٍ ورسول الله صلى الله عليه وسلم واضع لها زمامها لا يثنى بها ، ثم التفتت إلى خلفها ، فرجعت إلى مبركها أول مرة ، فبركت فيه ، ثم تحلحلت^(٢) ورزمت^(٣) ووضعت جرانها^(٤) ، فنزل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم . فاحتمل أبو أيوب خالد بن زيد رحله فوضعه في بيته ، ونزل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وسأل عن المربد : لمن هو ؟ فقال له معاذ بن عفراء : هو يا رسول الله

(١) المربد : الموضع الذي يجفف فيه التمر .

(٢) تحلحلت : تحركت .

(٣) أرزمت : صوتت .

(٤) الجران : ما يصيب الأرض من صدر الناقة وباطن حلقها .

لسهل وسهيل ابني عمرو ، وهما يتيمان لي وسأرضيهما منه ،
فاتخذهُ مسجداً .

فأمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُبْنَى مسجداً ، ونزل
رسول الله صلى الله عليه وسلم على أبي أيوب حتى بنى مسجده
ومساكنه ، فعمل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرغب المسلمين
في العمل فيه ، فعمل فيه المهاجرون والأنصار ، ودأبوا فيه ، فقال قائل
من المسلمين :

لئن قعدنا والنبي يعمل لَذَاكَ مِنَّا العملُ المضللُّ

وارتجز المسلمون ، وهم يبنونه ، يقولون : « لا عيش إلا عيشُ
الآخرة ، اللهم ارحم الأنصار والمهاجرة » . فيقول رسول الله صلى الله
عليه وسلم : « لا عيش إلا عيش الآخرة ، اللهم ارحم المهاجرين
والأنصار » .

فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت أبي أيوب حتى بُنى له
مسجده ومساكنه ، ثم انتقل إلى مساكنه من بيت أبي أيوب ،
رحمة الله عليه ورضوانه .

قال أبو أيوب :

لما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيتي نزل السفلى ،
وأنا وأم أيوب في العلو ، فقلت له : يا نبي الله ، بأبي أنت وأمي ، إني

لَا كَرُهُ وَأَعْظِمُ أَنْ أَكُونَ فَوْقَكَ وَتَكُونَ تَحْتِي ، فَظَهَرَ أَنَّكَ فَكُنَ
فِي الْعُلُوِّ ، وَنَزَلَ نَحْنُ فَكُنْ فِي السُّفْلِ . فَقَالَ : يَا أَبَا أَيُّوبَ ، إِنَّ
أَرْفَقَ بِنَا وَبِمَنْ يَغْشَانَا أَنْ نَكُونَ فِي سَفْلِ الْبَيْتِ .

قَالَ : فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفْلِهِ وَكُنَّا فَوْقَهُ
فِي الْمَسْكَنِ ، فَلَقَدْ انْكَسَرَ حُبٌّ^(١) لَنَا فِيهِ مَاءٌ ، فَقَمَمْتُ أَنَا وَأُمُّ أَيُّوبَ
بِقَطِيفَةٍ^(٢) لَنَا مَا لَنَا لِحَافٌ غَيْرَهَا نَنْشَفُ بِهَا الْمَاءَ ، تَخَوُّفًا أَنْ يَقْطُرَ عَلَى
رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُ شَيْءٌ يُؤْذِيهِ .

قَالَ : وَكُنَّا نَصْنَعُ لَهُ الْعِشَاءَ ثُمَّ نَبْعَثُ بِهِ إِلَيْهِ ، فَإِذَا رَدَّ عَلَيْنَا فَضْلَهُ
تَيَمَّمْتُ أَنَا وَأُمُّ أَيُّوبَ مَوْضِعَ يَدِهِ ، فَأَكَلْنَا مِنْهُ نَبْتَغِي بِذَلِكَ الْبَرَكَةَ ،
حَتَّى بَعَثْنَا إِلَيْهِ لَيْلَةً بَعْشَاءَهُ وَقَدْ جَعَلْنَا لَهُ بَصَلًا أَوْ ثُومًا ، فَرَدَّهُ رَسُولُ
اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَلَمْ أَرْ لِيَدِهِ فِيهِ أَشْرًا ، فَخِئْتُهُ فَرَعًا فَقُلْتُ :
يَا رَسُولَ اللَّهِ ، بِأَبِي وَأَنْتَ وَأُمِّي ، رَدَدْتَ عِشَاءَكَ وَلَمْ أَرْ فِيهِ مَوْضِعَ
يَدِكَ ، وَكُنْتُ إِذْ رَدَدْتَهُ عَلَيْنَا تَيَمَّمْتُ أَنَا وَأُمُّ أَيُّوبَ مَوْضِعَ يَدِكَ ،
نَبْتَغِي بِذَلِكَ الْبَرَكَةَ . قَالَ : إِنِّي وَجَدْتُ فِيهِ رِيحَ هَذِهِ الشَّجَرَةِ ، وَأَنَا رَجُلٌ
أَنَاجِي ، فَأَمَّا أَنْتُمْ فَكُلُوهُ .

قَالَ : فَأَكَلْنَاهُ ، وَلَمْ نَصْنَعْ لَهُ تِلْكَ الشَّجَرَةَ بَعْدَ .

(١) الحب : الجرّة ، أو جرّة ضخمة .

(٢) القطيفة : كساء له خمل ، أى أهداب .

قال ابن إسحاق : وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يبق بمكة منهم أحدٌ إلا مفتون أو محبوس ، ولم يُؤْغِبْ أهل هجرةٍ من مكة بأهلهم وأموالهم إلى الله تبارك وتعالى وإلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا أهلُ دُورٍ مسمون : بنو مظعون من بني جمح ، وبنو جحش بن رئاب حلفاء بني أمية ، وبنو البكير من بني سعد بن ليث حلفاء بني عدي بن كعب ، فإن دُورهم غُلِّقَتْ بمكة هجرة ، ليس فيها ساكن .

الخطب والعهود بالمدينة

فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة إذ قدّمها شهر ربيع الأول إلى صفر من السنة الداخلة ، حتّى بُنى له فيها مسجده ومساكنه واستجمع له إسلام هذا الحى من الأنصار ، فلم يبق دار من دور الأنصار إلّا أسلم أهلها ، إلّا ما كان من خَطْمَة وواقف ووائل وأمّية ، وتلك أوس الله ، وهم حى من الأوس ، فإنهم أقاموا على شركهم .

وكانت (أَوَّلَ خطبة) خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم — فيما بلغنى عن أبى سلمة بن عبد الرحمن ، نعوذ بالله أن نقول على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لم يقل — أنه قام فيهم ، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال :

أما بعد ، أيها الناس ، فقدّموا لأنفسكم . تَعَلَّنَ والله لِيُصْعَقَنَّ أحدكم ، ثم لِيَدَعَنَّ غَنَمَهُ لَيْسَ لَهَا رَاعٌ ، ثم لِيَقُولَنَّ لَهُ رَبُّهُ وَلَيْسَ لَهُ تَرْجَمَانٌ وَلَا حَاجِبٌ يَحْجُبُهُ دُونَهُ : أَلَمْ يَأْتِكْ رَسُولِي فَبَلَّغَكَ ، وَآتَيْتَكَ مَالًا وَأَفْضَلْتُ عَلَيْكَ ؟ فَمَا قَدَّمْتَ لِنَفْسِكَ ؟ فَلْيَنْظُرْ يَمِينًا وَشِمَالًا فَلَا يَرَى شَيْئًا ، ثُمَّ لِيَنْظُرَنَّ قُدَّامَهُ فَلَا يَرَى غَيْرَ جَهَنَّمَ . فَمَنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَقَى وَجْهَهُ مِنَ النَّارِ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَلْيَفْعَلْ ، وَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ ، فَإِنَّ بِهَا تُجْزَى الْحَسَنَةُ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا ، إِلَى سَبْعِمِائَةٍ ضَعْفٍ . وَالسَّلَامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ .

ثم خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس مرة أخرى فقال :
 إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ ^(١) ، أحمده وأستعينه ، نعوذ بالله من شرور أنفسنا
 وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضلَّ له ، ومن يضلل فلا هاديَ
 له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . إن أحسن الحديث
 كتابُ الله تبارك وتعالى ، وقد أفلح من زينته الله في قلبه ، وأدخله في
 الإسلام بعد الكفر ، واختاره على ما سواه من أحاديث الناس ،
 إِنَّهُ أَحْسَنُ الْحَدِيثِ وأبلغه . أحبُّوا ما أحبَّ الله ، أحبُّوا الله من كل
 قلوبكم ، ولا تملُّوا كلامَ الله وذكره ، ولا تقسُّ عنه قلوبكم ، فإنه من
 كلِّ ما يخلق الله يختار ويصطفى ، قد سمَّاه الله خيرته من الأعمال ^(٢)
 ومصطفاه من العباد ^(٣) ، والصالح من الحديث ، ومن كل ما أوتي
 الناس الحلال والحرام . فاعبدوا الله ولا تُشركوا به شيئاً ، واتَّقوه
 حقَّ تقاته ، واصدقوا الله صالح ما تقولون بأفواهكم ، وتحابُّوا
 بروح الله بينكم . إن الله يغضب أن يُنكثَ عهده . والسلام .

* * *

وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتاباً بين المهاجرين
 والأنصار ، وادَّع فيه يهود . وعاهدهم ، وأقرهم على دينهم وأموالهم ،
 وشرط لهم واشترط عليهم :

(١) أى إنه الحمد لله .

(٢) أى الذكر وتلاوة القرآن لقوله تعالى : (يخلق ما يشاء ويختار) .

(٣) أى وسمى المصطفى من عباده .

بسم الله الرحمن الرحيم . هذا كتابٌ من محمد النبي بين المؤمنين
والمسلمين من قريش ويثرب ، ومن تبعهم فلحق بهم ، وجاهد معهم .
إنَّهم أمة واحدة من دون الناس ، المهاجرون من قريش على ربعتهم^(١)
يتعاقلون بينهم^(٢) ، وهم يفسدون عانيهم^(٣) بالمعروف والقسط بين
المؤمنين . وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، كل طائفةٍ
تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو ساعدة على
ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها
بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون
معاقلمهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى
عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون
معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط
بين المؤمنين . وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم
الأولى ، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .
وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة تفدى
عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين . وبنو الأوس على ربعتهم
يتعاقلون معاقلمهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عليها بالمعروف
والقسط بين المؤمنين . وإن المؤمنين لا يتركون مفراً^(٤) بينهم

(١) الربعة : الحال التي وجدهم عليها الإسلام .

(٢) أى يعقل بعضهم عن بعض . والعقل : الدية .

(٣) العاني : الأسير . (٤) المفروح : المشغل بالدين والكثير العيال .

أَنْ يُعْطَوْهُ بِالْمَعْرُوفِ فِي فِدَاءٍ أَوْ عَقْلٍ . وَأَلَّا يَخَالَفَ مُؤْمِنٌ
 مَوْلَى مُؤْمِنٍ دُونَهُ ، وَإِنْ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ عَلَى مَنْ بَغَى مِنْهُمْ
 أَوْ ابْتَغَى دَسِيعَةً^(١) ظُلْمٌ أَوْ إِثْمٌ أَوْ عَدْوَانٌ أَوْ فُسَادٌ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ ؛
 وَإِنْ أَيْدِيهِمْ عَلَيْهِ جَمِيعًا ، وَلَوْ كَانَ وَلَدٌ أَحَدِهِمْ . وَلَا يَقْتُلُ مُؤْمِنٌ
 مُؤْمِنًا فِي كَافِرٍ ، وَلَا يَنْصُرُ كَافِرًا عَلَى مُؤْمِنٍ . وَإِنْ ذِمَّةُ اللَّهِ وَاحِدَةٌ ،
 يَحْجِرُ عَلَيْهِمْ أَدْنَاهُمْ . وَإِنْ الْمُؤْمِنِينَ بَعْضُهُمْ مَوَالِي بَعْضٍ دُونَ النَّاسِ .
 وَإِنَّهُ مَنْ تَبِعْنَا مِنْ يَهُودَ فَإِنَّ لَهُ النَّصْرَ وَالْأَسُوءَةَ ، غَيْرَ مَظْلُومِينَ
 وَلَا مُتَنَاصِرِينَ عَلَيْهِمْ . وَإِنْ سَلَّمَ الْمُؤْمِنِينَ وَاحِدَةً ، لَا يَسَالِمُ مُؤْمِنٌ دُونَ
 مُؤْمِنٍ فِي قِتَالٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ إِلَّا عَلَى سَوَاءٍ وَعَدْلٍ بَيْنَهُمْ . وَإِنْ كُلُّ
 غَازِيَةٍ غَزَتْ مَعَنَا يَعْقِبُ بَعْضُهَا بَعْضًا . وَإِنْ الْمُؤْمِنِينَ يُبَيِّءُ^(٢) بَعْضُهُمْ
 عَلَى بَعْضٍ بِمَا نَالَ دِمَاءَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ . وَإِنْ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَّقِينَ عَلَى أَحْسَنِ
 هَدًى وَأَقْوَمِهِ . وَإِنَّهُ لَا يَحْجِرُ مُشْرِكٌ مَالًا لِقَرِيشٍ وَلَا نَفْسًا ،
 وَلَا يَحُولُ دُونَهُ عَلَى مُؤْمِنٍ ، وَإِنَّهُ مَنْ اعْتَبَطَ^(٣) مُؤْمِنًا قَتْلًا عَنْ بَيْتَةٍ فَإِنَّهُ
 قَوْدٌ بِهِ إِلَّا أَنْ يَرْضَى وَلِيُّ الْمَقْتُولِ ، وَإِنْ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ كَافَّةً ، وَلَا يَحُلُّ
 لَهُمْ إِلَّا قِيَامُ عَلَيْهِ . وَإِنَّهُ لَا يَحُلُّ لِمُؤْمِنٍ أَقْرَبُ بِمَا فِي هَذِهِ الصَّحِيفَةِ وَأَمِنْ
 بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يَنْصُرَ مُحَدِّثًا وَلَا يُؤْوِيهِ ، وَإِنَّهُ مَنْ نَصَرَهُ
 أَوْ آوَاهُ فَإِنَّ عَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَغَضَبَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهُ صَرْفٌ

(١) الدسيسة : العظيمة .

(٢) أباءه به : قتله به ، جعله بواء له .

(٣) اعتبطه : قتله بلا جناية توجب القتل .

ولا عدل . وإنكم مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مردّه إلى الله عزّ وجلّ
وإلى محمد صلى الله عليه وسلم .

وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وإن يهود بني عوف
أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم ، وللمسلمين دينهم ، مواليهم وأنفسهم ،
إلّا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ^(١) إلّا نفسه وأهل بيته . وإن يهود
بني النّجار مثل ما لليهود بني عوف ، وإن يهود بني الحارث مثل ما لليهود
بني عوف ، وإن يهود بني ساعدة مثل ما لليهود بني عوف ، وإن يهود
بني جشم مثل ما لليهود بني عوف ، وإن يهود بني الأوس مثل ما لليهود
بني عوف ، وإن يهود بني ثعلبة مثل ما لليهود بني عوف ، إلّا من ظلم
وأثم فإنه لا يوتغ إلّا نفسه وأهل بيته . وإن جفنة بطن من ثعلبة
كأنفسهم ، وإن لبني الشّطيبة مثل ما لليهود بني عوف ، وإن البرّ دون
الإثم^(٢) ، وإن موالي ثعلبة كأنفسهم ، وإن بطانة يهود كأنفسهم ، وإنه
لا يخرج منهم أحد إلّا بإذن محمد صلى الله عليه وسلم ، وإنه لا ينحجز
على ثارٍ جرح ، وإنه من فتك فبنفسه فتك وأهل بيته ، إلّا من ظلم .
وإن الله على أبرّ هذا . وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم .
وإن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصّحيفة ، وإن بينهم النصح
والنصيحة والبرّ دون الإثم . وإنه لم يأتهم امرؤ بحليفه ، وإن النصر

(١) يوتغ : يهلك .

(٢) أى إن البر والوفاء ينبغى أن يكون حاجزا عن الإثم .

للمظلوم . وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ^(١) . وإن
يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة ، وإن الجار كالنفس
غير مضار ولا آثم ، وإنه لا تُجار حرمة إلا بإذن أهلها . وإنه ما كان
بين أهل هذه الصحيفة من حدثٍ أو اشتجار يخاف فسادَه فإن مرده
إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم . وإن الله
على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره ^(٢) ، وإنه لا تُجار قريش ولا من
نصرها ، وإن بينهم النصر على من دهم يثرب ، وإذا دعوا إلى صلحٍ
يصالحونه ويلبسونه ، فإنهم يصالحونه ويلبسونه . وإنهم إذا دعوا إلى
مثل ذلك فإنه لهم على المؤمنين ، إلا من حارب في الدين ، على كل
أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم . وإن يهود الأوس ، مواليهم
وأنفسهم ، على مثل ما لأهل هذه الصحيفة ، مع البر المحض من أهل
هذه الصحيفة . وإن البر دون الإثم ، لا يكسب كاسبٌ إلا على نفسه ،
وإن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره ، وأنه لا يحول
هذا الكتاب دون ظالمٍ أو آثم . وإنه من خرج آمن ، ومن قعد آمن
بالمدينة ، إلا من ظلم وأثم ، وإن الله جار لمن برّ واتقى ومحمد رسول الله
صلى الله عليه وسلم .

(١) أى إن الله وحزبه المؤمنين على الرضا به .

(٢) كان هذا قبل أن تفرض الجزية وحين كان الإسلام ضعيفا ، كان لليهود
إذ ذاك نصيب في المغنم إذا قاتلوا مع المسلمين شرط عليهم في هذا الكتاب النفقة
معهن في الحروب .

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

قال ابن إسحاق :

وأخى رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فقال — فيما بلغنا ، ونعوذ بالله أن نقول عليه ما لم يقل — :

« تأخوا في الله أخوين أخوين » . ثم أخذ بيد علي بن أبي طالب فقال : هذا أخى . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم سيد المرسلين وإمام المتقين ، ورسول رب العالمين ، الذى ليس له خطير ولا نظير من العباد ، وعلى بن أبي طالب رضى الله عنه أخوين . وكان حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله صلى الله عليه وسلم وعم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وزيد بن حارثة مولى رسول أخوين ، وإليه أوصى حمزة يوم أحد حين حضره القتال إن حدث به حادث الموت . وجعفر بن أبي طالب ذو الجناحين الطيَّار ، ومعاذ ابن جبل أخو بنى سلمة أخوين .

وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه بن أبي قحافة وخارجة بن زهير أخوين . وعمر بن الخطاب وعُتبان بن مالك أخوين . وأبو عبيدة ابن الجراح وسعد بن معاذ أخوين . وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع أخوين . والزبير بن العوام وسلمة بن سلامة بن وقش أخوين .

وعثمان بن عفان وأوس بن ثابت بن المنذر أخوين . وطلحة بن
عبيد الله وكعب بن مالك أخوين . وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل
وأبي بن كعب أخوين . ومصعب بن عمير وأبو أيوب خالد بن زيد
أخوين . وأبو حذيفة بن عتبة وعباد بن بشر أخوين . وعمار بن ياسر
وحذيفة بن اليمان أخوين . وأبو ذر الغفاري والمنذر بن عمرو
أخوين .

وكان حاطب بن أبي بلتعة وعويم بن ساعدة أخوين . وسلمان
الفارسي وأبو الدرداء أخوين . وبلال مولى أبي بكر وأبو رويحة
أخوين .

فهؤلاء من سمى لنا ، ممن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم
أخي بينهم من أصحابه .

خبر الأذان

فلما اطمأنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة، واجتمع إليه إخوانه من المهاجرين، واجتمع أمر الأنصار، استحکم أمر الإسلام، فقامت الصلاة، وفرضت الزكاة والصيام وقامت الحدود، وفرض الحلال والحرام، وتبوأ الإسلام بين أظهرهم، وكان هذا الحى من الأنصار هم الذين تبوءوا الدار والإيمان. وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدِمها إنما يجتمع الناس إليه للصلاة لحين موافقتها بغير دعوة، فهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قدِمها أن يجعل بُوقاً كبوق يهود الذى يهرعون به لصلاتهم، ثم كرهه. ثم أمر بالناقوس فُنُحت ليُضرب به للمسلمين للصلاة.

فبينما هم على ذلك إذ رأى عبد الله بن زيد بن ثعلبة أخو بلحارث ابن الخزرج، النداء، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: يا رسول الله، إنه طاف بى هذه الليلة طائف. مر بى رجل عليه ثوبان أخضران، يحمل ناقوساً فى يده فقلت له: يا عبد الله، أتبيع هذا الناقوس؟ قال: وما تصنع به؟ قلت: ندعو به إلى الصلاة. قال: أفلا أدلك على خير من ذلك؟ قلت: وما هو؟ قال: تقول: الله أكبر الله أكبر. الله أكبر الله أكبر. أشهد ألا إله إلا الله، أشهد ألا إله إلا الله. أشهد أن محمداً رسول الله، أشهد أن محمداً رسول الله. حى

على الصلاة . حتى على الصلاة . حتى على الفلاح ، حتى على الفلاح .
الله أكبر ، الله أكبر . لا إله إلا الله .

فلما أخبر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إنها لرؤيا حق
إن شاء الله ، فقم مع بلال فأتقها عليه فليؤذن بها ، فإنه أندى صوتاً
منك . فلما أذن بها بلال سمعها عمر بن الخطاب وهو في بيته ، فخرج
إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يجر رداءه ، وهو يقول :
يا نبي الله ، والذي بعثك بالحق لقد رأيت مثل الذي رأى . فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : فله الحمد على ذلك .

ذكر من اعتل من أصحاب رسول الله

صلى الله عليه وسلم

عن عائشة رضى الله عنها قالت :

لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة قدِمها وهى أوبأ أرض الله من الحمى ، فأصاب أصحابه منها بلاء وسقم ، فصرف الله ذلك عن نبيّه صلى الله عليه وسلم . فكان أبو بكر ، وعامر بن فهيرة وبلال موليا أبي بكر ، مع أبي بكر في بيت واحد ، فأصابتهم الحمى ، فدخلت عليهم أعودهم ، وذلك قبل أن يضرب علينا الحجاب ، وبهم ما لا يعلمه إلا الله من شدة الوعك^(١) فدنوت من أبي بكر فقلت له : كيف تجدك يا أبت ؟ فقال :

كل امرئ مصبّح في أهله والموت أدنى من شرك نعله
فقلت : والله ما يدرى أبى ما يقول . ثم دنوت إلى عامر بن فهيرة
فقلت له : كيف تجدك يا عامر ؟ فقال :

لقد وجدت الموت قبل ذوقه إنَّ الجبان حثفه من فوقه
كل امرئ مجاهد بطوقه^(٢) كالثور يحمى جلده بروقه^(٣)

فقلت : والله ما يدرى عامر ما يقول !

(١) الوعك : شدة ألم المرض .

(٢) الطوق : الطاقة .

(٣) الروق : القرن .

7
وكان بلالٌ إذا تركته الحمى اضطجع بفناء البيت ثم رفع عقيرته^(١)

فقال :

ألا ليت شعري هل أبيتَ ليلةً بفخٍّ وحولٍ إذِ خُرَّ وجليلٍ^(٢)

وهل أُرِدُنَّ يوماً مياهَ بحنةٍ وهل يبدُونَ لي شامةً وطفيلٍ^(٣)

فذكرتُ لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما سمعت منهم فقلت :
إنهم ليَهْذُونَ وما يعقلون من شدة الحمى . فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم :

« اللهم جبِّ إلينا المدينة كما حببتَ إلينا مكةَ أو أشدَّ ، وبارك
لنا في مُدّها وصاعها^(٤) ، وانقل وباءها إلى مهيعة^(٥) » .

(١) أى رفع صوته .

(٢) فخ : موضع خارج مكة . الإذخر : نبت طيب الرائحة . والجليل : النمام .

(٣) بحنة : اسم سوق للعرب في الجاهلية كانت بأسفل مكة على قدر بريد منها .
وشامة وطفيل : جبلان بمكة .

(٤) أى مايكال بالمد والصاع . المد : رطلان عند أهل العراق ، ورطل وثلاث
عند أهل الحجاز . والصاع : أربعة أمداد عند الحجازيين .

(٥) مهيعة ، هى الجحفة ، وهى ميقات أهل الشام .

تاريخ الهجرة

قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة يوم الاثنين ، حين اشتدّ الضحاء وكادت الشمس تعتدل ، لثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ ابن ثلاث وخمسين سنة ، وذلك بعد أن بعثه الله عز وجل بثلاث عشرة سنة ، فأقام بها بقية شهر ربيع الأول وشهر ربيع الآخر ، وجماديين ، ورجباً ، وشعبان ، وشهر رمضان ، وشوالاً ، وذا القعدة ، وذا الحجة ، والمحرم .

أول الغزوات

ثم خرج غازياً في صفر غزوة ودان على رأس اثني عشر شهراً من مقدمه المدينة ، حتى بلغ ودان ، وهي غزوة الأبواء ، يريد قريشاً وبني ضمرة بن بكر بن عبد مناة بن كنانة ، فوادعته فيها بنو ضمرة ، ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ولم يلق كيذا . فأقام بها بقية صفر وصدرأ من شهر ربيع الأول .

سرية عبيدة بن الحارث

وهي أول راية عقدتها عليه السلام

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في مقامه ذلك بالمدينة ،
عبيدة بن الحارث بن المطلب بن عبد مناف بن قصي ، في ستين أو ثمانين
راكباً من المهاجرين ، ليس فيهم من الأنصار أحد ، فسار حتى بلغ ماء
بأسفل ثنية المرة ، فلقى بها جمعاً عظيماً من قريش ، فلم يكن بينهم قتال ،
إلا أن سعد بن أبي وقاص قد رمى يومئذ بسهم ، فكان أول سهم
رمى به في الإسلام .

ثم انصرف القوم عن القوم ، وللمسلمين حامية .

سرية حمزة إلى سيف البحر

وبعث في مقامه ذلك حمزة بن عبد المطلب بن هاشم إلى سيف
البحر^(١) من ناحية العيص ، في ثلاثين راكباً من المهاجرين ، ليس
فيهم من الأنصار أحد ، فلقى أبا جهل بن هشام بذلك الساحل في ثلثمائة
راكب من أهل مكة ، فحجز بينهم مجدي بن عمرو الجهني ، وكان
موادعاً للفريقين ، فانصرف بعض القوم عن بعض ، ولم يكن بينهم
قتال .

(١) السيف ، بالكسر : الشاطئ .

غزوة بواط

ثم غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم في شهر ربيع الأول يريد قريشا^(١)، حتى بلغ بواط^(٢)، من ناحية رضوى، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيدا، فلبث بها بقية شهر ربيع الآخر وبعض جمادى الأولى.

غزوة العشيرة

ثم غزا قريشا^(٣)، فسلك على نقب بنى دينار، ثم على فيفاء الخبر فنزل تحت شجرة يبطحاء ابن أزهر، فصلى عندها، فتم مسجده صلى الله عليه وسلم، وصنع له طعام فأكل منه وأكل الناس معه، فوضع أثافي البرمة معلوم هنالك، واستقى له من ماء به يقال له: المشترب، ثم ارتحل رسول الله صلى الله عليه وسلم فترك الخلائق^(٤) ييسار، وسلك شعبة يقال لها شعبة عبد الله، ثم صب لليسار حتى هبط ليلاً، فنزل بمجمعه ومجتمع الضبوعة، واستقى من بئر بالضبوعة. ثم سلك الفرش: فرش ملل، حتى لقي الطريق بصحيرات اليمام، ثم اعتدل به الطريق حتى نزل العشيرة من بطن ينبع، فأقام بها جمادى الأولى وليالى من جمادى الآخرة، ووادع فيها بنى مدالج وحلفاءهم من بنى ضمرة، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيدا.

(١) واستعمل على المدينة السائب بن عثمان بن مظعون.

(٢) جبل من جبال جهينة، بقرب ينبع.

(٣) واستعمل على المدينة أبا سلبية بن عبد الأسد.

(٤) أرض بالمدينة لعبد الله بن أحمد بن جحش.

سرية سعد بن أبي وقاص

وقد كان بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بين ذلك من غزوة سعد بن أبي وقاص ، في ثمانية رهط من المهاجرين ، فخرج حتى بلغ الخرار من أرض الحجاز ، ثم رجع ولم يلق كيدا .

غزوة سفوان

وهي غزوة بدر الأولى

ولم يقيم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة حين قدم من غزوة العُشيرة إلا ليالي قلائل لا تبلغ العشر ، حتى أغار كرز بن جابر الفهري على سرح المدينة^(١) ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في طلبه^(٢) حتى بلغ وادياً يقال له سفوان من ناحية بدر ، وفاته كرز بن جابر فلم يدركه ، وهي غزوة بدر الأولى . ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فأقام بها بقية جمادى الآخرة ورجباً وشعبان .

(١) السرح : الإبل والمواشي تسرح للرعى بالغداة .

(٢) واستعمل على المدينة زيد بن حارثة .

سرية عبد الله بن جحش

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن جحش في رجب ، مَقْفَلَهُ من بدر الأولى ، وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد ، وكتب له كتاباً ، وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه ، فيمضي لما أمره به ، ولا يستكره من أصحابه أحداً .

فلما سار عبد الله بن جحش يومين فتح الكتاب فنظر فيه ، فإذا فيه : إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل « نخلة » بين مكة والطائف ، فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم .

فلما نظر عبد الله بن جحش في الكتاب قال : سمعاً وطاعة . ثم قال لأصحابه : قد أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أمضي إلى نخلة أرصد بها قريشاً حتى آتيه منهم بخير ، وقد نهاني أن أستكره أحداً منكم . فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ، ومن كره ذلك فليرجع ، فأما أنا فماضٍ لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم . فمضى ومضى معه أصحابه ، لم يتخلف منهم أحد .

وسلك على الحجاز حتى إذا كان بمعدنٍ فوق الفُرْع يقال له : بَحْرَان ، أضلَّ سعدُ بن أبي وقاص وعُتْبَةُ بن غزوان بغيراً لهما كانا

يعتقبانه ، فتخلفا عليه في طلبه ، ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل بنخلة ، فمرت به غير لقريش تحمل زيباً وأدماً^(١) وتجارة من تجارة قريش ، فيها عمرو بن الحضرمي ، وعثمان بن عبد الله ابن المغيرة ، وأخوه نوفل بن عبد الله ، والحكم بن كيسان ، فلما رأهم القوم هابوهم وقد نزلوا قريباً منهم ، فأشرف لهم عكاشة بن محصن وكان قد حلق رأسه . فلما رأوه أمنوا وقالو : «عمَّارٌ لا بأس عليكم منهم . وتشاور القوم فيهم ، وذلك في آخر يوم من رجب ، فقال القوم : والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلنَّ الحرم فليمتنَّ منكم به ، ولئن قتلتموهم لتقتلنَّهم في الشهر الحرام ! فتردد القوم ودأبوا الإقدام عليهم ، ثم شجعوا أنفسهم عليهم وأجمعوا على قتل من قد روا عليه منهم وأخذ ما معهم . فرمى واقد بن عبد الله التيمي عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله ، واستأسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان ، وأفلت القوم نوفل بن عبد الله فأعجزهم ، وأقبل عبد الله بن جحش بالغير والأسيرين حتى قدِموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة .

فلما قدِموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة قال : ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام ، فوقف العير والأسيرين ، وأب أن يأخذ من ذلك شيئاً . فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) الآدم : الجلد .

سَقِطَ فِي أَيْدِي الْقَوْمِ وَظَنُوا أَنَّهُمْ هَلَكُوا ، وَعَنَّفَهُمْ إِخْوَانُهُمُ
الْمُسْلِمُونَ فِيمَا صَنَعُوا . وَقَالَتْ قَرِيشٌ : قَدْ اسْتَحْلَ مُحَمَّدٌ وَأَصْحَابُهُ الشَّهْرَ
الْحَرَامَ ، وَسَفَكُوا فِيهِ الدَّمَ وَأَخَذُوا فِيهِ الْأَمْوَالَ ، وَأَسْرُوا فِيهِ الرِّجَالَ !
فَقَالَ مَنْ يَرُدُّ عَلَيْهِمْ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِمَّنْ كَانَ بِمَكَّةَ : إِنَّمَا أَصَابُوا مَا أَصَابُوا
فِي شَعْبَانَ .

فَلَمَّا أَكْثَرَ النَّاسُ فِي ذَلِكَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :
(يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ
أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ) . أَيْ إِنْ كُنْتُمْ قَتَلْتُمْ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ فَقَدْ صَدُّوكم عَنْ
سَبِيلِ اللَّهِ مَعَ الْكُفْرِ بِهِ ، وَعَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَإِخْرَاجُكُمْ مِنْهُ وَأَنْتُمْ
أَهْلُهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ قَتْلِ مَنْ قَتَلْتُمْ مِنْهُمْ (وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ)
أَيْ قَدْ كَانُوا يَفْتَنُونَ الْمُسْلِمَ فِي دِينِهِ حَتَّى يَرُدُّوهُ إِلَى الْكُفْرِ بَعْدَ إِيمَانِهِ ،
فَذَلِكَ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ مِنَ الْقَتْلِ (وَلَا يَزَالُونَ يَقَاتِلُونَكُمْ حَتَّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ
دِينِكُمْ إِنْ اسْتَطَاعُوا) . أَيْ ثُمَّ هُمْ مُقِيمُونَ عَلَى أَخْبَثِ ذَلِكَ وَأَعْظَمِهِ غَيْرِ
تَائِبِينَ وَلَا نَازِعِينَ .

فَلَمَّا نَزَلَ الْقُرْآنُ بِهَذَا مِنَ الْأَمْرِ ، وَفَرَجَ اللَّهُ عَنِ الْمُسْلِمِينَ مَا كَانُوا
فِيهِ مِنَ الشَّفَقِ ^(١) ، قَبَضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعَبِيرَ

(١) الشَّفَقُ : الْخَوْفُ وَالْحَذَرُ .

والأسيرين ، وبعثت إليه قريشاً في فداء عثمان بن عبد الله والحكم
ابن كيسان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا تُفديكماهما حتى
يقدم صاحبانا — يعني سعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان —
فإنا نخشاكم عليهما ؛ فإن تقتلوهما نقتل صاحبكم . فقدم سعد وعتبة ،
فأفداهما رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم .

فأما الحكم بن كيسان فأسلم فحسن إسلامه ، وأقام عند رسول
الله صلى الله عليه وسلم حتى قتل يوم بدر معونة شهيدا . وأما عثمان
ابن عبد الله فلاحق بمكة فمات بها كافرا .

صرف القبلة إلى الكعبة

ويقال : صرفت القبلة في شعبان على رأس ثمانية عشر شهرا من
مقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة .

غزوة بدر الكبرى

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع بأبي سفيان بن حرب مقبلاً من الشام في عيرٍ لقريش عظيمة ، فيها أموال لقريش ، وتجارة من تجارتهم ، وفيها ثلاثون رجلاً من قريش أو أربعون ، منهم نخرمة بن نوفل ، وعمرو بن العاص . فندب المسلمين إليهم وقال : هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها . فانتدب الناس ، نخف بعضهم وثقل بعضهم ، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقي حرباً .

وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتحسس الأخبار ، ويسأل من لقي من الركبان ، تخوفاً على أمر الناس ، حتى أصاب خبراً من بعض الركبان : إن محمداً قد استنفر أصحابه لك ولعيرك ! فحذر عن ذلك ، فاستأجر ضمضم بن عمرو الغفاري فبعثه إلى مكة ، وأمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم إلى أموالهم ، ويخبرهم أن محمداً قد عرض لها في أصحابه ، فخرج ضمضم بن عمرو سريعاً إلى مكة .

وقد رأت عاتكة بنت عبد المطلب قبل قدوم ضمضم مكة بثلاث ليال رؤيا أفزعها ، فبعثت إلى أخيها العباس بن عبد المطلب فقالت له : يا أخي ، والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفظعتني ، وتخوفت أن يدخل على قومك منها شرٌّ ومصيبة ، فاكتم عني ما أحدثك به . فقال لها :

وما رأيت؟ قالت: رأيت راكباً أقبلَ على بعير له حتى وقف بالأبطح، ثم صرخ بأعلى صوته: ألا انفروا يا الغُدُرِ لمصارعكم في ثلاث! فأرى الناس اجتمعوا إليه، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه، فبينما هم حوله مثل به بعيره^(١) على ظهر الكعبة، ثم صرخ بمثلها: ألا انفروا يا الغُدُرِ لمصارعكم في ثلاث! ثم مثل به بعيره على رأس قبس فصرخ بمثلها، ثم أخذ صخرة فأرسلها، فأقبلت تهوى، حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت^(٢) فما بقي بيت من بيوت مكة ولا دارٌ إلا دخلتها منها فلققة! قال العباس: والله إن هذه لرؤيا! وأنتِ فاكتميهما ولا تذكريهما لأحد.

ثم خرج العباس فلقى الوليد عتبة بن ربيعة، وكان له صديقاً، فذكرها له واستكتمه إياها، فذكرها الوليد لأبيه عتبة، فقشأ الحديث بمكة حتى تحدثت به قريش في أنديتها.

قال العباس: فغدوت لأطوف بالبيت، وأبو جهل بن هشام في رهط من قريش قعودٍ يتحدثون برؤيا عاتكة، فلما رآني أبو جهل قال: يا أبا الفضل، إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا. فلما فرغت أقبلتُ حتى جلست معهم فقال لي أبو جهل: يا بني عبد المطلب، متى حدثت فيكم هذه النبئية؟ قلت: وما ذاك؟ قال: تلك الرؤيا التي رأيت

(١) مثل به: قام.

(٢) ارفضت: تفرقت وتفتت.

عاتكة . فقلت : وما رأيت ؟ قال : يا بني عبد المطلب ، أما رضيتم أن
أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم ! قد زعمت عاتكة في رؤياها أنه قال :
انفروا في ثلاث . فسنتربص بكم هذه الثلاث ، فإن يك حقاً ما تقول
فسيكون ، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء نكتب عليكم
كتاباً أنكم أكذب أهل بيت في العرب .

قال العباس : فوالله ما كان مني إليه كبير ، إلا أني جمحت ذلك ،
وأنكرت أن تكون رأيت شيئاً . ثم تفرقنا ، فلما أمسيت لم تبق
امرأة من بني عبد المطلب إلا أتتني فقالت : أقررت لهذا الفاسق
الخبيث أن يقع في رجالكم ، ثم قد تناول النساء وأنت تسمع ، ثم
لم يكن عندك غير^(١) لشيء مما سمعت ! قلت : قد والله فعلت ، ما كان
مني إليه من كبير ، وإيم الله لا تعرضن له ، فإن عاد لا كفيناكته .

فغدوت في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وأنا حديد مغضب أرى
أنني قد فاتني منه أمر أحب أن أدركه منه . فدخلت المسجد فرأيت ،
فوالله إنني لأمشي نحوه أتعرضه ليعود لبعض ما قال فأقع به — وكان
رجلاً خفيفاً حديد الوجه حديد اللسان حديد النظر — إذ خرج
نحو باب المسجد يشتد ، فقلت في نفسي : ما له لعنه الله ، أكل هذا
فرق مني أن أشاتم ! وإذا هو قد سمع ما لم أسمع : صوت ضمضم بن

(١) الغير : الغيرة .

عمرٍ والغفاري وهو يصرخ يبطن الوادي واقفا على بعيره ، قد جدّ ع
بعيره^(١) وحوّل رحله ، وشق قميصه ، وهو يقول : يا معشر قريش :
اللطيمة اللطيمة ! أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمدٌ في أصحابه ،
لا أرى أن تُدركوها ! الغوث الغوث !

فشغلني عنه ، وشغله عني ما جاء من الأمر .

فتجهز الناس سراعا وقالوا : أئظن محمد وأصحابه أن تكون كبير
ابن الحضرمي^(٢) . كلا والله ليعلمن غير ذلك ! فكانوا بين رجلين : إما
خارج وإما باعث مكانه رجلا . وأوعبت^(٣) قريش ، فلم يتخلف من
أشرافها أحد ، إلا أن أبا هب بن عبد المطلب تخلف وبعث مكانه
العاصي بن هشام بن المغيرة ، وكان قد لاط له^(٤) بأربعة آلاف درهم
كانت له عليه ، أفلس بها ، فاستأجره بها على أن يجزي عنه .

وأن أمية بن خلف كان أجمع القعود ، وكان شيخاً جليلاً جسيماً
ثقيلاً ، فأتاه عقبة بن أبي معيط ، وهو جالس في المسجد بين ظهراني
قومه ، بمجمرة يحملها فيها نار وجمر^(٥) حتى وضعها بين يديه ثم قال :

(١) جدّعه : قطع أنفه .

(٢) هو عمرو بن الحضرمي الذي قتل في سرية عبد الله بن جحش . انظر
ما سبق في صفحة ١٩٠ .

(٤) أوعبت : خرجت كلها للغزو .

(٥) لاط : احتبس وامتسك . (٦) المجرم : العود يتبخر به .

يا أبا علي ، استجمر ، فإنما أنت من النساء . قال . قبحك الله وقبح ما جئت به ! ثم تجهز فخرج مع الناس .

ولما فرغوا من جهازهم وأجمعوا المسير ذكروا ما كان بينهم وبين بني بكر بن عبد مناة من الحرب فقالوا : إنا نخشى أن يأتونا من خلفنا . فكاد ذلك يثنيهم ، فتبدى لهم إبليس في صورة سُرّاقة بن مالك بن جُعثم المدلجي فقال لهم : أنا جارٌ لكم من أن تأتكم كنانة من خلفكم بشيءٍ تكرهونه . فخرجوا سراعا .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليال مضت من شهر رمضان ، في أصحابه ، واستعمل عمرو بن أم مكتوم على الصلاة بالناس ثم ردَّ أبا لبابة من الروحاء واستعمله على المدينة . ودفع اللواء إلى مصعب بن عمير ، وكان أبيض ، وكان أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم رايتان سوداوان ، إحداهما مع علي بن أبي طالب ، يقال لها العقاب والأخرى مع بعض الأنصار .

وكانت إبل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ سبعين فاعتقبوها ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلي بن أبي طالب ومرثد بن أبي مرثد الغنوي يعتقبون بعيرا . وكان حمزة بن عبد المطلب وزيد بن حارثة وأبو كبشة وأنسة موليا رسول الله صلى الله عليه وسلم يعتقبون بعيرا . وكان أبو بكر وعمر وعبد الرحمن بن عوف يعتقبون بعيرا .

فسلك طريقه من المدينة إلى مكة على نقب المدينة، ثم على العقيق،
ثم على ذى الحليفة، ثم على أولات الجيش. ثم مرّ على ترّبان ثم على
ملّ ثم غميس الحمام من مرّين، ثم على صُخيرات اليمام، ثم على
السيّالة، ثم على فجّ الروحاء، ثم على شُوكة، حتّى إذا كان بعرق
الظبية لقوا رجلاً من الأعراب فسألوه عن الناس فلم يجدوا عنده
خبراً، فقال له الناس: سلّم على رسول الله. قال: أوفيكُم رسول الله؟
قالوا: نعم. فسلّم عليه. ثم قال: إن كنت رسول الله فأخبرني عما في
بطن ناقتي هذه. قال له سلمة بن سلامة بن وقش: لا تسأل رسول الله
صلى الله عليه وسلم وأقبل إلى فأنا أخبرك عن ذلك، نزوت عليها،
ففي بطنها منك سَخلة^(١). فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مه،
أخشت على الرجل! ثم أعرض عن سلمة.

ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بجحسج، وهى بئر الروحاء،
ثم ارتحل منها حتّى إذا كان بالمنصرف ترك طريق مكة ييسار، وسلك
ذات اليمين على النازية يريد بدرا، فسلك فى ناحية منها حتّى جزع واديا
يقال له رُحقان، بين النازية وبين مضيق الصفراء. ثم على المضيق،
ثم انصبّ منه حتّى إذا كان قريباً من الصفراء بعث بسبس بن الجهنى
وعدى بن أبى الزغباء الجهنى إلى بدر يتحسّسان له الأخبار عن

(١) السخلة: الصغيرة من الضأن، استعارها لولد الناقة.

أبي سفيان بن حرب وغيره . ثم ارتحل رسول الله صلى الله عليه وسلم
وقد قدّمهما .

وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا غيرهم ، فاستشار الناس
وأخبرهم عن قريش ، فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن ، ثم قام
المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله ، امض لما أراك الله فنحن معك ،
والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : (اذهب أنت وربك
فقاتلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ) . ولكن اذهب أنت وربك فقاتلَا إِنَّا مَعَكُمَا
مُقَاتِلُونَ ، فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغيماد^(١) لجالدنا
معك مَنْ دُونَهُ حتى تبلغه . فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم
خيراً ودعا له به .

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أشيروا عليّ أيها الناس .
وإنما يريد الأنصار ، وذلك أَنَّهُم عدد الناس ، وأنهم حين
بايعوه بالعقبة قالوا : يا رسول الله ، إِنَّا بَرَاءٌ مِنْ ذِمَّتِكَ حتى
تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا فأنت في ذِمَّتِنَا ، نمنعك مما نمنع
منه أبناءنا ونساءنا . فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوف
أَلَّا تكون الأنصار ترى عليها نُصْرَةً إِلَّا مِنْ دِهْمِهِ بِالْمَدِينَةِ مِنْ عَدُوِّهِ ،
وَأَنّ ليس عليهم أَنْ يسير بهم إلى عدوّ من بلادهم . فلما قال ذلك
رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له سعد بن معاذ : والله لكانك

(١) برك الغماد : موضع باليمن .

تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل . قال : فقد آمنّا بك وصدقناك ، وشهدنا
أنّ ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهدنا ومواثيقنا .
على السمع والطاعة . فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ،
فوالذي بعثك بالحق ، لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ،
ما تخلف منا رجل واحد . وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ، إنا لصبر
في الحرب ، صدق عند اللقاء ، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك ،
فيسر بنا على بركة الله .

فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد ، ونشطه ذلك ،
ثم قال : سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدني إحدى الطائفتين^(١) ،
والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم !

ثم نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم قريبا من بدر ، فركب
هو ورجل من أصحابه^(٢) حتى وقف على شيخ من العرب فسأله عن
قريش ، وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم ، فقال الشيخ : لا أخبركما
حتى تخبراني ممن أتما؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا أخبرتنا
أخبرناك . قال : أذاك بذاك؟ قال : نعم . قال الشيخ : فإنه بلغني أن محمداً

(١) الطائفة الأولى طائفة غير قريش ذات التجارة العظيمة ، وفيها أبو سفيان
وأبو عمرو بن العاص ؛ والآخرى الطائفة التي استنفرها أبو جهل ، وكانوا ذوى
شوكة وعدد .

(٢) هو أبو بكر الصديق .

وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان صدقَ الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا ، للمكان الذي به رسول الله صلى الله عليه وسلم . وبلغني أن قریشاً خرجوا يوم كذا وكذا ، فإن كان الذي أخبرني صدقي فهم اليوم بمكان كذا وكذا ، للمكان الذي فيه قریش . فلما فرغ من خبره قال : ممن أتما ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : نحن من ماء ! ثم انصرف عنه . يقول الشيخ : ما من ماء ؟ أمن ماء العراق ؟

ثم رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه ، فلما أمسى بعث على بن أبي طالب والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، في نفر من أصحابه ، إلى ماء بدر يلتمسون الخبرَ عليه ، فأصابوا راوية^(١) لقریش فيها أسلم غلام بنى الحجاج ، وعريض أبو يسار غلام بنى العاص ابن سعيد ، فأتوا بهما فسألوهما ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي ، فقالا : نحن سُقاة قریش بعثونا نسقيهم من الماء . فكره القوم خبرهما ورجوا أن يكونا لأبي سفيان ، فضربوهما ، فلما أذلقوهما^(٢) قالوا : نحن لأبي سفيان . فتركوهما ، وركع رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجد سجديته ، ثم سلم وقال : إذا صدقاكم ضربتموهما ، وإذا كذباكم تركتموهما ؟ صدقا والله ! إنهما لقریش ! أخبراني عن قریش ؟ قالوا : هم والله وراء هذا الكشيبي الذي ترى بالعدوة القصوى . فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : كم القوم ؟ قالوا : لا ندري . قال : كم

(١) الراوية : البعير يستقي عليه الماء .

(٢) أذلقوهما : بالغوا في ضربهما حتى أجهدوهما .

ينحرون كل يوم ؟ قالوا : يوما تسعا ويوما عشرا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : القوم فيما بين التسعمائة والألف . ثم قال لهما : فمن فيهم من أشراف قريش ؟ قالوا : عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو البختري بن هشام ، وحكيم بن حزام ، ونوفل بن خويلد ، والحارث بن عامر بن نوفل ، وطعيمة بن عدى بن نوفل ، والنضر بن الحارث ، وزمعة بن الأسود ، وأبو جهل بن هشام ، وأميمة بن خلف ، ونبيه ومنبه ابنا الحجاج ، وسهيل بن عمرو ، وعمرو بن عبد ود . فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس فقال : هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها^(١) !

وكان بسبس بن عمرو ، وعدى بن أبي الزغباء قد مضيا حتى نزلا بدرا ، فاناخا إلى تل قريب من الماء ، ثم أخذا شئنا^(٢) لهما يستقيان فيه ومجدى بن عمرو الجهني على الماء ، فسمع عدى وبسبس جاريتين من جوارى الحاضر^(٣) وهما يتلازمان^(٤) على الماء ، والملزومة^(٥) تقول لصاحبتها : إنما تأتي العير غداً أو بعد غدٍ فأعمل لهما ثم أقضيك الذي لك . قال مجدى : صدقت . ثم خلص بينهما . وسمع ذلك عدى وبسبس فجلسا على بعيريهما ثم انطلقا حتى أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبراه بما سمعا .

(١) جمع فلذة ، وهي القطعة . (٢) الشن : الزق البالى .

(٣) الحاضر : القوم النزول على الماء . (٤) التلازم : أن يتعلق الغريم بغريمه .

(٥) الملزومة : المدينة .

وأقبل أبو سفيان بن حرب حتى تقدم العير حذراً حتى ورد الماء ، فقال لمجدي بن عمرو : هل أحسست أحداً ؟ قال : ما رأيت أحداً أنكره ، إلا أنني قد رأيت راكبين قد أناخا إلى هذا التل ، ثم استقيا في شئ لهما ثم انطلقا . فأتى أبو سفيان مناخهما فأخذ من أبعاد بعيريهما ففتته فإذا فيه النوى . فقال : هذه والله علائف يثرب . فرجع إلى أصحابه سريعاً فضرب وجه عيره عن الطريق ، فساحل بها ، وترك بدرأ يبسار ، وانطلق حتى أسرع .

ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره أرسل إلى قريش : إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم ، فقد نجأها الله فارجعوا . فقال أبو جهل بن هشام : والله لا نرجع حتى نرد بدرأ — وكان بدرئ موسماً من مواسم العرب ، يجتمع لهم به سوق كل عام — فنقيم عليه ثلاثاً ، فننحر الجزر ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان ^(١) ، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجموعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبداً بعدها ، فامضوا .

ومضت قريش حتى نزلوا بالعدوة القصوى من الوادي ، وبعث الله السماء ، وكان الوادي دهساً ^(٢) ، فأصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه منها ما لبد لهم الأرض ولم يمنعهم عن السير ، وأصاب قريشاً

(١) القيان : الجوارى المغنيات .

(٢) الدهس : اللين لم يبلغ أن يكون رملاً .

منها ما لم يقدرُوا على أن يرتحلوا معه ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يبادرهم إلى الماء : حتى إذا جاء أدنى ماء من بدر نزل به .

قال الحباب بن المنذر : يا رسول الله ، رأيت هذا المنزل أمناً أم نزلاً أنزلك الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ، أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأى والحرب والمكيدة . فقال : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ، ثم نغور^(١) ما وراءه من القلب ، ثم نبني عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد أشرت بالرأى . فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من الناس ، فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه ، ثم أمر بالقلب فغُورَت ، وبني حوضاً على القلب الذى نزل عليه ، فملىء ماء ، ثم قذفوا فيه الآنية .

وقال سعد بن معاذ : يا نبي الله ، ألا نبني لك عريشاً تكون فيه ، ونُعِدُّ عندك ركائبك ، ثم نلقى عدونا ، فإن أعزنا الله وأظهرنا على عدونا ، كان ذلك ما أحببنا . وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلهيئت بمن وراءنا من قومنا ، فقد تخلف عنك أقوام يا نبي الله ما نحن بأشد لك حباً منهم ، ولو ظنوا أنك تلقى حرباً ما تخلفوا عنك يمنعك الله بهم ، يناصونك ويجاهدون معك .

(١) التغوير : الدفن والطمس .

فأثنى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم خيراً ، ودعا له بخير ،
ثم بنى لرسول الله صلى الله عليه وسلم عريش فكان فيه .

وقد ارتحلت قريش حين أصبحت ، فأقبلت ، فلما رآها رسول الله
صلى الله عليه وسلم تصوب^(١) من العَقَنَقْل — وهو الكثيب الذى
جاءوا منه إلى الوادى — قال : اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها^(٢)
ونفرها ، تحادّك وتكذب رسولك . اللهم فنصرَكَ الذى وعدتنى ،
اللهم أحزنهم الغداة^(٣) !

فلما نزل الناس أقبل نفرٌ من قريش حتى وردوا حوض رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، فيهم حكيم بن حزام ، فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : دعوهم . فما شرب منه رجلٌ يومئذٍ إلا . قُتل إلا ما كان من
حكيم بن حزام ، فإنه لم يُقتل ، ثم أسلم بعد ذلك فسن إسلامه ، فكان
إذا اجتهد فى يمينه قال : لا والذى نجاتى من يوم بدر !

ولما اطمأن القوم بعثوا عُمَيْرَ بن وهب الجمحى فقالوا : احزُرْ^(٤)
لنا أصحابَ محمد . فاستجال بفرسه حول العسكر ثم رجع إليهم فقال :
ثلثمائة رجل يزيدون قليلاً أو ينقصون ، ولكن أمهلونى حتى أنظرَ

(١) أى ينحدر .

(٢) الخيلاء : الكبر والإعجاب .

(٣) أحزنهم : أهلكهم . حان : هلك .

(٤) احزُر : أى قدر بالحدس والظن .

ألقوم كمين أو مدد؟ فضرب في الوادي حتى أبعد، فلم ير شيئاً، فرجع إليهم فقال: ما وجدت شيئاً، ولكني قد رأيت يا معشر قريشِ البلاء^(١) تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع^(٢)، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك؛ فروا رأيكم.

فلما سمع حكيم بن حزام ذلك مشى في الناس، فأتى عتبة بن ربيعة فقال: يا أبا الوليد، إنك كبير قريش وسيدها، والمطاع فيها، هل لك إلى ألا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر؟ قال: وما ذاك يا حكيم؟ قال: ترجع بالناس وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي^(٣) قال: قد فعلت، أنت على ذلك، إنما هو حلفي فعلى عقله^(٤) وما أصيب من ماله، فأت ابن الحنظلية^(٥) فإني لا أخشى أن يشجر أمر الناس^(٦) غيره. ثم قام عتبة بن ربيعة خطيباً فقال: يا معشر قريش، إنكم والله

(١) البلاء: جمع بلية، وهي الناقة أو الدابة تربط إلى قبر الميت فلا تعلف ولا تسقى حتى تموت.

(٢) النواضح: الإبل يستقي عليها. الناقع: الثابت، البالغ في الإفناء.

(٣) انظر ما مضى في سرية عبد الله بن جحش ص ١٩٠.

(٤) العقل: الدية.

(٥) هو أبو جهل بن هشام. أمه من حنظلة بن مالك.

(٦) أي يخالف بينهم.

ما تصنعون بأن تلقوا محمداً وأصحابه شيئاً ، والله لئن أصبتموه لا يزال
الرجل ينظر في وجه رجلٍ يكره النظر إليه ، قتل ابن عمه أو ابن خاله
أو رجلاً من عشيرته ، فارجعوا وخلوا بين محمد وسائر العرب . فإن
أصابوه فذاك الذي أردتم وإن كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرّضوا
منه ما تريدون .

قال حكيم : فانطلقت حتى جئت أبا جهل فوجدته قد نثل^(١)
درعاً له من جرابها فهو يهنيها^(٢) ، فقلت له : يا أبا الحكم ، إن عتبة
أرسلني إليك بكذا وكذا ، للذي قال . فقال : اتفخ والله سحره^(٣) حين
رأى محمداً وأصحابه ، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله بيننا وبين محمد ،
وما بعتبة ما قال ، ولكنه قد رأى أن محمداً وأصحابه أكلة جزور^(٤)
وفيهم ابنه ، فقد تخوّفكم عليه . ثم بعث إلى عامر بن الحضرمي فقال :
هذا حليفك يريد أن يرجع بالناس ، وقد رأيت ثأرك بعينك ، فقم
فانشد خفرتك^(٥) ومقتل أخيك .

(١) نثل : أخرج .

(٢) يهنيها : يطلبها بعكر الزيت . ويروى « يهنيها » .

(٣) السحر : الرئة . وهذا كناية عن الجبن .

(٤) أي قليلو العدد . وأكلة الجزور نحو المائة .

(٥) أي أطلب من قريش الوفاء بخفرتهم لك أي عهدهم ، فقد كان جاراً لهم
وحليفاً .

فقام عامر بن الحضرمي فاكشف ثم صرخ: واعمرأه واعمرأه^(١)!
فحميت الحرب، وحقب أمر الناس^(٢)، واستوسقوا^(٣) على ما هم
عليه من الشر، وأفسد على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة.

وقد خرج الأسود بن عبد الأسد المخزومي — وكان رجلاً
شرساً سيئ الخلق — فقال: أعاهد الله لأشربن من حوضهم أو
لأهدمنه أو لأموتن دونه! فلما خرج خرج إليه حمزة بن عبد المطلب،
فلما التقيا ضربه حمزة فأطن قدمه^(٤) بنصف ساقه، وهو دون
الحوض، فوقع على ظهره تشخب^(٥) رجله دماً نحو أصحابه ثم، حبا إلى
الحوض حتى اقتحم فيه، يريد أن يبر يمينه وأتبعه حمزة فضربه حتى
قتله في الحوض.

ثم خرج بعده عتبة بن ربيعة، بين أخيه شيبه وابنه الوليد بن
عتبة، حتى إذا فصل من الصف دعا إلى المبارزة، فخرج إليه فتية من
الأنصار ثلاثة، وهم عوف ومعوذ ابنا الحارث، ورجل آخر يقال
هو عبد الله بن رواحة، فقالوا: من أتم؟ فقالوا: رهط من الأنصار
قالوا: ما لنا بكم من حاجة. ثم نادى منادهم: يا محمد، أخرج إلينا

(١) يندب أخاه عمرو بن الحضرمي.

(٢) حقب: اشتد.

(٣) استوسقوا: اجتمعوا.

(٤) أطنها: أطارها.

(٥) تشخب: تسيل بصوت.

أكفأنا من قومنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قم يا عبدة
ابن الحارث ، وقم يا حمزة ، وقم يا علي . فلما قاموا ودنوا منهم قالوا :
من أنتم ؟ قال عبدة : عبدة . وقال حمزة : حمزة . وقال علي : علي .
قالوا : نعم أكفأ كرام . فبارز عبدة — وكان أسن القوم — عتبة بن
ربيعة ، وبارز حمزة شيبه بن ربيعة ، وبارز علي الوليد بن عتبة . فأما حمزة
فلم يمهل شيبه أن قتله ، وأما علي فلم يمهل الوليد أن قتله ، واختلف
عبدة وعتبة بينهما ضربتين ، كلاهما أثبت صاحبه ^(١) ، وكرَّ حمزة
وعلي بأسيا فهما علي عتبة فذققا عليه ^(٢) واحتملا صاحبهما فخازاه
إلى أصحابه .

ثم تراحف الناس ودنا بعضهم من بعض ، وقد أمر رسول الله
صلى الله عليه وسلم أصحابه ألاَّ يَحْمِلُوا حَتَّى يَأْمُرَهُمْ ، وقال : إن
اكتنفكم القومُ فانضحوهم ^(٣) عنكم بالنبل . ورسول الله صلى الله عليه
وسلم في العريش معه أبو بكر الصديق .

فكانت وقعة بدر يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من رمضان .
ثم عدل رسول الله صلى الله عليه وسلم الصفوف ورجع إلى
العريش ، فدخله ومعه أبو بكر الصديق ، ليس معه غيره ،

(١) أثبتته : جرحه جراحة لم يقم معها .

(٢) ذقق عليه : أجهز وأسرع .

(٣) انضحوهم : ارموهم .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم يناشد ربه ما وعده من النصر ،
ويقول فيما يقول : اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد !
وأبو بكر يقول : يا نبي الله ، بعض مناشدتك ربك ، فإن الله
منجز لك ما وعدك .

وقد خفق رسول الله خفقة^(١) وهو في العريش ، ثم انتبه فقال :
أبشر يا أبا بكر ، أتاك نصر الله . هذا جبريل أخذ بعنان فرس يقوده ،
على ثناياه النقع^(٢) .

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرّضهم وقال : والذي
نفس محمد بيده ، لا يقا تلهم اليوم رجل فيقتل صابراً محتسباً ، مقبلاً
غير مدبر ، إلا أدخله الله الجنة . فقال عمير بن الحُمام ، أخو بني سلمة ،
وفي يده تمرات يا كلهن : بخ بخ^(٣) ، أفما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن
يقتلني هؤلاء ! ثم قذف التمرات من يده وأخذ سيفه ، فقاتل القوم
حتى قتل .

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ حفنة من الحصباء
فاستقبل قريشاً بها ، ثم قال : شاهت الوجوه ! ثم نفحهم بها ، وأمر

(١) أى نام نومة يسيرة .

(٢) النقع : الغبار .

(٣) كلمة تقال عند الإعجاب .

أصحابه فقال : شدوا ! فكانت الهزيمة . فقتل الله من قتل من صناديد
قريش ، وأسر من أسر من أشرافهم .

عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يومئذ :
إني قد عرفت أن رجالاً من بني هاشم وغيرهم قد أخرجوا كرهاً ،
لا حاجة لهم بقتالنا ، فمن لقي منكم أحداً من بني هاشم فلا يقتله ، ومن لقي
أبا البختری بن هشام بن الحارث بن أسد فلا يقتله ، ومن لقي العباس
ابن عبد المطلب فلا يقتله ، فإنه إنما أخرج مُستكرهاً . فقال أبو حذيفة :
أنقتل آباءنا وأبناءنا وإخوتنا وعشيرتنا ونترك العباس ! والله لئن
لقيته لألحمنه السيف^(١) ! فبلغت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال
لعمر بن الخطاب : يا أبا حفص ، أَيْضَرِبْ وجه عمِّ رسول الله
بالسيف ؟ فقال عمر : يا رسول الله دعني فلاضرب عنقه بالسيف
فوالله لقد نافق . فكان أبو حذيفة يقول : ما أنا بآمنٍ من تلك الكلمة
التي قلت يومئذ ، ولا أزال منها خائفاً إلا أن تكفرها عني الشهادة !
فقتل يوم اليمامة شهيدا .

ولم تقاتل الملائكة في يوم سوى بدرٍ من الأيام ، وكانوا يكونون
فيما سواه من الأيام عدداً ومدداً ، لا يضربون .

فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من عدوته أمر بأبي جهل

(١) أى لا يمكن منه السيف . ويروى : « لألحمنه » أى لا ضربنه به في وجهه .

أن يلتبس في القتلى . قال ابن مسعود : احتزرت رأسه ثم جئت به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله ، هذا رأس عدو الله أبي جهل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : آله^(١) الذى لا إله غيره ؟ — قال : وكان يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم — قلت : نعم والله الذى لا إله غيره . ثم ألقيت رأسه بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحمد الله .

ولما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يُطرحوا في القليب طرخوا ، إلا ما كان من أمية بن خلف ، فإنه انتفخ في درعه فملاها ، فذهبوا ليحركوه فتزائل^(٢) لجمه فأقروه ، وألقوا عليه ما غيبه من التراب والحجارة . فلما ألقاهم في القليب وقف رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمعه أصحابه من جوف الليل وهو يقول : يا أهل القليب ، يا عتبة بن ربيعة ، ويا شيبه بن ربيعة ، ويا أمية بن خلف ، ويا أبا جهل — فعدد من كان منهم في القليب — هل وجدتم ما وعد ربكم حقاً فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً ؟ فقال المسلمون : يا رسول الله ، أتنادى قوماً قد جئفوا ؟ قال : ما أتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبوني !

ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بما في العسكر ، مما جمع الناس ، فجمع ، فاختلف المسلمون فيه ، فقال من جمعه : هو لنا . وقال

(١) أى والله .

(٢) أى تساقط .

الذين كانوا يقاتلون العدو ويطلبونه : والله لولا نحن ما أصبتموه ،
لنحن شغلنا عنكم القوم حتى أصبتم ما أصبتم . وقال الذين كانوا
يحرسون رسول الله صلى الله عليه وسلم مخافة أن يخالف إليه العدو :
والله ما أتم بأحق منا . والله لقد رأينا أن نقتل العدو إذ منحنا الله تعالى
أكتافه ، ولقد رأينا أن نأخذ المتاع حين لم يكن دونه من يمنعه ،
ولكننا خفنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم كربة العدو فقمنا دونه ،
فما أتم بأحق به منا .

ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الفتح عبد الله بن
رواحة بشيرا إلى أهل العالية بما فتح الله عز وجل على رسوله صلى الله
عليه وسلم وعلى المسلمين ، وبعث زيد بن حارثة إلى أهل السافلة ، ثم
أقبل قافلا إلى المدينة ومعه الأسارى من المشركين ، وفيهم عقبة بن
أبي معيط ، والنضر بن الحارث ، واحتمل رسول الله صلى الله عليه وسلم
معه النفل الذى أصيب من المشركين ، وجعل على النفل عبد الله بن
كعب بن عمرو بن عوف .

ثم أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا خرج من مضيق
الصفراء نزل على كتيب بين المضيق وبين النازية ، فقسم هنالك النفل
الذى أفاء الله على المسلمين من المشركين على السواء .

ثم ارتحل رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى إذا كان بالروحاء
لقى المسلمون يهتفون بما فتح الله عليه ومن معه من المسلمين ، فقال لهم

سلمة بن سلامة : ما الذى تهنتوننا به ؟ فوالله إن لقينا إلا عجائز صُلَعًا
كالإبل المعقّلة فنحرناها ! فتبسّم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال :
أى ابن أخى ، أولئك المملأ !

حتى إذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصفراء قُتِلَ النضر
ابن الحارث ، قتله على بن أبى طالب . ثم خرج حتى إذا كان بعِرق
الظبية قتل عُقبة بن أبى معيط ، فقال عُقبة حين أمر رسول الله صلى الله
عليه وسلم بقتله : فمن للصّبية يا محمد ؟ قال : النار . فقتله عاصم بن ثابت
ابن أبى الأقلح الأنصارى . ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم
حتى قدم المدينة قبل الأسارى بيوم ، وحين أقبل بالأسارى فرّقهم
بين أصحابه وقال : استوصوا بالأسارى خيرا .

وكان أول من قدم مكة بمصاب قريش الحيسمان بن عبد الله .
وناحت قريش على قتلاهم ثم قالوا : لا تفعلوا فيبلغ محمدا وأصحابه
فيشمتوا بكم ، ولا تبعثوا فى أسراكم حتى تستأنوا بهم ^(١) لا يارب ^(٢)
عليكم محمد وأصحابه فى الفداء . وكان الأسود بن عبد المطلب قد أصيب
له ثلاثة من ولده : زمعة بن الأسود ، وعقيل بن الأسود ، والحارث
ابن زمعة ، وكان يحب أن يبكى على بنيه ، فبينما هو كذلك إذ سمع

(١) أى تؤخروا فداءهم .

(٢) يارب : يشتد .

نائحة من الليل ، فقال لـغلام له وقد ذهب بصره : انظر هل أحلَّ
النَّحْبُ^(١) ؟ هل بكى قريشٌ على قتلها ؟ لعلَّ أبكى على أبي حكيمه —
يعنى زمعة — فإن جوفى قد احترق ! فلما رجع إليه الغلام قال : إنما
هى امرأةٌ تبكى على بعيرٍ لها أضلته . فذلك حين يقول الأسود :

أتبكى أن يضلَّ لها بعير ويمنعها من النوم السهودُ
فلا تبكى على بَكرٍ ولكن على بدرٍ تقاصرت الجدود^(٢)
على بدرٍ سراة بنى هُصيص ومخزوم ورهط أبى الوليد
وبكى إن بكيت على عَقلٍ وبكى حارثاً أسدَ الأسود
وبكىهم ولا تسمى جميعاً وما لأبى حكيمه من نديد^(٣)

ثم بعثت قريشٌ فى فداء الأسارى . فقدم مكرز بن حفص فى
فداء سهيل بن عمرو ، فلما قالو لهم فيه مكرز وانتهى إلى رضاهم قالوا :
هات الذى لنا . قال : اجعلوا رجلى مكان رجله وخلّوا سبيله حتى
يبيع إليكم بفدائه . فخلّوا سبيل سهيل ، وحبسوا مكرزا مكانه عندهم .

وكان عمر بن الخطاب قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم :
يا رسول الله ، دعنى أنزع ثنيتى سهيل بن عمرو ، ويدلّع^(٤) لسانه

(١) النحب : النحيب وهو رفع الصوت بالبكاء .

(٢) البكر : الفتى من الإبل .

(٣) لا تسمى : لا تسمى . النديد : المشيل .

(٤) يدلّع : يخرج .

فلا يقوم عليك خطيباً في موطنٍ أبداً . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا أمثل به فيمثل الله بي وإن كنت نبياً .

وقد كان في الأسارى أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى . ختن رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوج ابنته زينب ، وكان الإسلام فرّق بين زينب حين أسلمت وبين أبي العاص بن الربيع ، إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان لا يقدر أن يفرّق بينهما ، فأقامت معه على إسلامها وهو على شركه ، حتى هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما سارت قريش إلى بدر سار فيهم أبو العاص بن الربيع ، فأصيب في الأسارى يوم بدر ، فكان بالمدينة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولما بعث أهل مكة في فداء أسرائهم ، بعثت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم في فداء أبي العاص بن الربيع بمال ، وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبي العاص حين بنى عليها . فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم رق لها رقّة شديدة ، وقال : إن رأيتم أن تطلقوها أسيرها وتردوها عليها مالها فافعلوا . فقالوا : نعم يا رسول الله . فأطلقوه وردوا عليها الذي لها .

وأقام أبو العاص بمكة ، وأقامت زينب عند رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة ، حتى فرّق بينهما الإسلام ، حتى إذا كان قبيل الفتح خرج أبو العاص تاجراً إلى الشام ، وكان رجلاً مأموناً ، بمال له وأموال

لرجال من قريش ، أبضعوها معه ، فلما فرغ من تجارتها وأقبل قافلاً
لقيته سرية لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأصابوا ما معه ، وأعجزهم
هارباً . فلما قدمت السرية بما أصابوا من ماله ، أقبل أبو العاص تحت
الليل حتى دخل على زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
فاستجار بها فأجارته ، وجاء في طلب ماله ، فلما خرج رسول الله
صلى الله عليه وسلم إلى الصبح فكبر وكبر الناس معه ، صرخت
زينب من «صفة النساء»^(١) : أيها الناس إني قد أجرت أبا العاص بن
الربيع . فلما سلم رسول الله صلى الله عليه وسلم من الصلاة أقبل على
الناس ، فقال : أيها الناس ، هل سمعتم ما سمعت ؟ قالوا : نعم . قال :
أما والذي نفس محمد بيده ما علمتُ بشيء من ذلك حتى سمعتُ
ما سمعتم ، إنه يحير على المسلمين أديانهم . ثم انصرف رسول الله صلى
الله عليه وسلم فدخل على ابنته فقال : أي بُنية ، أكرمي مثواه ،
ولا يخلصن إليك ، فإنك لا تحلين له .

عن عبد الله بن أبي بكر ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم
بعث إلى السرية الذين أصابوا مال أبي العاص فقال لهم : إن هذا
الرجل منا حيث قد علمتم ، وقد أصبتم له مالاً ، فإن تحسنوا وتردوا
عليه الذي له فإننا نحب ذلك ، وإن آيتم فهو فيء الله الذي أفاء عليكم
فأنتم أحقُّ به . فقالوا : يا رسول الله ، بل نرده عليه . فردَّوه عليه حتى إن

(١) الصفة : السقيفة .

الرجل ليأتي بالدلو، ويأتي الرجل بالشَّنة^(١). وبالإداوة^(٢)، حتى إنَّ أحدهم ليأتي بالشَّظاظ^(٣)، حتى ردُّوا عليه ماله بأسره لا يفقد منه شيئاً. ثمَّ احتمل إلى مكة فآدى إلى كلِّ ذى مال من قريش ماله، ومن كان أبضع معه. ثمَّ قال: يا معشر قريش، هل بقي لأحد منكم عندي مالٌ لم يأخذه؟ قالوا: لا، فجزاك الله خيراً، فقد وجدناك وفياً كريماً. قال: فأنا أشهد ألاَّ إله إلاَّ الله وأنَّ محمداً عبده ورسوله! والله مامنٌ من الإسلام عنده إلاَّ تخوفُ أن تظنُّوا أنَّي إنما أردتُ أن آكل أموالكم، فلما أداها الله إليكم وفرغتُ منها أسلمت. ثمَّ خرج حتى قدم على رسول الله.

وكان ممن سمي لنا من الأسارى ممن منَّ عليه بغير فداء أبو العاص ابن الربيع، والمطلب بن حنطب، وصيفي بن أبي رفاعه، وأبو عزَّة عمرو بن عبد الله بن عثمان بن أهيب بن حذافة بن جُحَم. كان محتاجاً ذا بنات فيكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله، لقد عرفتَ مالى من مال، وإني لذو حاجة وذو عيال، فامننَّ عليَّ. فننَّ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذ عليه ألا يظاهر عليه أحداً، فقال أبو عزَّة في ذلك يمدح رسول الله صلى الله عليه وسلم ويذكر فضله في قومه:

(١) الشَّنة: السقاء البالى. (٢) الإداوة: وعاء من الجلد صغير.

(٣) الشَّظاظ: خشبة تدخل في عروقي الجوالق.

مَنْ مُبْلِغٌ عَنِ الرَّسُولِ مُحَمَّدًا بِأَنَّكَ حَقٌّ وَالْمَلِكُ حَمِيدٌ
وَأَنْتَ أَمْرٌ وَتَدْعُو إِلَى الْحَقِّ وَالْهُدَى عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ الْعَظِيمِ شُهُودٌ
وَأَنْتَ أَمْرٌ وَبُوِّتَ فِينَا مَبَاءَةٌ لَهَا دَرَجَاتٌ سَهْلَةٌ وَصَعُودٌ^(١)
فَإِنَّكَ مِنْ حَارِبَتِهِ لِحَارِبٍ شَقِيَّةٍ وَمَنْ سَأَلَتْهُ لَسَعِيدٌ
وَكَانَ فِدَاءُ الْمُشْرِكِينَ يَوْمَئِذٍ أَرْبَعَةَ آلَافٍ دِرْهَمٍ لِلرَّجُلِ إِلَى أَلْفِ
دِرْهَمٍ ، إِلَّا مَنْ لَا شَيْءَ لَهُ ، فَمَنْ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ .

وَجَمِيعٌ مِنْ شَهِيدٍ بَدْرًا مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَمَنْ ضَرَبَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِسَهْمِهِ وَأَجْرَهُ ثَلَاثَةَ وَثَمَانُونَ رَجُلًا . وَجَمِيعٌ مِنْ
شَهِيدٍ بَدْرًا مِنَ الْأَوْسِ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَنْ
ضَرَبَ لَهُ بِسَهْمِهِ وَأَجْرَهُ وَاحِدٌ وَسِتُونَ رَجُلًا . وَجَمِيعٌ مِنْ شَهِيدٍ بَدْرًا
مِنَ الْخَزَرَجِ مِائَةً وَسَبْعُونَ رَجُلًا .

فَجَمِيعٌ مِنْ شَهِيدٍ بَدْرًا مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ ،
مِنْ شَهِيدٍ مِنْهُمْ وَمَنْ ضُرِبَ لَهُ بِسَهْمِهِ وَأَجْرَهُ ثَلَاثُ مِائَةٍ رَجُلٍ وَأَرْبَعَةُ
عَشَرَ رَجُلًا .

(١) أَيْ أَنْزَلَتْ فِينَا مَنَزَلَةً عَظِيمَةً .

غزوة بنى سليم بالكُدر

فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقيم بها إلا سبعة ليال
حتى غزا بنفسه، يريد بنى سليم^(١) فبلغ ماءً من مياههم يقال له «الكُدر»
فأقام عليه ثلاث ليالٍ ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيذا ، فأقام بها
بقية شوال وذا القعدة ، وأفدى في إقامته تلكُ جلَّ الأسارى من
قريش .

(١) واستعمل على المدينة حينئذ سباع بن عرفة الغفاري ، وقيل : ابن أم مكتوم .

غزوة السَّوِيق

ثم غزا أبو سفيان بن حرب غزوة السَّوِيق^(١) في ذي الحِجَّة ،
وولى تلك الحِجَّة المشركون من تلك السَّنة ، فكان أبو سفيان حين
رجع إلى مكة ورجع فل^(٢) قريش من بدر ، نذر ألا يمس رأسه ماء
من جنابة^(٣) حتى يغزو محمدا صلى الله عليه وسلم . فخرج في مائتي راكب
من قريش ليبراً يمينه ، فسلك النجدية حتى نزل بصدر قناة إلى جبل
يقال له « ثيب » من المدينة على بريد أو نحوه ، ثم خرج من الليل حتى
أتى بني النضير تحت الليل ، فأتى حِيَّ بن أخطب فضرب عليه بابه ،
فأبى أن يفتح عليه بابه وخافه ، فانصرف إلى سلام بن مشكم وكان
سيد بني النضير في زمانه ذلك وصاحب كنزهم^(٤) فاستأذن عليه
فأذن له فقراه^(٥) وسقاه ، وبطن له^(٦) من خبر الناس . ثم خرج في
عقب ليلته حتى أتى أصحابه ، فبعث رجالاً من قريش إلى المدينة ، فأتوا

(١) سميت بذلك لأن أكثر ما طرح القوم من أزوادهم السويق ، فهجم
المسلمون على كثير منه . والسويق : مطحون الحنطة أو الشعير ، ويؤكل ممزوجاً
باللبن والحسل والسمن ، أو بالماء .

(٢) الفل : المنهزمون .

(٣) كان الغسل من الجنابة معمولاً به في الجاهلية ، كالحج والنكاح .

(٤) يراد بالكنز ما كانوا يجمعونه من مال بينهم ، لنوائبهم وما يعرض له .

(٥) قراه : أطعمه القرى ، وهو طعام الضيف .

(٦) بطن له : أعله سرهم .

تأحية منها يقال لها العريضة ، فخرقوا في أصوار^(١) من نخل بها ،
ووجدوا بها رجلاً من الأنصار وحليفاً له في حرث لهما فقتلوهما
ثم انصرفوا راجعين ، ونذر^(٢) بهم الناس ، فخرج رسول الله صلى الله
عليه وسلم في طلبهم ، واستعمل على المدينة بشير بن عبد المنذر ، حتى
بلغ «قرقرة الكدر» . ثم انصرف راجعا وقد فاته أبو سفيان وأصحابه ،
وقد رأوا أزواداً من أزواد القوم قد طرحوها في الحرث ، يتخفون
منها للنجاء ، فقال المسلمون حين رجع بهم رسول الله صلى الله عليه
وسلم : يا رسول الله ، أتطمع لنا أن تكون غزوة؟ قال : نعم .

(١) جمع صور ، بالفتح ، وهو جماعة النخل .

(٢) نذروا بهم : علوا بهم .

غزوة ذى أمر

فلما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة السويق أقام بالمدينة بقية ذى الحجة أو قريبا منها، ثم غزا نجدا، يريد غطفان، وهى غزوة ذى أمر^(١).

فأقام بنجد صفرا كله أو قريبا من ذلك، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيدا، فلبث بها شهر ربيع الأول كله، أو إلا قليلا منه.

غزوة الفرع من بجران

ثم غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد قريشا^(٢) حتى بلغ بجران، معدنا بالحجاز من ناحية الفرع، فأقام بها شهر ربيع الآخر وجمادى الأولى، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيدا.

(١) واستعمل على المدينة عثمان بن عفان.

(٢) واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم.

أمر بني قينقاع

كان من أمر بني قينقاع^(١) أن امرأة من العرب قدمت بجلب^(٢) لها فباعته بسوق بني قينقاع ، وجلست إلى صائغ بها ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها فأبت ، فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوءتها ، فضحكوا بها فصاحت . فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، وكان يهوديا ، وشدت اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فغضب المسلمون ، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع .

وكان بنو قينقاع أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحاصروهم رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزلوا على حكمه ، فقام إليه عبد الله بن أبي بن سلول حين أمكنه الله منهم ، فقال : يا محمد ، أحسن في موالى ! فأبطأ عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : يا محمد ، أحسن في موالى ! فأعرض عنه ، فأدخل يده في جيب درع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : أرسلنى !

(١) بفتح القاف وتشليث النون ، شعب من اليهود .

(٢) الجلب ، بالتحريك : ما يجلب للأسواق ليباع فيها .

وغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى رأى لوجهه ظلالاً^(١) ،
ثم قال : ويحك أرسلنى . قال : لا ، والله ، لا أرسلك حتى تحسن فى
موالى^(٢) : أربعمئة حاسر وثلاثمئة دارع قد منعونى من الأحمر والأسود^(٣)
تخصدهم فى غداة واحدة ، إني والله امرؤ أخشى الدوائر . فقال رسول
صلى الله عليه وسلم : هم لك .

ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
وكان لهم من حلفه مثل الذى لهم من عبد الله بن أبى ، فخلعهم إلى
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتبرأ إلى الله عز وجل وإلى رسول
الله صلى الله عليه وسلم من حلفهم ، وقال : يا رسول الله ، أتولى الله
ورسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين وأبرأ من حلف هؤلاء
الكفار وولايتهم .

ففيه وفى عبد الله بن أبى نزلت هذه القصة من المائدة : (يا أيها
الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء
بعض ، ومن يتولهم منهم فإنه منكم ، إن الله لا يهدي القوم الظالمين .
فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فىهم يقولون نخشى أن
تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصيبهم
فأولئك هم الذين لا يصدقون)

(١) جمع ظلة ، وأصلها السحابة ، عنى بذلك تغير الوجه إلى السواد حين
يشتد الغضب .

(٢) أى العجم والعرب .

على ما أسروا في أنفسهم نادٍ مِينَ . ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم (ثم القصة إلى قوله تعالى : (إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ) . وذكر لتولي عبادة بن الصامت الله ورسوله والذين آمنوا ، وتبريئه من بني قينقاع وحلفهم وولايتهم : (وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ) .

سرية زيد بن حارثة إلى القردة

ماء من مياه نجد .

وكان من حديثها أن قريشاً خافوا طريقهم الذين كانوا يسلكون إلى الشام ، حين كان من وقعة بدر ما كان ، فسلكوا طريق العراق فخرج منهم تجار فيهم أبو سفيان بن حرب ، ومعه فضة كثيرة ، وهي عظم تجارتهم ، واستأجروا رجلاً من بني بكر بن وائل يقال له فرات ابن حيان ، يدُّهم على ذلك الطريق .

وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم زيد بن حارثة فلقاهم على ذلك الماء ، فأصاب تلك العير وما فيها ، وأعجزه الرجال ، فقدم بها على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

غزوة أحد

لما أصيب يوم بدر من كفّار قريش أصحابُ القليب ، ورجع
فلّهم إلى مكة ، ورجع أبو سفيان بن حربٍ بغيره ، مشى عبد الله
ابن أبي ربيعة ، وعكرمة بن أبي جهل ، وصفوان بن أمية ، في رجالٍ
من قريش ، ممن أصيب آباؤهم وأبناءؤهم وإخوانهم يوم بدر ، فكلّموا
أبا سفيان بن حربٍ ، ومن كانت له في تلك العير من قريش تجارة
فقالوا : يا معشرَ قريش ، إنّ محمداً قد وترككم وقتلَ خياركم ، فأعينونا
بهذا المال على حربِهِ ، فلعلّنا ندركُ منه ثأرنا بمن أصابَ منا . ففعلوا .

فاجتمعت قريش لحرب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين فعل
ذلك أبو سفيان وأصحاب العير بأحاديثها^(١) ومن أطاعها من قبائل كنانة
وأهل تهامة ، وخرجوا معهم بالظُّعن^(٢) التماسَ الحفيظة ، وألاً يفرّوا .
فخرج أبو سفيان بن حرب ، وهو قائد الناس ، بهند بنت عتبة ،
وخرج عكرمة بن أبي جهل بأمّ حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة ،
وخرج الحارث بن هشام بن المغيرة بفاطمة بنت الوليد بن المغيرة ،
وخرج صفوان بن أمية بيزرة بنت مسعود الثقفية ، وخرج عمرو
ابن العاص بريطة بنت منبه بن الحجاج .

(١) الأحاديث : من اجتمع إلى العرب وانضم إليهم من غيرهم .

(٢) جمع ظعينة ، وهي المرأة .

فأقبلوا حتى نزلوا بعينين ، بجبل يبطن السَّبْخَة ، من قناة على شفير
الوادي ، مقابل المدينة . فلما سمع بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون
قد نزلوا حيث نزلوا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم للمسلمين :
إِنِّي قد رأيت والله خيرا ، رأيت بقرآلى تذبج ، ورأيت فى ذباب (١)
سيفي ثلما ، ورأيت أنى أدخلت يدي فى درع حصينة (٢) ، فأولتها
المدينة . فإن رأيتم أن تقيموا بالمدينة وتدعوهم حيث نزلوا ، فإن أقاموا
أقاموا بشرّ بنى مقام ، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها ؟ وكان رأى
عبد الله بن أبيّ بن سلول مع رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم
يرى رأيه فى ذلك وألا يخرج إليهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه
وسلم يكره الخروج ، فقال رجال من المسلمين ، ممن أكرم الله بالشهادة
يوم أحد وغيره ، ممن كان فاتته بدر : يا رسول الله ، اخرج بنا إلى
أعدائنا ، لا يرون أنّا جنبنا عنهم وضعفنا ! فقال عبد الله بن أبيّ بن
سلول : يا رسول الله ، أقم بالمدينة لا تخرج إليهم ، فوالله ما خرجنا
منها إلى عدوّ لنا قطّ إلا أصاب منا ، ولا دخلها علينا إلا أصبنا منه ،
فدعهم يا رسول الله ، فإن أقاموا أقاموا بشرّ محبّس ، وإن دخلوا
قاتلهم الرجال فى وجههم ، ورماهم النساء والصبيان بالحجارة من فوقهم ،

(١) ذباب السيف : حده .

(٢) قال صلى الله عليه وسلم : « أما البقر فهى ناس من أصحابي يقتلون . وأما
الثلم الذى رأيت فى ذباب سيفي فهو رجل من أهل بيتي يقتل » .

وإن رجعوا رجعوا خائبين كما جاءوا . فلم يزل الناسُ برسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذين كان من أمرهم حبُّ لقاء القوم ، حتى دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم بيته ، فلبس لأمته^(١) ، وذلك يوم الجمعة حين فرغ من الصلاة ، وقد مات في ذلك اليوم رجلٌ من الأنصار يقال له مالك بن عمرو ، فصلَّى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خرج عليهم ، وقد ندم الناسُ وقالوا : استكرهنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن لنا ذلك . فلما خرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : يا رسول الله ، استكرهناك ولم يكن ذلك لنا ، فإن شئت فاقعدْ صلى الله عليك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل » . فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في ألفٍ من أصحابه ، حتى إذا كانوا بالشَّوط ، بين المدينة وأحد ، انخزل عنه عبد الله بن أبي بن سلول بثلاث الناس ، وقال : أطاعهم وعصاني ، ما ندري علام تقتل أنفسنا ها هنا أيها الناس !

فرجع بمن اتبعه من قومه من أهل النفاق والريب ، واتبعهم عبد الله بن عمرو بن حرام ، يقول : يا قوم ، أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونييكم عندما حضر من عدوهم . فقالوا : لو نعلم أنكم تقتاتلون لما أسلبناكم ، ولكننا لا نرى أنه يكون قتال . فلما استعصوا عليه وأبوا إلا الانصراف عنهم قال : أبعدكم الله أعداء الله ، فسيغني الله عنكم نبيه .

(١) الأمة : الدرع ، وقيل : السلاح .

وقال الأنصار يوم أحد : يا رسول الله ، ألا نستعين بحلفائنا من
يهود ؟ فقال : لا حاجة لنا فيهم .

ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى نزل الشعب من أحد
في «عدوة الوادي إلى الجبل» فجعل ظهره وعسكره إلى أحد ، وقال
لا يقاتلن أحد منكم حتى تأمره بالقتال ، وقد سرحت قريش الظهر
والكراع^(١) في زروع كانت بالصمغة^(٢) من قناة للمسلمين ، فقال
رجل من الأنصار حين نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن
القتال : أترعى زروع بني قيلة^(٣) ولما نضارب !

وتعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو في سبعمائة رجل ،
وأمر على الرماة عبد الله بن جبير ، وهو معلم يومئذ بثياب بيض ،
والرماة خمسون رجلا ، فقال : انضح الخيل عنا بالنبل^(٤) ، لا يأتونا
من خلفنا ، إن كانت لنا أو علينا ، فاثبت علينا لا نؤتين من قبلك .
وظاهر رسول الله صلى الله عليه وسلم بين درعين^(٥) ، ودفع اللواء إلى
مصعب بن عمير ، أخى بني عبد الدار .

(١) الظهر : الإبل . والكراع : الخيل .

(٢) الصمغة : أرض قرب أحد .

(٣) هم الأوس والخزرج ، وقيلة أمهم .

(٤) انضحهم : ادفعهم .

(٥) ظاهر بينهما : لبس إحداهما فوق الأخرى .

وأجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ سمرة بن جندب ،
ورافع بن خديج وهما ابنا خمس عشرة سنة ، وكان قد ردّهما ، فقليل
له : يا رسول الله ، إن رافعاً رام . فأجازه ، فلما أجاز رافعاً قيل له :
يا رسول الله ، فإن سمرة يصرع رافعاً . فأجازه . ورد رسول الله
صلى الله عليه وسلم أسامة بن زيد ، وعبد الله بن عمر ، وزيد بن ثابت
والبراء بن عازب ، وعمر وبن حزم ، وأُسَيْد بن ظهير ، ثم أجازهم يوم
الْخندق وهم أبناء خمس عشرة سنة .

وتعبأت قريش ، وهم ثلاثة آلاف رجل ، ومعهم مائتا فرس
قد جَنَّبوها ، فجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد ، وعلى ميسرتها
عكرمة بن أبي جهل .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَنْ يأخذ هذا السيف
بحقه ؟ فقام إليه رجال ، فأمسكه عنهم ، حتى قام إليه أبو دُجَانَةَ سِمَاكُ
ابن خَرَشَةَ فقال : وما حقه يا رسول الله ؟ قال : أن تضربَ به العدوَّ
حتى ينحني . قال : أنا آخذه يا رسول الله بحقه . فأعطاه إياه . وكان
أبو دُجَانَةَ رجلاً شجاعاً يَحْتَالُ عند الحرب إذا كانت ، وكان إذا أَعْلَمَ
بعصاةٍ له حمراء فاعتصب بها علم النَّاسِ أنه سيقَاتِل . فلما أخذ السيفَ
من يد رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرجَ عصابته تلك فعصَّب بها
رأسه ، وجعل يتبختر بين الصفين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
حين رأى أبا دُجَانَةَ : إنها لِمَشِيَّةٌ يُبْغِضُهَا اللهُ إِلَّا فِي مِثْلِ هَذَا الْمَوْطِنِ .

وقد قال أبو سفيان لأصحاب اللواء من بني عبد الدار يحرضهم
بذلك على القتال: يا بني عبد الدار، إنكم قد وليتم لواءنا يوم بدر،
فأصابنا ما قد رأيتم، وإنما يؤتى الناس من قبل راياتهم، إذا زالت
زالوا، فلما أن تكفونا لواءنا، وإما أن تخلوا بيننا وبينه فكفكموه.
فهموا به فتواعدوه، وقالوا: نحن نسلم إليك لواءنا، ستعلم غداً إذا
التقينا كيف نصنع! وذلك أراد أبو سفيان.

فلما التقى الناس ودنا بعضهم من بعض، قامت هند بنت عتبة في
النسوة اللاتي معها، وأخذن الدفوف يضربن بها خلف الرجال
ويحرضنهم؛ فقالت هند فيما تقول:

ويهاً بني عبد الدار ويهاً حماة الأدبار^(١)

ضرباً بكلّ بتار^(٢)

وتقول:

إن تقبلوا نعانق ونفرش الفارق^(٣)

أو تدبروا نفارق فراق غير وامق^(٤)

(١) حماة الأدبار: الذين يحمون أعقابهم.

(٢) البتار: السيف القطاع.

(٣) النمرقة: الوسادة.

(٤) الوامق: المحب.

وكان شعار^(١) أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم أحد :
أَمْتُ أُمْتُ !

فاقتل الناس حتى حميت الحرب ، وقاتل أبودُجانة حتى أمعن
في الناس ، فجعل لا يلقى أحداً إلا ذَفَفَ عليه^(٢) ، فجعل كل واحدٍ
منهما يدنو من صاحبه ، فدعوتُ الله أن يجمعَ بينهما ، فالتقيا فاختلعا
ضربتين ، فضرب المشرك أبادُجانة فاتقاه بدرقته فعضت بسيفه ،
وضربه أبودُجانة فقتله ، ثم رأيتُه قد حمل السيفَ على مفرق رأسِ
هند بنت عتبة ، ثم عدلَ السيفَ عنها^(٣) .

وقاتل حمزة بن عبد المطلب حتى قتل أرطاة بن عبد شرحبيل
ابن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار ، وكان أحد النفر الذين يحملون
اللواء ، ثم مرَّ به سباع بن عبد العزى الغُبشاني ، وكان يكنى بأبي نيار ،
فقال له حمزة : هلمَّ إلي يا ابنَ مقطَّعة البُطور ! وكانت أمه ختانة بمكة .
قال وحشيُّ غلام جبير بن مطِيعم : والله إنِّي لأنظرُ إلى حمزة

(١) الشعار : علامة يتنادون بها في الحرب ، ليعرف بعضهم بعضا .

(٢) ذفف عليه : أجهز عليه .

(٣) قال أبو دجانة : رأيت إنسانا يخمش الناس خمشا شديدا ، فصمدت له ،
فلما حملت عليه السيف ولول ، فإذا امرأة ، فأكرمت رسول الله صلى الله عليه
وسلم أن أضرب به امرأة .

يَهْدُ^(١) النَّاسَ بِسَيْفِهِ مَا يُلِيقُ^(٢) بِهِ شَيْئًا ، مثل الجمل الأورق^(٣) ، إِذْ
تَقَدَّمَنِي إِلَيْهِ سَبَاعُ بْنُ عَبْدِ الْعَزْزِيِّ ، فَقَالَ لَهُ حَمْزَةٌ : هَلُمَّ إِلَيَّ يَا ابْنَ مَقْطَعَةِ
الْبُظُورِ ! فَضْرَبَهُ ضَرْبَةً فَكَأَنَّ مَا أَخْطَأَ رَأْسَهُ ، وَهَزَزْتُ حَرْبَتِي حَتَّى
إِذَا رَضِيتُ مِنْهَا دَفَعْتُهَا عَلَيْهِ ، فَوَقَعَتْ فِي ثُنْتِهِ^(٤) حَتَّى خَرَجْتُ مِنْ بَيْنِ
رَجْلَيْهِ ، فَأَقْبَلَ نَحْوِي فَغُلِبَ فَوَقَعَ ، وَأَمْهَلْتُهُ حَتَّى إِذَا مَاتَ جِئْتُ فَأَخَذْتُ
حَرْبَتِي ، ثُمَّ تَنَحَّيْتُ إِلَى الْعَسْكَرِ ، وَلَمْ تَكُنْ لِي بِشَيْءٍ حَاجَةً غَيْرَهُ ، وَإِنَّمَا
قَتَلْتُهُ لِأَعْتَقَ ، فَلَمَّا قَدِمْتُ مَكَّةَ أَعْتَقْتُ ، ثُمَّ أَقَمْتُ حَتَّى إِذَا افْتَتَحَ رَسُولُ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَكَّةَ هَرَبْتُ إِلَى الطَّائِفِ فَمَكَّثْتُ بِهَا ، فَلَمَّا خَرَجَ وَفَدُ
الطَّائِفَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيَسْلُمُوا تَعَيَّيْتُ عَلَى الْمَذَاهِبِ ،
فَقُلْتُ : أَلْحَقَ بِالشَّامِ ، أَوْ الْيَمَنِ ، أَوْ بَعْضِ الْبِلَادِ . فَوَاللَّهِ إِنِّي لَفِي ذَلِكَ مِنْ
هَمٍّ إِذْ قَالَ لِي رَجُلٌ : وَيْحَكَ ! إِنَّهُ وَاللَّهِ مَا يَقْتُلُ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ دَخَلَ فِي
دِينِهِ ، وَتَشْهَدُ شَهَادَتَهُ . فَلَمَّا قَالَ لِي ذَلِكَ خَرَجْتُ حَتَّى قَدِمْتُ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ ، فَلَمْ يَرَعْهُ إِلَّا بِي قَائِمًا عَلَى رَأْسِهِ أَتَشْهَدُ بِشَهَادَةِ
الْحَقِّ ، فَلَمَّا رَأَى قَالَ : أَوْحَشَى ؟ قُلْتُ : نَعَمْ ، يَا رَسُولَ اللَّهِ . قَالَ : اقْعُدْ

(١) يَهْدُ : يَسْرِعُ فِي قَطْعِ لُحُومِهِمْ بِسَيْفِهِ . وَيُرْوَى « يَهْدُ » بِالْمُهْمَلَةِ ، وَمَعْنَاهَا
يُرْدِيهِمْ وَيَهْلِكُهُمْ .

(٢) مَا يُلِيقُ : مَا يَبْقَى .

(٣) الْأُورَقُ : مَا لَوْنُهُ إِلَى الْغُبَرَةِ .

(٤) الثُّنَّةُ : مَا بَيْنَ أَسْفَلِ الْبَطْنِ إِلَى الْعَانَةِ .

فخدّثني كيف قتلتَ حمزة ؟ فلما فرغت من حديثي قال : ويحك !
غيبْ عني وجهك فلا أرينك ! فكنتُ أتكبُّ عن رسول الله صلى الله
عليه وسلم حيث كان ، لئلا يراني ، حتى قبضه الله ، صلى الله عليه وسلم .
وقاتل مصعب بن عمير دون رسول الله صلى الله عليه وسلم
حتى قتل ، وكان الذي قتله ابن قمئة الليثي ، وهو يظن أنه رسولُ الله
صلى الله عليه وسلم فرجع إلى قريش فقال : قتلتُ محمداً ! فلما قتل
مصعب أعطى رسول الله صلى الله عليه وسلم اللواءَ علىَّ بن أبي طالب ،
وقاتل علىُّ بن أبي طالب ورجالُه من المسلمين .

ولما اشتدَّ القتال يوم أحد ، جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم
تحت راية الأنصار ، وأرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى على
ابن أبي طالب : أن قدّم الراية . فتقدّم علىٌّ فقال : أنا أبو القُصم^(١) !
فناداه أبو سعد بن أبي طلحة ، وهو صاحب لواء المشركين : أنْ هَلْ
لك يا أبا القُصم في البراز من حاجة ؟ قال : نعم . فبرز بين الصّفين
فاختلفا ضربتين ، فضربه علىٌّ فصرعه ، ثم انصرف عنه ولم يجهزْ
عليه فقال له أصحابه : أفلا أجهزتَ عليه ؟ قال : إنه استقبلني بعورته
فعطفتني عنه الرحم ، وعرفت أن الله عزَّ وجلَّ قد قتله .

(١) القصم : الدواهي ، واحدها قصمى . وإنما قال ذلك رداً على قول أبي

سعد : أنا قاصم من يبارزني !

وقَاتَلَ عَاصِمُ بْنُ ثَابِتٍ بْنُ أَبِي الْأَقْلَحِ ، فَقَتَلَ مَسَافِعَ بْنَ طَلْحَةَ
وَأَخَاهُ الْجُلَّاسَ بْنَ طَلْحَةَ ، كِلَاهُمَا يُشْعِرُهُ سَهْمًا^(١) ، فَيَأْتِي أُمَّهُ سُلَاقَةً ،
فِيَضَعُ رَأْسَهُ فِي حَجَرٍهَا فَيَقُولُ : يَا بَنِيَّ ، مَنْ أَصَابَكَ ؟ فَيَقُولُ : سَمِعْتُ
رَجُلًا حِينَ رَمَانِي وَهُوَ يَقُولُ : خُذْهَا وَأَنَا ابْنُ أَبِي الْأَقْلَحِ . فَذَرْتُ
إِنْ أَمَكَّنَهَا اللَّهُ مِنْ رَأْسِ عَاصِمٍ أَنْ تَشْرَبَ فِيهِ الْخَمْرَ .

والتقى حنظلة بن أبي عامر الغسيل وأبو سفيان ، فلما استعلاه
حنظلة بن أبي عامر رآه شدّاد بن الأسود — وهو ابن شعوب —
قد علا أبا سفيان ، فضربه شدّاد فقتله ، فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم : إِنَّ صَاحِبَكُمْ — يَعْنِي حَنْظَلَةَ — لَتَغْسِلَهُ الْمَلَائِكَةُ . فَسَأَلُوا أَهْلَهُ :
مَا شَأْنُهُ ؟ فَسُئِلَتْ صَاحِبَتُهُ عَنْهُ فَقَالَتْ : خَرَجَ وَهُوَ جُنُبٌ حِينَ سَمِعَ
الْهَاتِفَةَ .

ثم أنزل الله نصره على المسلمين وصدقهم وعده ، فحسّوهم
بالسيوف^(٢) حتى كشفوهم عن العسكر ، وكانت الهزيمة لا شك فيها .

قال الزبير : والله لقد رأيتني أنظر إلى خدام هند بنت عتبة
وصواحبها ، مشمّرات هوارب ، ما دون أخذهن قليل ولا كثير ،
إذ مالت الرماة إلى العسكر حين كشفنا القوم عنه ، وخلّوا ظهورنا

(١) أشعره السهم : أصابه به في جسده فصار له كالشعار .

(٢) حسّوهم : قتلوهم واستأصلوهم .

للخيل ، فَأَتَيْنَا مِنْ خَلْفِنَا ، وَصَرَخَ صَارِخٌ : أَلَا إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ !
فَانْكَفَأْنَا^(١) وَاِنْكَفَأَ عَلَيْنَا الْقَوْمُ بَعْدَ أَنْ أَصْبَنَّا أَصْحَابَ اللِّوَاءِ حَتَّى
مَا يَدْنُو مِنْهُ أَحَدٌ مِنَ الْقَوْمِ ، وَلَمْ يَزَلْ صَرِيحًا حَتَّى أَخَذَتْهُ عَمْرَةٌ بَنَتْ
عَلْقَمَةَ الْحَارِثِيَّةِ فَرَفَعَتْهُ لِقَرِيشٍ ، فَلَاثَوْا بِهِ^(٢) .

وَانْكَشَفَ الْمُسْلِمُونَ فَأَصَابَ فِيهِمُ الْعَدُوُّ ، وَكَانَ يَوْمَ بَلَاءٍ
وَتَمْحِصٍ ، أَكْرَمَ اللَّهُ فِيهِ مِنْ أَكْرَمِ الْمُسْلِمِينَ بِالشَّهَادَةِ حَتَّى خَلَصَ
إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَرُثَ^(٣) بِالْحِجَارَةِ حَتَّى وَقَعَ
لَشِقِّهِ^(٤) ، فَأَصَابَتْ رَبَاعِيَّتُهُ^(٥) ، وَشَجَّ^(٦) فِي وَجْهِهِ . وَكَلِمَتُ^(٧) شَفْتَهُ ،
وَكَانَ الَّذِي أَصَابَهُ عُتْبَةُ بْنُ أَبِي وَقَاصٍ . فَجَعَلَ الدَّمُ يُسِيلُ عَلَى وَجْهِهِ ،
يَمْسَحُ الدَّمَ وَهُوَ يَقُولُ : « كَيْفَ يُفْلَحُ قَوْمٌ خَضَبُوا وَجْهَ نَبِيِّهِمْ وَهُوَ
يَدْعُوهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ ! » ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي ذَلِكَ : (لَيْسَ لَكَ مِنَ
الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ) .

(١) انْكَفَأْنَا : رَجَعْنَا .

(٢) لَاثَوْا بِهِ : اجْتَمَعُوا مِنْ حَوْلِهِ وَالتَفَوْا .

(٣) رُثَ : أَصِيبَ .

(٤) الشَّقُّ : الْجَانِبُ .

(٥) الرَّبَاعِيَّةُ : السِّنُّ الْمُجَاوِرَةُ لِلنَّابِ .

(٦) الشَّجُّ : الْجَرْحُ فِي الْوَجْهِ وَالرَّأْسِ .

(٧) كَلِمَتُ : جَرَحَتْ .

وعن أبي سعيد الخدري، أن عتبة بن أبي وقاص رمى رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ فكسر رباعيته اليمنى السفلى، وجرح شفته السفلى، وأن عبد الله بن شهاب الزهري شجّه في جبهته، وأن ابن قمئة جرح وجنته^(١)، فدخلت حلقتان من حلق المغفر في وجنته، ووقع رسول الله صلى الله عليه وسلم في حفرة من الحفر التي عمل أبو عامر ليقع فيها المسلمون، وهم لا يعلمون، فأخذ عليّ أبي طالب بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورفع طلحة بن عبد الله حتى استوى قائماً، ومصّ مالك بن سنان، أبو أبي سعيد الخدري، الدم عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم ازدرده، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مَنْ مَسَّ دَمِي دَمَهُ لَمْ تُصَبِّهِ النَّارُ.

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم، حين غشيه القوم: مَنْ رَجُلٌ يَشْتَرِي لَنَا نَفْسَهُ؟ فقام زياد بن السّكن في نفر خمسة من الأنصار، فقاتلوا دون رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً ثم رجلاً، يُقتلون دونه، حتى كان آخرهم زياد، أو عمارة بن يزيد بن السّكن، فقاتل حتى أثبتته الجراحة، ثم فاءت فئة^(٢) من المسلمين، فأجهضوهم عنه^(٣)، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أدنوه مني. فأدنوه منه، فوسّده قدمه فمات وخذه على قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

(١) الوجنة: أعلى الخد.

(٢) الفئة: الجماعة.

(٣) أجهضوهم: أزالوهم وغلبوهم.

وترس دون رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو دجاجة بنفسه ،
يقع النبل في ظهره وهو منحن عليه ، حتى كثر فيه النبل . ورمى
سعد بن أبي وقاص دون رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال سعد :
فلقد رأيته يناولني النبل ، وهو يقول : ارم ، فذاك أبي وأمي ! حتى
إنه ليناولني السهم ماله نصل ، فيقول : ارم به .

وكان أول من عرف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد الهزيمة ،
وقول الناس : قُتل رسول الله صلى الله عليه وسلم : كعب بن مالك ،
قال : عرفت عينيه تزهزان^(١) من تحت المغفر ، فناديت بأعلى صوتي :
يا معشر المسلمين ، أبشروا ، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم !
فأشار إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن أنصت .

فلما عرف المسلمون رسول الله صلى الله عليه وسلم نهضوا به ،
ونهض معهم نحو الشعب ، معه أبو بكر الصديق ، وعمر بن الخطاب
وعلي بن أبي طالب ، وطلحة بن عبيد الله . والزبير بن العوام ،
رضوان الله عليهم . والحارث بن الصمة ، ورهط من المسلمين .

فلما أسند رسول الله صلى الله عليه وسلم في الشعب أدركه أبي بن
خلف ، وهو يقول : أي محمد ، لا نجوت إن نجوت ! فقال القوم :
يا رسول الله ، أيعطى عليه رجل منا ؟ فقال رسول الله صلى الله

(١) تزهزان : تلعبان .

عليه وسلم : دَعَوْه . فَلَمَّا دَنَا تَنَاوَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
الْحَرْبَةَ مِنَ الْحَارِثِ بْنِ الصَّمَّةِ . فَلَمَّا تَنَاوَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
الْحَرْبَةَ مِنَ الْحَارِثِ بْنِ الصَّمَّةِ ، يَقُولُ بَعْضُ الْقَوْمِ فِيمَا ذُكِرَ لِي : فَلَمَّا
أَخَذَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْهُ انْتَفَضَ بِهَا انْتِفَاضَةً تَطَايَرْنَا
عَنْهُ تَطَايِيرُ الشَّعْرَاءِ^(١) عَنْ ظَهْرِ الْبَعِيرِ إِذَا انْتَفَضَ بِهَا . ثُمَّ اسْتَقْبَلَهُ فَطَعَنَهُ
فِي عُنُقِهِ طَعْنَةً تَدَادُ^(٢) مِنْهَا عَنْ فَرْسِهِ مِرَارًا .

وكان أبي بن خلف يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة
فيقول : يا محمد ، إن عندى العوذ^(٣) ، فرساً أعليفه كل يوم فرقاً^(٤)
من ذرة ، أقتلك عليه . فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل أنا
أقتلك إن شاء الله . فلماً رجع إلى قريش وقد خدشه في عنقه خدشاً
غير كبير ، فاحتقن الدم ، قال : قتلنى والله محمد ! قالوا له : ذهبَ والله
فؤادك ! والله إن بك من بأس . قال : إنه قد كان قال لى بمكة : أنا
أقتلك ، فوالله لو بصق على لقتلنى

فمات عدو الله بسرف^(٥) وهم قافلون به إلى مكة .

(١) الشعراء : ذباب له لدغ .

(٢) تدادأ : تدحرج .

(٣) العوذ : اسم فرسه .

(٤) الفرق ، بالفتح والتحريك : مكيال يسع اثني عشر رطلا .

(٥) سرف ، بفتح فسكسر : موضع على ستة أميال من مكة .

فلما انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى فم الشعب خرج
على بن أبي طالب حتى ملأ درقته^(١) ماءً من المهراس^(٢) ، فجاء به إلى
رسول الله صلى الله عليه وسلم ليشرب منه ، فوجد له ريحاً ، فعافه
فلم يشرب منه . وغسلَ عن وجهه الدم ، وصبَّ على رأسه وهو
يقول : اشتدَّ غضب الله على من دُمِّي وجهَ نبيِّه .

ونَهَض رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صخرة من الجبل
ليعلوها ، وقد كان بدن^(٣) رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وظاهرَ
بين درعين ، فلما ذهب لينهض صلى الله عليه وسلم لم يستطع ، فجلس
تحت طليحة بن عبيد الله فنَهَض به حتى استوى عليها ، فقال رسول الله
صلى الله عليه وسلم يومئذ : أَوْجَبَ طليحة^(٤) ! حين صنع برسول الله
صلى الله عليه وسلم ما صنع .

وكان ممن قُتِلَ يومَ أحدٍ مُخَيَّرِيق ، وكان أحد بني ثعلبة بن
الفِطْيُون ، لما كان يوم أحد قال : يا معشرَ يهود ، والله لقد علمتم إن
نصرَ محمدٍ عليكم لحق . قالوا : إن اليوم يوم السبت . قال : لا سبتَ لكم

(١) الدرقة : ترس من جلود .

(٢) المهراس : ماء بأحد ، أو حجر ينقر ويجعل إلى جانب البئر ويودع
فيه الماء .

(٣) بدن : أسن وضعف .

(٤) أى وجبت له الجنة .

فأخذ سيفه وعدته ، وقال : إن أُصبتُ فمالي لمحمد يصنع فيه ما شاء .
ثم غدا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقاتل معه حتى قُتل ،
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مخيريق خير يهود .

• وكان أبو هريرة يقول : حدثتوني عن رجلٍ دخل الجنة لم يصل قطُّ ؟ فإذا لم يعرفه الناس سألوه : من هو ؟ فيقول : اصيرم بنى عبد الأشهل ، عمرو بن ثابت بن وقش .

قال الحصين بن عبد الرحمن : فقلت لمحمود بن أسد : كيف كان شأنُ الأصيرم ؟ قال : كان يأبى الإسلام على قومه ، فلما كان يوم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أحدٍ بدا له في الإسلام فأسلم ، ثم أخذ سيفه فعدا حتى دخل في عرض الناس ، فقاتل حتى أثبتته الجراحة^(١) . فبينما رجالٌ من بنى عبد الأشهل يلتمسون قتلاهم في المعركة إذا هم به ، فقالوا : والله إنَّ هذا للأصيرم ، ما جاء به ؟ لقد تركناه وإنه لمنكرٌ لهذا الحديث . فسألوه : ما جاء به ؟ فقالوا : ما جاء بك يا عمرو ؟ أحذب على قومك أم رغبةٌ في الإسلام ؟ قال : بل رغبة في الإسلام ، آمنتُ بالله وبرسوله وأسلمت ، ثم أخذتُ سيفي فعدوت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قاتلتُ حتى أصابني ما أصابني . ثم لم يلبث أن مات في أيديهم ، فذكروه لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إنه من أهل الجنة .

(١) أثبتته : أثقلته فلم يتحرك .

وكان عمرو بن الجموح رجلاً أعرج شديد العرج ، وكان له بنون
أربعة مثل الأسد ، يشهدون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم
المشاهد ، فلما كان يوم أحد أرادوا حبسه وقالوا له : إن الله عزّ
وجلّ قد عذرك . فأثنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : إن
بنى يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه والخروج معك فيه ، فوالله
إنى لأرجو أن أطأ بعرجتى هذه فى الجنة . فقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم : أما أنت فقد عذرك الله فلا جهاد عليك . وقال لبنيه :
ما عليكم ألا تمنعوه ، لعل الله أن يرزقه الشهادة . فخرج معه فقتل
معه يوم أحد .

ووقعت هند بنت عتبة والنسوة اللاتى معها ، يمثّلن بالقتلى من
أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يحدّ عن الأذان والآنف ،
حتى اتّخذت هند من آذان الرجال وآنفهم خدماً^(١) وقلائد ،
وأعطت خدمها وقلائدها وقرطتها وحشياً غلام جبير بن مطعم ،
وبقرت عن كبد حمزة ، فلا كثرها^(٢) فلم تستطع أن تسيغها ،
فلفظتها^(٣) .

(١) الخدم : جمع خدمة ، وهى الخلخال .

(٢) لا كثرها : مضغتها .

(٣) لفظتها : طرحتها .

وقد كان الحليس بن زبَّان ، وهو يومئذٍ سيِّدَ الأحابيش ، قد مرَّ
 بأبي سفيان ، وهو يضرب في شِدْقِ حمزة بن عبد المطلب بزُجِّ الرمح
 ويقول : ذُقْ عُقُقْ^(١) ! فقال الحليس : يا بني كنانة ، هذا سيِّدُ قريش
 يصنع بآبِنِ عمِّه ما ترون لهما^(٢) ! فقال : ويحك ، اكتمها عني فإنها
 كانت زَلَّةً .

ثم إنَّ أبا سفيان بن حربٍ حين أراد الانصرافَ أشرفَ على
 الجبل ثم صرخ بأعلى صوته فقال : أنعمتَ فعَّال^(٣) ، إنَّ الحرب
 سجال^(٤) يومَ يوم ، أعلِ هُبِل^(٥) ! أي أظهرْ دينك . فقال رسول الله
 صلى الله عليه وسلم : قم يا عمر فأجبه فقل : الله أعلى وأجل !
 لا سواء^(٦) ، قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار . فلما أجابَ عمرَ أبا سفيان
 قال له أبو سفيان : هلمَّ إليَّ يا عمر . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) يا عقق ، أي يا عاق .

(٢) أي ميتا ليست به قدرة على الانتصار .

(٣) أنعمت : بالغت ، بفتح التاء خطاب لنفسه ، وبكسرهما خطاب للحرب
 أو الواقعة . عال ، أي ارتفع ، وعالي : ارتفعي . أو فعال : اسم للفعلة ، كما قالوا
 جَارَ للفجرة .

(٤) أي مداولة ، مرة لهذا الفريق ومرة لذاك .

(٥) هبل : اسم صنم .

(٦) أي لا نحن سواء ، لسنا مستويين .

لعمر : ائته فانظر ما شأنه ؟ فجاءه فقال له أبو سفيان : أنشدك الله
يا عمر أَقْتَلْنَا مُحَمَّدًا ؟ قال عمر : اللهم لا ، وإنه ليسمع كلامك الآن .
قال : أنت أصدقُ عندي من ابن قميّة وأبرّ ! لقول ابن قميّة لهم ^(١) :
إني قد قتلت محمدا !

ثم نادى أبو سفيان : إنه قد كان في قتلاكم مثل ^(٢) ، والله ما رضيتُ
وما سخطت ، وما نهيتُ وما أمرت !

ولما انصرف أبو سفيان ومن معه نادى : إن موعدكم بدرٌ للعام
القابل . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجلٍ من أصحابه : قل :
نعم ، هو بيننا وبينكم موعد .

ثم بعث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على بن أبي طالب فقال :
اخرجْ في آثار القوم فانظر ماذا يصنعون وما يريدون ، فإن كانوا قد
جنبوا الخيل ^(٣) وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة ؛ وإن ركبوا الخيل
وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة . والذي نفسي بيده لئن أرادوها
لأسيرنَّ إليهم فيها ثم لأناجزنَّهم . قال على : فخرجتُ في آثارهم أنظر
ماذا يصنعون . فجنبوا الخيل ، وامتطوا الإبل ، ووجهوا إلى مكة .

(١) انظر ما سبق في ص ٢٣٥ .

(٢) المثل : التمثيل بالقتيل .

(٣) جنبوا الخيل : قادوها إلى جنوبهم .

وفرغ الناس لقتلاهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مَنْ
رجُلٌ ينظرُ لي ما فعلَ سعد بن الربيع ؟ أفي الأحياء هو أم في الأموات ؟
فقال رجل من الأنصار ^(١) : أنا أنظر لك يا رسول الله ما فعل سعد .
فنظر فوجده جريحاً في القتلى وبه رمق . فقلت له : إن رسول الله
صلى الله عليه وسلم أمرني أن أنظر ، أفي الأحياء أنت أم الأموات ؟
قال : أنا في الأموات ، فأبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم عني السلام ،
وقل له : إن سعد بن الربيع يقول لك : جزاك الله عنا خير ما جزى
نبياً عن أمته ، وأبلغ قومك عني السلام وقل لهم : إن سعد بن الربيع
يقول لكم : إنه لا عذرَ لكم عند الله إن خُليص إلى نبيكم صلى الله
عليه وسلم ومنكم عينٌ تطرف ^(٢) . قال : ثم لم أبرح حتى مات ، فجئت
رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته خبره .

وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيما بلغني ، يلتمس حمزة
ابن عبد المطلب ، فوجده يبطن الوادي قد بُقِرَ بطنه عن كبده
ومثَّل به ، فجُدِعَ أنفه وأذناه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم
حين رأى ما رأى : لولا أن تحزنَ صفيّةُ ويكونَ سنةً من بعدى لتركتهُ
حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير ، ولئن أظهرني الله على
قريشٍ في موطنٍ من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلاً منهم ! فلما رأى

(١) هو محمد بن مسلمة الأنصاري .

(٢) تطرف : تضرب بجفنها الأعلى على الأسفل .

المسلمون حُزن رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيظه على من فعل
بعمه ما فعل قالوا: والله لئن أظفرنا الله بهم يوماً من الدهر لنمثلن بهم
مثلة لم يمثّلها أحد من العرب .

عن ابن عباس أن الله عز وجل أنزل في ذلك من قول رسول الله
صلى الله عليه وسلم وقول أصحابه : (وإن عاقبتُم فعاقبوا بمثل
ما عوقبتُم به ، ولئن صبرتُم لهو خيرٌ للصّابرين . واصبر وما صبرك
إلا بالله ، ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيقٍ مما يمكرون) . فعفا
رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونهى عن المثلة .

وأمر رسول الله بحمزة فسجى^(١) يردة ، ثم صلى عليه فكبر
سبع تكبيرات ، ثم أتى بالقتلى فيوضعون إلى حمزة ، فصلى عليهم
وعليه معهم ، حتى صلى عليه اثنتين وسبعين صلاة .

قال ابن اسحاق : وقد أقبلت — فيما بلغني — صفية بنت عبد المطلب
لتنظر إليه ، وكان أخاها لأبيها وأمها ، فقال رسول الله صلى الله عليه
وسلم لابنها الزبير بن العوام ، القها فأرجعها لا ترى ما بأخيها . فقال لها :
يا أمه ، إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرُك أن ترجعي . قالت :
ولم ؟ وقد بلغني أن مثل بأخي ، وذلك في الله ، فما أَرْضانا بما كان من
ذلك ! لأحتسبن ولاصبرن إن شاء الله ! فلما جاء الزبير إلى

(١) سجى : غطى .

رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك قال : خلَّ سبيلها . فأتته
فنظرت إليه واسترجعت^(١) واستغفرت له . ثم أمر به رسول الله
صلى الله عليه وسلم فدفن .

وكان قد احتَمَلَ ناسٌ من المسلمين قتلاهم إلى المدينة ، فدفنهم
بها ، ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك وقال : ادفنهم
حيث صرعوا .

عن عبد الله بن ثعلبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما
أشرفَ على القتلى يومَ أحدٍ قال : أنا شهيدٌ على هؤلاء أنه ما من
جريحٍ يُجرح في الله إلا ويبعثه الله يومَ القيامة يدعى جرحه ، اللون
لون دم ، والريح ريح مسك ! انظروا أكثر هؤلاء . جمعاً للقرآن
فاجعلوه أمام أصحابه في القبر . وكانوا يدفعون الاثنين والثلاثة في
القبر الواحد .

ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعاً إلى المدينة ،
فلقيته حمّة بنت جحش ، فلما لقيت الناس نعى إليها أخوها عبد الله
ابن جحش ، فاسترجعت واستغفرت له . ثم نعى لها خالها حمزة بن
عبد المطلب ، فاسترجعت واستغفرت له ، ثم نعى لها زوجها مصعب
بن عمير ، فصاحت وولولت ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(١) استرجعت : قالت إنا لله وإنا إليه راجعون .

إِنَّ زَوْجَ الْمَرْأَةِ مِنْهَا لَيْسَ كَانَ ! لَمَّا رَأَى مِنْ تَثْبُتِهَا عِنْدَ أَخِيهَا وَخَالِهَا ،
وَصِيَا حَهَا عَلَى زَوْجِهَا .

وَمَرَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِدَارٍ مِنْ دُورِ الْأَنْصَارِ
مِنْ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ وَظَفَرَ ، فَسَمِعَ الْبُكَاءَ وَالنَّوْائِحَ عَلَى قَتْلِهِمْ ،
فَذَرَفَتْ عَيْنَا رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَبَكَى ، ثُمَّ قَالَ : « لَكِنَّ
حِمَزَةَ لَا بَوَاكِيَ لَهُ ! » . فَلَمَّا رَجَعَ سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ ، وَأَسِيدُ بْنُ حُضَيْرٍ إِلَى
دَارِ بَنِي عَبْدِ الْأَشْهَلِ ، أَمَرَا نِسَاءَهُمْ أَنْ يَتَحَزَّ مِنْ ثُمَّ يَذْهَبْنَ فَيُبْكِينَ عَلَى
عَمِّ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَلَمَّا سَمِعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بُكَاءَهُنَّ عَلَى حِمَزَةَ خَرَجَ عَلَيْهِنَّ وَهَنَّ عَلَى بَابِ مَسْجِدِهِ
يُبْكِينَ عَلَيْهِ ، فَقَالَ : ارْجِعْنَ يَرْحَمَكُنَّ اللَّهُ ، فَقَدْ آسَيْتُنَّ ^(١) بِأَنْفُسِكُنَّ .

وَمَرَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِامْرَأَةٍ مِنْ بَنِي دِينَارٍ وَقَدْ
أَصِيبَ زَوْجُهَا وَأَخُوهَا وَأَبُوهَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
بِأَحَدٍ ، فَلَمَّا نَعَوْا لَهَا قَالَتْ : فَمَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
قَالُوا : خَيْرٌ يَا أُمَّ فُلَانٍ ، هُوَ بِحَمْدِ اللَّهِ كَمَا تَحْبِبِينَ . قَالَتْ : أُرَوْنِي حَتَّى
أَنْظُرَ إِلَيْهِ . فَأَشِيرَ لَهَا إِلَيْهِ ، حَتَّى إِذَا رَأَتْهُ قَالَتْ : كُلُّ مُصِيبَةٍ بَعْدَكَ
جَلَلٌ . تَرِيدُ صَغِيرَةً .

فَلَمَّا انْتَهَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى أَهْلِهِ نَاولَ سَيْفَهُ

(١) المُوَاسَاة : التَّعْزِيَةُ وَالْمُعَاوَنَةُ .

ابنته فاطمة فقال : اغسلي عن هذا دمه يابنية ، فوالله لقد صدقتي اليوم
وناولها علي بن أبي طالب سيفه فقال : وهذا أيضاً فاغسلي عنه دمه ،
فوالله لقد صدقتي اليوم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
لئن كنت صدقت القتال لقد صدق معك سهل بن حنيف
وأبو دجانة .

وكان يوم أحد يوم السبت ، للنصف من شوال .

فلما كان الغد من يوم الأحد لست عشرة ليلة مضت من شوال ،
أذن مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الناس بطلب العدو ،
فأذن مؤذنه أن لا يخرج من معنا أحد إلا أحد حضر يومنا بالأمس .
فكلمه جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام فقال : يا رسول الله ، إن
أبي كان خلفني على أخوات لي سبع ، وقال : يا بني ، إنه لا ينبغي لي
ولا لك أن تترك هؤلاء النسوة لا رجل فيهن ، ولست بالذي أوترك
بالجهاد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على نفسي ، فتخلف على
أخواتك . فتخلفت عليهن . فأذن له رسول الله صلى الله عليه وسلم
فخرج معه . وإمّا خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مُرهَباً للعدو ،
وليلغهم أنه خرج في طلبهم ليظنوا به قوة ، وأن الذي أصابهم لم
يوهنهم عن عدوهم .

فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى انتهى إلى حمراء الأسد

— وهى من المدينة على ثمانية أميال — واستعمل على المدينة ابن أم مكتوم، فأقام بها الاثنين والثلاثاء والأربعاء، ثم رجع إلى المدينة. وقد مرَّ به معبد بن أبي معبد الخزاعى، وكانت خزاعة مُسلمهم ومُشركهم عبيَّة نصح^(١) لرسول الله صلى الله عليه وسلم بتهامة، صَفَّقْتُهُمْ معه^(٢)، لا يُخفون عنه شيئاً كان بها، ومعبدٌ يومئذٍ مشرك، فقال: يا محمد، أما والله لقد عزَّ علينا ما أصابك، ولوددنا أن الله عافاك فيهم. ثم خرج ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم بحمراء الأسد، حتى لقي أباسفيان بن حرب ومن معه بالروحاء^(٣)، وقد أجمعوا الرجعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وقالوا: أصبنا حدَّ أصحابه وأشرافهم وقادتهم، ثم نرجع قبل أن نستأصلهم! لنُكرنَّ على بقيتهم فلنفرغنَّ منهم. فلما رأى أبو سفيان معبداً قال: ما وراءك يا معبد؟ قال: محمد قد خرج فى أصحابه يطلبكم فى جمعٍ لم أر مثله قط، يتحرَّقون عليكم تحرقاً^(٤)، قد اجتمع معه من كان تخلف عنه فى يومكم، وندبوا على ما صنعوا، فيهم من الحنق^(٥) عليكم شئٌ لم أر مثله قط! قال: ويحك، ما تقول؟ قال: والله ما أرى أن ترتحل حتى ترى نواصى الخيل.

(١) عبيَّة نصحه: موضع سره.

(٢) الصفقة: الاجتماع.

(٣) الروحاء: قرية لمزينة على ليلتين من المدينة.

(٤) التحرق: الغيظ.

(٥) الحنق: شدة الغيظ.

قال : فوالله لقد أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل بقيتهم . قال : فإني أنهاك عن ذلك . والله لقد حملني ما رأييت على أن قلت فيهم أبياتا من شعر . قال : وما قلت ؟ قال : قلت :

كادت تُهدُّ من الأصوات راحلتى إذ سالت الأرض بالجرد الأبايل^(١)
تردى بأسدٍ كرامٍ لا تنابلةٍ عند اللقاء ولا ميلٍ معازيلٍ^(٢)
فظلَّتْ عدوًّا أظنُّ الأرض مائلةً لما سموا برئيس غير مخذولٍ^(٣)
فقلت ويل ابن حربٍ من لقائكم إذا تغطمطت البطحاء بالجيل^(٤)
إني نذيرٌ لأهل البسل ضاحيةً لكلِّ ذى إربةٍ منهم ومعقولٍ^(٥)
من جيش أحمد لا وخشٍ قنابله وليس يوصف ما أنذرت بالقيل^(٦)
فثنى ذلك أبا سفيان ومن معه .

(١) تهد : تسقط لهول ما رأت . والجرد : جمع أجرد ، وهو الفرس القصير الشعر . الأبايل : الجماعات .

(٢) تردى : تسرع . التنابلة : القصار . الأميل : الذى لا يثبت على السرج . المعزال : الذى لا سلاح معه .

(٣) العدو : مشى سريع . سموا : ارتفعوا إلينا .

(٤) تغطمطت : اهتزت . الجيل : الصنف من الناس .

(٥) البسل : الحرام . والمراد قريش لأنهم أهل مكة ، ومكة حرام . ضاحية ، أى علانية . الإربة : العقل ، وكذلك المعقول .

(٦) الوخش : رذالة الناس والاختساء منهم . والقنابل : جمع قنبلة وقنبيل ، وهم الطائفة من الناس ومن الخيل .

ومرَّ به ركبٌ من عبد القيس فقال : أين تريدون ؟ قالوا : نريد المدينة . قال : ولم ؟ قالوا : نريد الميرة ^(١) . قال : فهل أنتم مُبلغون عني محمداً رسالة أرسلكم بها إليه ، وأحمل لكم هذه غداً زيباً بعكاظ إذا وافيتموها ؟ قالوا : نعم . قال : فإذا وافيتموه فأخبروه أنا قد أجمعنا السير إليه وإلى أصحابه لنستأصل بقيتهم . فمر الركب برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بحمراء الأسد . فأخبروه بالذي قال أبو سفيان ، فقال : حسبنا الله ونعم الوكيل .

وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم في جهة ذلك قبل رجوعه إلى المدينة معاوية بن المغيرة بن أبي العاص ، وأبا عزة الجمحي ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم أسرّه بيد رثم من عليه ، فقال : يا رسول الله ، أقلني . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : والله لا تمسح عارضيك بمكة بعدها وتقول : خدعتُ محمداً مرتين ^(٢) ، اضرب عنقه يا زبير ! فضرب عنقه .

فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، وكان عبد الله ابن أبي بن سلول له مقام يقومه كل جمعة لا ينكر ، شرفاً له في نفسه وفي قومه ، وكان فيهم شريفاً ، إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) الميرة : الطعام يجلب من بلد إلى آخر .

(٢) وقيل : قال له : إن المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ! اضرب عنقه يا عاصم بن ثابت . فضرب عنقه .

يوم الجمعة وهو يخطب الناس ، قام فقال : «أيها الناس هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهركم ، أكرمكم الله وأعزكم به ، فانصروه وعزّروه ، واسمعوا له واطيعوا .» ثم يجلس . حتى إذا صنع يوم أحدٍ ما صنع ورجع بالناس قام يفعل ذلك كما كان يفعله ، فأخذ المسلمون بثيابه من نواحيه وقالوا : اجلس أيّ عدوّ الله ، لست لذلك بأهل وقد صنعت ما صنعت ! فخرج يتخطّى رقاب الناس وهو يقول : والله لكأنا قلتُ بُجراً^(٢) أن قمتُ أشدّ أمره ! فلقى رجلٌ من الأنصار بباب المسجد فقال : مالك ويلك ! قال : قمتُ أشدّ أمره فوثب على رجالٍ من أصحابه يجذبونى ويعنفونى ، لكأنا قلتُ بُجراً أن قمتُ أشدّ أمره . قال : ويلك ، ارجع يستغفر لك رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : والله ما أبتغي أن يستغفر لى .

قال ابن إسحاق :

كان يوم أحد يوم بلاء ومصيبة وتمحيص ، اختبر الله به المؤمنين ومحن به المنافقين ، ممن كان يُظهر الإيمان بلسانه ، وهو مستخفٍ بالكفر فى قلبه ، ويوماً أكرم الله فيه من أراد كرامته بالشهادة من أهل ولايته .

(٢) التعزيز : النصر .

(١) البجر : الشر والامر العظيم .

يوم الرجيع

في سنة ثلاث

قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد أحدٍ رهطٌ من
عُضَل والقارة^(١) فقالوا: يا رسول الله، إن فينا إسلاماً، فابعث معنا
نقرأ من أصحابك يفقهوننا في الدين، ويقرئونا القرآن، ويعلموننا
شرائع الإسلام. فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم معهم نقرأ من
أصحابه، وهم مرثد بن أبي مرثد، وخالد بن البكير، وعاصم بن ثابت،
وخبيب بن عدي، وزيد بن الدثنة، وعبد الله بن طارق. وأمر
رسول الله صلى الله عليه وسلم على القوم مرثد بن أبي مرثد، فخرج
مع القوم حتى إذا كانوا على الرجيع: ماء لذيذ بناحية الحجاز على
صدور الهدأة^(٢)، غدروا بهم، فاستصرخوا^(٣) عليهم هذياً، فلم يرع
القوم وهم في رحالهم إلا الرجال بأيديهم السيوف، قد غشواهم؛
فأخذوا أسيافهم ليقاتلوهم؛ فقالوا لهم: إنا والله ما نريد قتلكم،
ولكننا نريد أن نصيب بكم شيئاً من أهل مكة، ولكم عهد الله وميثاقه
ألا نقتلكم.

(١) قبيلتان من الهون بن خزيمه بن مدركة.

(٢) الهدأة: موضع بين عسفان ومكة.

(٣) استصرخوا: استنصروا.

فأما مرثد بن أبي مرثد وخالد بن البكير وعاصم بن ثابت ، فقالوا
والله لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً أبداً . فقال عاصم بن ثابت :

مَا عَلَّتِي وَأَنَا جَلْدُ نَابِلٍ^(١) وَالْقَوْسُ فِيهَا وَتَرُّ عُنَابِلٍ^(٢)

تَزُلُّ عَنْ صَفْحَتِهَا الْمَعَابِلُ^(٣) الْمَوْتُ حَقٌّ وَالْحَيَاةُ بَاطِلٌ

وَكُلُّ مَا حَمَّ إِلَهِ نَازِلٌ^(٤) بِالْمَرءِ وَالْمَرءُ إِلَيْهِ آئِلٌ^(٥)

ثم قاتل القوم حتى قُتِلَ وقتل صاحبه .

فلما قُتِلَ عاصم أرادت هذيلٌ أخذَ رأسه . ليبيعه من سُلافة بنت
سعد بن شهيد ، وكانت قد نذرت حين أصاب ابنها يوم أحد : لئن
قدَّرتُ على رأس عاصم لتُشربنَّ في قِحْفِهِ الخمر ، فمنعته الدَّبرُ^(٦)
فلما حالت بينه وبينهم الدَّبرُ قالوا : دَعَوْهُ حَتَّى يُمْسَى فَنَذَهَبَ عَنْهُ فَنَأْخُذَهُ .
فبعث الله الوادى فاحتملَ عاصماً فذهبَ به .

وقد كان عاصمٌ قد أعطى الله عهداً ألاَّ يمسَّه مشرك ولا يمسَّ مشركاً
أبداً ، تنجُّساً . فكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول حين بلغه أنَّ

(١) الجلد : الشديد . النابل : صاحب النبل .

(٢) العنابل : الغليظ الشديد .

(٣) المعابل : جمع معبلة ، وهو نصل عريض طويل .

(٤) حمه الإله : قدره .

(٥) آئل : صائر .

(٦) الدبر : الزنابير والنحل .

الدَّبرُ منَعته : يحفظ الله العبدَ المؤمنَ ، كان عاصمَ نذرِ ألاَّ يمسَّه مشركٌ ولا يمسَّ مشركاً أبداً في حياته ، فمنعه الله بعد وفاته ، كما امتنع منه في حياته .

وأما زيد بن الدثنة وخبيب بن عدى وعبد الله بن طارق ، فلأنوا ورقوا ورغبوا في الحياة ، فأعطوا بأيديهم فأسروهم ، ثم خرجوا بهم إلى مكة ، ليبيعوهم بها ، حتَّى إذا كانوا بالظَّهرانِ انتزع عبد الله بن طارق يده من القِران^(١) ، ثم أخذ سيفه ، واستأخر عنه القومُ فرَموه بالحجارة ، فقبره رحمه الله بالظَّهرانِ .

وأما خبيب بن عدى وزيد بن الدثنة فقد مَوا بهما مكة ، فباعوهما من قُريش بأسيرين من هذيل كانا بمكة ، فابتاعَ خبيبا حُجير بن أبي إهاب لعُقبه بن الحارث بن عامر ، ليقتله بأبيه .

وأما زيد بن الدثنة فابتاعه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه أمية بن خلف ، وبعث به صفوان بن أمية مع مولى له ، يقال له نسطاس ، إلى التنعيم^(٢) ، وأخرجوه من الحرم ليقتلوه . واجتمع رهطٌ من قريش ، فيهم أبو سفيان بن حرب ، فقال له أبو سفيان حين قدّم ليقتل : أنشدك الله يا زيد ، أتحبُّ أنَّ محمداً عندنا الآن في مكانك نضرب عنقه

(١) القِران : حبل يربط به الأسير .

(٢) التنعيم : موضع بين مكة وسرف ، على فرسخين من مكة .

وَأَنْتَ فِي أَهْلِكَ ؟ قَالَ : وَاللَّهِ مَا أَحَبُّ أَنْ مُحَمَّدًا الْآنَ فِي مَكَانِهِ الَّذِي
هُوَ فِيهِ تَصِيبُهُ شَوْكَةٌ تُؤْذِيهِ وَأَنْتَى جَالِسٌ فِي أَهْلِي !

يَقُولُ أَبُو سَفْيَانَ : مَا رَأَيْتُ مِنَ النَّاسِ أَحَدًا يُحِبُّ أَحَدًا كَحَبِّ
أَصْحَابِ مُحَمَّدٍ مُحَمَّدًا !

ثُمَّ قَتَلَهُ نِسْطَاسٌ ، يَرْحَمُهُ اللَّهُ .

عَنْ مَأْوِيَّةَ مَوْلَاةِ حُجَيْرِ بْنِ أَبِي إِهَابٍ — وَكَانَتْ قَدْ أُسْلِمَتْ —
قَالَتْ : كَانَ خُبَيْبٌ عِنْدِي ، حُبِسَ فِي بَيْتِي ، فَلَقَدْ أَطْلَعْتُ عَلَيْهِ يَوْمًا وَإِنْ
فِي يَدِهِ لِقِطْفًا مِنْ عِنَبٍ مِثْلَ رَأْسِ الرَّجُلِ ، يَأْكُلُ مِنْهُ ، وَمَا أَعْلَمُ فِي
أَرْضِ اللَّهِ عِنَبًا يُوْكَلُ ، قَالَ لِي حِينَ حَضَرَهُ الْقَتْلُ : ابْعَثِي إِلَيَّ بِحَدِيدَةٍ
أَتُطَهِّرُ بِهَا لِلْقَتْلِ . فَأَعْطَيْتُ غَلَامًا مِنَ الْحَيِّ الْمَوْسَى فَقُلْتُ : ادْخُلِي بِهَا
عَلَى هَذَا الرَّجُلِ الْبَيْتِ . قَالَتْ : فَوَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ وَلَّى الْغَلَامُ بِهَا إِلَيْهِ ،
فَقُلْتُ : مَاذَا صَنَعْتُ ! أَصَابَ وَاللَّهِ الرَّجُلُ ثَأْرَهُ بِقَتْلِ هَذَا الْغَلَامِ ،
فَيَكُونُ رَجُلًا بِرَجُلٍ ! فَلَمَّا نَاولَهُ الْحَدِيدَةَ أَخَذَهَا مِنْ يَدِهِ ثُمَّ قَالَ :
لَعَمْرُكَ مَا خَافَتْ أُمُّكَ غَدْرِي حِينَ بَعَثْتُكَ بِهَذِهِ الْحَدِيدَةِ إِلَيَّ ؟ !
ثُمَّ خَلَّى سَبِيلَهُ .

ثُمَّ خَرَجُوا بِخُبَيْبٍ حَتَّى إِذَا جَاءُوا بِهِ إِلَى التَّنْعِيمِ لِيُصَلِّبُوهُ قَالَ لَهُمْ :
إِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تَدْعُونِي حَتَّى أُرْكَعَ رَكَعَتَيْنِ فَافْعَلُوا . قَالُوا : دُونَكَ فَارْكَعْ .
فَرَكَعَ رَكَعَتَيْنِ أَتَمَّهُمَا وَأَحْسَنَهُمَا ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى الْقَوْمِ فَقَالَ : أَمَا وَاللَّهِ

لولا أن تظنوا أني إنما طوّلت جزعاً من القتل لاستكثرتُ من الصلاة !
فكان خبيب بن عديّ أوّل من سنّ هاتين الركعتين عند القتل للمسلمين .
ثم رفعوه على خشبة ، فلما أوثقوه قال : اللهم إنا قد بلغنا رسالة
رسولك فبلغه الغداة ما يُصنع بنا !! ثم قال : اللهم أحصهم عدداً ،
واقتلهم بدداً^(١) ، ولا تغادر منهم أحداً !! ثم قتلوه رحمه الله .

فكان معاوية بن أبي سفيان يقول : حضرته يومئذ فيمن حضره
مع أبي سفيان ، فلقد رأيته يلقيني إلى الأرض فرقاً^(٢) من دعوة خبيب .
وكانوا يقولون : إنَّ الرجل إذا دُعِيَ عليه فاضطجعَ لجنبه زالت عنه .

وكان عمر بن الخطاب رضى الله عنه استعملَ سعيد بن عامر بن
حذيم الجحفي على بعض الشام ، فكانت تصيبه غشية وهو بين ظهرَي
القوم ، فذكر ذلك لعمر بن الخطاب ، وقيل إن الرجل مصاب ، فسأله
عمر في قدمه قدِمها عليه فقال : يا سعيد ، ما هذا الذي يصيبك ؟ فقال :
والله يا أمير المؤمنين ما بي من بأس ، ولكنني كنت فيمن حضر خبيب
ابن عديّ حين قُتِلَ وسمعتُ دعوته ، فوالله ما خطرتُ على قلبي وأنا
في مجلسٍ قطُّ إلا غشي عليّ ! فزادته عند عمر خيراً .

قال ابن عباس : لما أصيب السريّة التي كان فيها مرثد وعاصم

(١) بدداً : متفرقين .

(٢) الفرق ، بالتحريك : الخوف والفرع .

بالرجيع ، قال رجاله من المنافقين : يا ويح هؤلاء المفتونين الذين
 هلكوا هكذا ، لاهم قعدوا في أهلهم ، ولاهم أدوا رسالة صاحبهم .
 فأنزل الله تعالى في ذلك من قول المنافقين : (ومن الناس من يعجبك
 قوله في الحياة الدنيا) أى لما يظهر من الإسلام بلسانه (ويشهد الله
 على ما في قلبه) وهو مخالف لما يقوله بلسانه (وهو ألد الخصام) ،
 أى ذو جدال إذا كلمك وراجعك . (وإذا تولى) أى خرج من عندك
 (سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب
 الفساد) أى لا يحب عمله ولا يرضاه . (وإذا قيل له اتق الله أخذته
 العزة بالإثم فحسبه جهنم وليست المهة . ومن الناس من يشري
 نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد) أى قد شروا أنفسهم
 من الله بالجهاد في سبيله ، والقيام بحقه ، حتى هلكوا على ذلك . يعنى
 تلك السرية .

وكان مما قيل في ذلك من الشعر قول خبيب بن عدى حين بلغه أن
 القوم قد اجتمعوا لصلبه :

لقد جمع الأحزاب حولي وألبوا قبائلهم واستجمعوا كل مجمع^(١)
 وكلهم مبدى العداوة جاهد على لأنى في وثاق بمضيع
 وقد جمعوا أبناءهم ونساءهم وقربت من جذع طويل ممنع

(١) ألبوا : جمعوا .

إلى الله أشكو غربتي ثم كُرتي
وما أرصد الأحزابُ لي عند مصرعي^(١)
فذا العرشِ ، صبرني على ما يراد بي
فقد بضَّعوا لحي وقد ياسَ مطمعي^(٢)
وذلك في ذات الإله وإن يشأُ
يُبارك على أوصالِ شلوي ممزَع^(٣)
وقد خيروني الكُفرَ والموتُ دونه
وقد هملتُ عيناى من غير مجزَع
وما بي حذارُ الموتِ إنِّي لميتٌ ولكن حذارى جحيمِ نارٍ ملفَّع^(٤)
فوالله ما أرجو إذا متُ مسلماً على أى جنبٍ كان في الله مصرعي^(٥)
فلستُ بمبدٍ للعدوِّ تخشعاً ولا جزعاً إنِّي إلى الله مرجعي
وقال حسَّان بن ثابتٍ يبكي خبيلاً:
ما بال عينك لا ترقا مدامعها سحاً على الصدر مثل اللؤلؤ القليق^(٦)

(١) أرصدوا : أعدوا .

(٢) بضَّعوا : قطعوا . ياس : يئس .

(٣) الشلوي : الجسد . الممزع : المقطع .

(٤) الجحيم : اضطراب النار . ملفَّع : يشمله من جميع نواحيه .

(٥) أرجو : أخاف .

(٦) ترقا : تسكن . السح : الصب .

على خبيبٍ قى الفتيان قد علموا
لا فُشل حين تلقاه ولا نزق^(١)
فاذهب خبيبُ جزاك الله طيبة
وجنة الخلد عند الحور في الرفق^(٢)
ماذا تقولون إن قال النبي لكم
حين الملائكة الأبرار في الأفق
فيم قتلتم شهيد الله في رجلٍ
طاغ قد أوعث في البلدان والرفق^(٣)

(١) من النزق ، وهو التسرع والطيش .

(٢) الرفق : جمع رفقة ، وهم الأصحاب .

(٣) الرفق ، بالتحريك : المرتع السهل المطلب .

حديث بئر معونة

في صفر سنة أربع

فأقام رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بقية شوال ، وذا القعدة ، وذا الحِجَّة — وولى تلك الحِجَّة المشركون — والمحرم ، ثم بعث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أصحابَ بئر معونة في صفر ، على رأس أربعة أشهر من أحد .

وكان قد قدم أبو براء عامر بن مالك بن جعفر ملاعب الأسنة على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فعرضَ عليه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الإسلامَ ودعاه اليه ، فلم يُسلم ولم يبعد من الإسلام وقال : يا محمد ، لو بعثت رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعَوْهم إلى أمرك رجوتُ أن يستجيبوا لك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إني أخشى عليهم أهل نجد . قال أبو براء : أنا لهم جارية ، فابعثهم فليدعوا الناس إلى أمرك .

فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم المنذر بن عمرو وأخا بني ساعدة ، «المُعْنَقَ ليموت»^(١) ، في أربعين رجلاً من أصحابه من خيار المسلمين ، منهم الحارث بن الصَّمَّة ، وحرام بن ملحان ، وعروة بن أسماء ،

(١) أعنق : أسرع . وإنما سمي بذلك لأنه أسرع إلى الشهادة .

ونافع بن بديل بن ورقاء، وعامر بن فهيرة مولى أبي بكر الصديق،
في رجالٍ مسلمين من خيار المسلمين، فساروا حتى نزلوا بيئر معونة،
وهي بين أرض بني عامر وحرّة بني سليم، كلا البلدين منها قريب،
وهي إلى حرّة بني سليم أقرب.

فلما نزلوها بعثوا حرام بن ملحان بكتاب رسول الله صلى الله
عليه وسلم إلى عدوّ الله عامر بن الطفيل. فلما أتاه لم ينظر في كتابه
حتى عدا على الرجل فقتله، ثم استصرخ^(١) عليهم بني عامر فأبوا أن
يجيبوه إلى ما دعاهم إليه، وقالوا: لن نخفر^(٢) أبا براء.
وقد عقد لهم عقداً وجواراً. فاستصرخ عليهم قبائل من
سليم فأجابوه إلى ذلك، فخرجوا حتى غشّوا القوم فأحاطوا
بهم في رحالهم، فلما رأوهم أخذوا سيوفهم، ثم قاتلوهم حتى
قتلوا من عند آخرهم، يرحمهم الله؛ إلا كعب بن زيد فإنهم تركوه وبه
رمق، فارتث^(٣) من بين القتلى، فعاش حتى قُتل يوم الخندق شهيداً،
يرحمه الله.

وكان في سرح القوم عمرو بن أمية الضمري، ورجل من الأنصار

(١) استصرخهم: استعان بهم.

(٢) نخفره: ننقض عهده.

(٣) الارتثاث: أن يحمل الجريح من المعركة وهو ضعيف قد أثخنه الجراح.

أحدُ بني عمرو بن عوف^(١)، فلم ينبئهما بمصاب أصحابهما إلا الطيرُ تحومُ
حول العسكر، فقالا: والله إن لهذه الطيرَ لشأنا. فأقبلا لينظرا فإذا
القوم في دمائهم، وإذا الخيل التي أصابتهم واقفة، فقال الأنصاري
لعمر بن أمية: ما ترى؟ قال: أرى أن نلحق برسول الله صلى الله
عليه وسلم، فنخبره الخبر. فقال الأنصاري: ما كنت لأرغب بنفسى
عن موطنٍ قُتِل فيه المنذر بن عمرو، وما كنت لتخبرني عنه الرجال!
ثم قاتل القومَ حتى قُتل.

وأخذوا عمرو بن أمية أسيراً، فلما أخبرهم أنه من مُضَرَ أطلقه
عامر بن الطفيل، وجز ناصيته، وأعتقه عن رقبةٍ زعم أنها كانت
على أمه، فخرج عمرو بن أمية حتى إذا كان بالقرقرة^(٢) من صدر
قناة^(٣)، أقبل رجلان من بني عامرٍ حتى نزلا معه في ظلٍ هو فيه.
وكان مع العامريين عقد من رسول الله صلى الله عليه وسلم وجوارٍ
لم يعلم به عمرو بن أمية، وقد سألهما حين نزلا: ممّن أنتم؟ فقالا: من
بني عامر. فأمهلهما حتى إذا ناما عدا عليهما، وهو يرى أنه قد أصاب

(١) هو المنذر بن محمد بن عقبة.

(٢) قرقرة الكدر، بينها وبين المدينة ثمانية برد.

(٣) واد يصب في قرقرة الكدر.

بهما ثورة^(١) من بني عامر ، فيما أصابوا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلما قدم عمرو بن أمية على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره الخبر ، قال الرسول صلى الله عليه وسلم : لقد قتلت قتيلين لأديتهما ! ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هذا عمل أبي براء ، قد كنت لهذا كارهاً متخوفاً !

فبلغ أبا براء فشقق عليه إخفارُ عامرٍ إياه ، وما أصاب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بسببه وجواره .

وكان فيمن أصيب عامر بن فهيرة .

عن هشام بن عروة عن أبيه ، أن عامر بن الطفيل كان يقول : من رجلٍ منهم لما قُتل رأيتُه بين السماء والأرض حتى رأيتُ السماء من دونه ؟ قالوا : هو عامر بن فهيرة .

(١) الثورة : الثأر .

إجلال بني النضير

في سنة أربع

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني النضير يستعينهم في دية ذينك القتيلين من بني عامر^(١)، اللذين قتل عمرو بن أمية الضمري؛ للجوار الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عقد لهما. وكان بين بني النضير وبين بني عامر عقد وحلف، فلما أتاها رسول الله صلى الله عليه وسلم يستعينهم في دية ذينك القتيلين قالوا: نعم، يا أبا القاسم، نعينك على ما أحببت بما استعنت بنا عليه.

ثم خلا بعضهم ببعض فقالوا: إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه — ورسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنب جدار من بيوتهم قاعد — فمن رجل يعلو على هذا البيت فيُلقي عليه صخرة فيريحنا منه؟ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب، أحدُهم، فقال: أنا لذلك. فصعد ليُلقي عليه صخرة كما قال، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في نفر من أصحابه، فيهم أبو بكر وعمر وعلي، رضوان الله عليهم.

فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر من السماء بما أراد القوم، فقام وخرج راجعا إلى المدينة. فلما استلبث^(٢) النبي صلى الله عليه وسلم

(١) انظر ما سبق في ص ٢٦٥.

(٢) استلبثه: استبطأه.

أصحابه قاموا في طلبه ، فلقوا رجلاً مقبلاً من المدينة فسأله عنه ، فقال :
رأيتُه داخلاً المدينة . فأقبل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم
حتى انتهوا إليه صلى الله عليه وسلم فأخبرهم الخبر ، بما كانت اليهود
أرادت من الغدر به . وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتهيؤ
لحربهم والسَّير إليهم . ثم سار بالناس حتى نزل بهم ، فتحصَّنوا منه
في الحصون ، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقطع النخيل
والتحريق فيها ، فنادوه : أن يا محمد ، قد كنتَ تنهى عن الفساد وتعيِّنه
على من صنعَه ، فما بالُ قطعِ النخيل وتَحريقها !

وقد كان رهطٌ من بني عوف بن الخزرج ، منهم عبد الله بن أبي بن
سلول ، ووديعة ، ومالك بن أبي قوقل ، وسويد ، وداعس ، قد بعثوا
إلى بني النضير ، أن اثبتوا وتمنعوا ، فإننا لن نسلِّكم ؛ إن قوتلتم
قاتلنا معكم ؛ وإن أخرجتم خرجنا معكم . فتربصوا ذلك من
نصرهم فلم يفعلوا ، وقذف الله في قلوبهم الرُّعب ، وسألوا رسول الله
صلى الله عليه وسلم أن يجليهم ويكفَّ عن دماءهم ، على أن لهم ما حملت
الإبل من أموالهم إلاَّ الحلقة^(١) . ففعل ، فاحتملوا من أموالهم ما استقلَّت
به الإبل ، فكان الرجلُ منهم يهدم بيته عن نجافِ بابهِ^(٢) فيضعه على
ظهر بعيره فينطلق به . فخرجوا إلى خير ، ومنهم من سار إلى الشام .

(١) الحلقة : السلاح كله .

(٢) النجاف : العتبة التي بأعلى الباب .

فكان أشرفهم مَنْ سار منهم إلى خير سلام بن أبي الحقيق،
وكنانة بن الربيع بن أبي الحقيق، وحي بن أخطب . فلما نزلوها دان
لهم أهلها .

حدثني عبد الله بن أبي بكر أنه حدث أنهم استقلوا بالنساء والأبناء
والأموال ، معهم الدفوف والمزامير ، والقيان يعزفن خلفهم ، وإن
فيهم لأم عمر و صاحبة عروة بن الورد العبسي التي ابتاعوا منه ^(١) ،
بزهاء وفخر ما رُئِيَ مثله من حي من الناس في زمانهم .

وخلو الأموال لرسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت له خاصة
يضعها حيث يشاء ، فقسّمها رسول الله صلى الله عليه وسلم على المهاجرين
الأولين دون الأنصار ، إلا أن سهل بن حنيف وأبا دجاجة سمالك بن
خرشة ذكرا فقرا ، فأعطاهما رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ونزل في بني النضير سورة الحشر بأسرها ، يذكر فيها ما أصابهم

(١) اسمها سلسى ، وكانت ناكحا في مزينة ، فأغار عليهم عروة بن الورد
فسبأها . وكان عروة يتردد على بني النضير فيستقرضهم إذا احتاج ويبيع منهم إذا
غنى . فرأوا عنده سلسى فأعجبته ، فسألوه أن يبيعها منهم فأبى ، فسقوه
الخنز وأحتالوا عليه حتى ابتاعوها منه وأشهدوا عليه . وفي ذلك يقول :

سقوني الخنز ثم تكسفوني عداة الله من كذب وزور

فيا للناس كيف غلبت نفسى على شيء ويكرهه ضميرى

الله به من نعمته ، وما سلَّط عليهم به رسوله صلى الله عليه وسلم وما
 عمل به فيهم ، فقال تعالى : (هو الذى أخرج الذين كفروا من
 أهل الكتاب من ديارهم لأوّل الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا
 أنهم ما نعمتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف
 في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين) وذلك
 لهدمهم بيوتهم عن نجف أبوابهم إذ احتملوها . (فاعتبروا يا أولى
 الأبصار . ولو لا أن كتب الله عليهم الجلاء .) وكان لهم من الله
 نقمة (لعذبهم فى الدنيا) ، أى بالسيف . (ولهم فى الآخرة عذاب
 النار) مع ذلك . (ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها)
 واللينّة : ما خالف العجوة من النخل (فبإذن الله) أى فبأمر الله قطعت ،
 لم يكن فساداً ، ولكن كان نقمة من الله (وليخزي الفاسقين . وما أفاء
 الله على رسوله منهم) يعنى من بنى النضير (فما أوجفتم عليه من خيل
 ولا ركاب ، ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شئ
 قدير . ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فليله وللرسول) : ما يوجف
 عليه المسلمون بالخيل والركاب وفتح بالحرب غنوة فله وللرسول (ولدى
 القرى واليتامى والمساكين وابن السبيل كيلا يكون دولة بين الأغنياء
 منكم وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا) .

يقول : هذا قسم آخر فيما أصيب بالحرب بين المسلمين على
 ما وضعه الله عليه .

ثم قال تعالى :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا) يعنى عبد الله بن أبى وأصحابه ومن كان
على كان على مثل أمرهم (يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل
الكتاب) يعنى بنى النضير ، إلى قوله (كمثل الذين من قبلهم ذاقوا
وبال أمرهم ولهم عذاب أليم) يعنى بنى قينقاع ، ثم القصّة إلى قوله :
(كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك
إني أخاف الله رب العالمين . فكان عاقبتهما أنّهما فى النار خالدين
فيها وذلك جزاء الظالمين) .

غزوة ذات الرقاع في سنة أربع

ثم أقام رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة بعد غزوة بني النضير شهرَ ربيع الآخر وبعضَ جمادى . ثم غزا نجداً يريد بني محارب وبني ثعلبة من غطفان ، واستعمل على المدينة أبا ذرٍّ الغفاريّ حتى نزل نخلاً ^(١) ، وهي غزوة ذات الرقاع ^(٢) . فلقى بها جمعاً عظيماً من غطفان ، فتقارب الناسُ ولم يكن بينهم حرب ، وقد خاف الناسُ بعضهم بعضاً حتى صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس صلاة الخوف ، ثم انصرف بالناس .

عن جابر بن عبد الله قال :

خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى غزوة ذات الرقاع من نخل ، على جملٍ لي ضعيف ، فلبثنا قفل رسول الله صلى الله عليه وسلم جعلت الرفاق تمضي ، وجعلت أتخلف حتى أدركني

(١) نخل : موضع بنجد من أرض غطفان .

(٢) إنما قيل لها ذات الرقاع لأنهم رقعوا فيها راياتهم . وقيل : ذات الرقاع شجرة بذلك الموضع يقال لها ذات الرقاع . وقيل : لأن الحجارة أوهنت أقدامهم فشدوا رقاعاً ، فسمي لها : ذات الرقاع .

رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : مالك يا جابر ؟ قلت : يا رسول الله ، أبطأ بي جملي هذا . قال : أُنِخْه . فَأُنِخْتُهُ وَأَنَاخُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثُمَّ قَالَ : أَعْطِنِي هَذِهِ الْعَصَا مِنْ يَدِكَ ، أَوْ اقْطَعْ لِي عَصَاً مِنْ شَجَرَةٍ . ففعلتُ ، فَأَخَذَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَخَسَّسَهَا بِهَا مَخَسَاتٍ ثُمَّ قَالَ : اركبْ . فركبتُ فخرجَ ، والذي بعثه بالحقِّ يواهُقُ ناقته مواهقة^(١) .

وتحدثت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لي : أتبيغني جملك هذا يا جابر ؟ قلت : يا رسول الله ، بل أهبه لك . قال : لا ، ولكن بعنيه . قلت : فسمنيه يا رسول الله . قال : قد أخذته بدرهم ! قلت : لا ، إذن تغبني يا رسول الله . قال : فبدرهمين ؟ قلت : لا . فلم يزل يرفع لي رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثمنه حتى بلغ الأوقية . فقلت : أفقد رضيت يا رسول الله ؟ قال : نعم . قال : فهو لك . قال : قد أخذته . ثم قال : يا جابر ، هل تزوجت بعد ؟ قلت : نعم يا رسول الله . قال : أثيبا أم بكرا ؟ قلت : لا ، بل ثيباً . قال : أفلا جارية تلاعبها وتلاعبك ؟ قلت : يا رسول الله ، إنَّ أبي أصيبَ يومَ أحدٍ وترك بناتٍ له سبعاً ، فنكحتُ امرأةً جامعةً ، تجمع رؤوسهنَّ وتقوم عليهنَّ . قال : أصبتَ إن شاء الله ، أما إنَّنا لو قد جئنا صراراً^(٢)

(١) يواهقها : يعارضها في المشي لسرعته .

(٢) صرار : موضع على ثلاثة أميال من المدينة .

أمرنا بحزورٍ فنجرت ، وأقمنا عليها يومنا ذاك ، وسمعت بنا
فنفضت نمارقها^(١) . فقلت : والله يا رسول الله مالنا من نمارق !
قال : إنها ستكون ، فإذا أنت قدمت فاعمل عملاً كيئسا .

فلما جئنا صراراً أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بحزورٍ
فنجرت ، وأقمنا عليها ذلك اليوم ، فلما أمسى رسول الله صلى الله
عليه وسلم دخل ودخلنا ، فحدثت المرأة الحديث وما قال لي
رسول الله صلى الله عليه وسلم . قالت : فدونك ، فسمع وطاعة .

فلما أصبحت أخذت برأس الجمل ، فأقبلت به حتى أنخته على
باب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم جلست في المسجد قريباً منه ،
وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى الجمل فقال : ما هذا ؟
قالوا : يا رسول الله ، هذا جمل جاء به جابر . قال : فأين جابر ؟
فدُعيت له فقال : يا ابن أخي ، خذ برأس جملك فهو لك . ودعا بلالاً
فقال له : اذهب بجابر فأعطه أوقية . فذهبت معه فأعطاني أوقية
وزادني شيئاً يسيراً ، فوالله ما زال ينمي عندي ، ويرى مكانه من
بيتنا حتى أصيب أمس فيما أصيب لنا — يعني يوم الحرّة .

(١) النمارق : جمع نمرقة ، وهي الوسادة الصغيرة .

وعنه أيضا قال :

خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة ذات الرقاع من نخل ، فأصاب رجلٌ امرأة رجلٍ من المشركين ، فلما انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم قافلاً أتى زوجها وكان غائبا ، فلما أخبر الخبر حلف لا ينتهي حتى يهريق في أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم دماً ! فخرج يتبع أثر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلاً فقال : مَنْ رجلٌ يكلؤنا ليلتنا هذه ؟ فأتدب رجلٌ من المهاجرين ورجل آخر من الأنصار فقالا : نحن يا رسول الله . قال : فكونا بفم الشعب . فلما خرج الرجلان إلى فم الشعب قال الأنصاري للمهاجري : أى الليل تحب أن أكفيك : أوله أم آخره ؟ قال : بل اكفى أوله . فاضطجع المهاجري فنام وقام الأنصاري يصلي .

وأتى الرجل ، فلما رأى شخص الرجل عرف أنه ريثة القوم ، فرمى بسهم فوضعه فيه ، فنزعه ووضعه فثبت قائماً . ثم رماه بسهم آخر فوضعه فيه ، فنزعه فوضعه وثبت قائماً ، ثم عاد له بالثالث فوضعه فيه . فنزعه فوضعه ثم ركع وسجد ، ثم أهب صاحبه (١) فقال : اجلس قد أثبت (٢) . فوثب ، فلما رآهما الرجل عرف أن قد نذرا به (٣) فهرب .

(١) أهبه إهباباً : أيقظه .

(٢) أثبتّه : جرحه جرحاً لا يمكنه التحرك معه .

(٣) نذرا به : علما به فتحرزا .

ولما رأى المهاجرى ما بالأنصارى من الدماء قال : سبحان الله ،
أفلا أهيبتنى أولَ مارماك ؟ قال : كنتُ فى سورةٍ أقرأها فلم أحبُّ
أن أقطعها حتى أنفدَها ، فلما تابع على الرَّمى ركعتُ فأذنتك . وإيمُ
الله لولا أن أضيّع ثغراً أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظه
لقطعتَ نفسى قبل أن أقطعها أو أنفدَها .

قال ابن إسحاق : ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة
من غزوة الرِّقاع أقام بها بقية جمادى الأولى وجمادى الآخرة
ورجبا .

غزوة بدر الآخرة

في شعبان سنة أربع

ثم خرج في شعبان إلى بدر ، لميعاد أبي سفيان ، حتى نزله .
فأقام عليه ثمانى ليال ينتظر أبا سفيان . وخرج أبو سفيان في أهل
مكة حتى نزل بَجَنَّة^(١) ، من ناحية الظهران ، ثم بدا له في الرجوع
فقال : يامعشر قريش ، إنَّه لا يُصلحكم إلا عامٌ خصيب ترعون فيه
الشجر ، وتشربون فيه اللبن ؛ وإنَّ عامكم هذا عامٌ جذب ، وإنِّي راجعٌ
فارجعوا .

فرجع الناس ، فسأهم أهل مكة « جيش السويق » . يقولون : إنما
خرجتم تشربون السويق .

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على بدر ينتظر أبا سفيان
لميعاده . فأتاه مخَشِشُ بن عمرو الضمري ، وهو الذى كان وادعه على
على بنى ضمرة فى غزوة ودَّان ، فقال : يا محمد ، أَجِئْتَ للقاء قريش على
هذا الماء . قال : نعم ، يا أخا بنى ضمرة ، وإن شئت مع ذلك رددنا
إليك ما كان بيننا وبينك ، ثم جالدناك^(٢) ، حتى يحكم الله بيننا وبينك .
قال : لا والله يا محمد ، مالنا بذلك منك من حاجة .

فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظر أبا سفيان ، فمرَّ به

(١) واستعمل على المدينة عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول الأنصارى .

(٢) المجالدة : المضاربة بالسيوف .

مَعْبِدُ بْنُ أَبِي مَعْبِدٍ الْخَزَاعِي ، قَالَ وَقَدْ رَأَى مَكَانَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى
اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَاقَتَهُ تَهْوِي بِهِ ^(١) :

قَدْ نَفَرْتُ مِنْ رُفْقَتِي مُحَمَّدٍ وَعَجْوَةٌ مِنْ يَثْرِبٍ كَالْعَنْجَدِ ^(٢)
تَهْوِي عَلَى دِينَ أَبِيهَا الْآتِلِدِ ^(٣) قَدْ جَعَلْتُ مَاءَ قُدَيْدٍ مَوْعِدِي ^(٤)
وَمَاءَ ضَجْنَانَ لَهَا ضَحَى الْغَدِ

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ فِي ذَلِكَ ^(٥) :

وَعَدْنَا أَبَا سَفْيَانَ بَدْرًا فَلَمْ نَجِدْ	لِمِيعَادِهِ صَدَقًا وَمَا كَانَ وَافِيًا
فَأَقْسِمَ لَوْ وَافَيْتَنَا فَلَقَيْنَا	لَأَبَتْ ذَمِيمًا وَافْتَقَدْتَ الْمَوَالِيَا
تَرْكُنَا بِهِ أَوْصَالَ عُتْبَةَ وَابْنِهِ	وَعَمْرًا أَبَا جَهْلٍ تَرْكُنَاهُ ثَاوِيَا ^(٦)
عَصَيْتُمْ رَسُولَ اللَّهِ أَفٍّ لَدَيْنَكُمْ	وَأَمْرِكُمُ السَّيِّئُ الَّذِي كَانَ غَاوِيَا
فَإِنِّي وَإِنْ عَنَّفْتُمُونِي لِقَائِلٌ	فَدَى لِرَسُولِ اللَّهِ أَهْلِي وَمَالِيَا
أَطْعَنَاهُ لَمْ نَعْدِلْهُ فِينَا بَغِيرُهُ	شَهَابًا لَنَا فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ هَادِيَا

(١) تهوى به : تسرع .

(٢) العنجدة : الزبيب الأسود .

(٣) الدين : الدأب والعادة . الآتلة : الأقدم .

(٤) قديد : موضع قرب مكة .

(٥) قال ابن هشام : أنشدنيها أبو زيد الأنصاري ، لسكعب بن مالك .

(٦) ثاويا : مقبلا .

غزوه دُومة الجندَل

في شهر ربيع الأول سنة خمس

ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة فأقام بها
شهرًا حتى مضى ذو الحِجَّة ، وولى تلك الحِجَّة المشركون ، وهى سنة
أربع من مَقْدَم رسول الله صلى الله عليه المدينة .

ثم غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم دُومة الجندَل^(١) ، ثم
رجع قبل أن يصل إليها ، ولم يلق كيدا ، فأقام بالمدينة بقية سنته .

(١) بضم الدال ، وتفتح : من أعمال المدينة ، بينها وبينها خمس عشرة ليلة .
وقد استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم على المدينة فى هذه الغزوة سباع
ابن عرفة .

غزوة الخندق

في شوال سنة خمس

ثم كانت غزوة الخندق في شوال سنة خمس .

إنه كان من حديث الخندق أن نفرأ من اليهود ، منهم سلام ابن أبي الحقيق النضري ، وحِي بن أخطب النضري ، وكنانة بن أبي الحقيق النضري ، وهوذة بن قيس الوائلي ، وأبو عمار الوائلي ، في نفر من بني النضير ونفر من بني وائل — وهم الذين حزبوا الأحزاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم — خرجوا حتى قدِموا على قريش مكة فدعَوْهم إلى حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله . فقالت لهم قريش : يا معشر يهود ، إنكم أهل الكتاب الأول ، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟ قالوا : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه .

فهم الذين أنزل الله تعالى فيهم : (ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً . أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً) إلى قوله (أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله) أي النبوة (فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة

وَأَتَيْنَاهُمْ مُلْكًا عَظِيمًا . فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى
بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا .

فَلَمَّا قَالُوا ذَلِكَ لِقُرَيْشٍ ، سَرَّهُمْ وَنَشِطُوا لِمَا دَعَوْهُمْ إِلَيْهِ مِنْ
حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَاجْتَمَعُوا لِذَلِكَ وَاتَّعَدُوا لَهُ ،
ثُمَّ خَرَجَ أُولَئِكَ النَّفَرِ مِنْ يَهُودَ حَتَّى جَاءُوا غُظْفَانَ ، فَدَعَوْهُمْ إِلَى
حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَأَخْبَرُوهُمْ أَنَّهُمْ سَيَكُونُونَ مَعَهُمْ
عَلَيْهِ ، وَأَنَّ قُرَيْشًا قَدْ تَابَعُوهُمْ عَلَى ذَلِكَ فَاجْتَمَعُوا مَعَهُمْ فِيهِ .

فَخَرَجَتْ قُرَيْشٌ وَقَائِدُهَا أَبُو سَفْيَانَ بْنِ حَرْبٍ ، وَخَرَجَتْ غُظْفَانُ
وَقَائِدُهَا عَيْدَةُ بْنُ حَصْنٍ فِي بَنِي فِزَارَةَ ، وَالْحَارِثُ بْنُ عَوْفٍ فِي أَبِي حَارِثَةَ
الْمُرِّي فِي بَنِي مُرَّةٍ ، وَمُسَعَّرُ بْنُ رُحَيْلَةَ فِيمَنْ تَابَعَهُ مِنْ أَتَّبَعِ .

فَلَمَّا سَمِعَ بِهِمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . وَمَا أَجْمَعُوا لَهُ مِنْ
الْأَمْرِ ، ضَرَبَ الْخَنْدَقَ عَلَى الْمَدِينَةِ ، فَعَمِلَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَرْغِيئًا لِلْمُسْلِمِينَ فِي الْأَجْرِ ، وَعَمِلَ مَعَهُ الْمُسْلِمُونَ فِيهِ ، فَدَأَّبَ
فِيهِ وَدَأَّبُوا ، وَأَبْطَأَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَعَنِ الْمُسْلِمِينَ
فِي عَمَلِهِمْ ذَلِكَ رِجَالٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ ، وَجَعَلُوا يُورَثُونَ^(١) بِالضَّرِيفِ

(١) التورية : أن يستر شيئاً ويظهر غيره .

مِنَ الْعَمَلِ ، وَيَتَسَلَّلُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا إِذْنَ . وَجَعَلَ الرَّجُلُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِذَا نَابَتْهُ النَّائِبَةُ مِنَ الْحَاجَةِ الَّتِي لَا بَدَّ لَهُ مِنْهَا ، يَذْكُرُ ذَلِكَ لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَيَسْتَأْذِنُهُ فِي اللُّحُوقِ بِحَاجَتِهِ ، فَيَأْذِنُ لَهُ ، فَإِذَا قَضَى حَاجَتَهُ رَجَعَ إِلَى مَا كَانَ فِيهِ مِنْ عَمَلِهِ ، رَغْبَةً فِي الْخَيْرِ وَاحْتِسَابًا لَهُ ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى فِي أَوْلَئِكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأُذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ ، وَاسْتَغْفِرَ لَهُمُ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) . فَتَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فَيَمْنُ كَانَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ مِنْ أَهْلِ الْحِسْبَةِ وَالرَّغْبَةِ فِي الْخَيْرِ ، وَالطَّاعَةِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى ، يَعْنِي الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ كَانُوا يَتَسَلَّلُونَ مِنَ الْعَمَلِ ، وَيَذْهَبُونَ بِغَيْرِ إِذْنٍ مِنَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : (لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ، قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) — قَالَ ابْنُ هِشَامٍ : اللَّوَاذُ : الْاسْتِثَارُ بِالشَّيْءِ عِنْدَ الْهَرَبِ — (أَلَا إِنَّ اللَّهَ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ)

مِنْ صَدَقٍ أَوْ كَذِبٍ (وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ
بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) .

ولما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من الخندق أقبلت قريش
حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رومة ، بين الجرف وزغبة ، في عشرة
آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة ، وأقبلت
غطفان ومن تبعهم من أهل نجد ، حتى نزلوا بذنب نقي إلى جانب
أحد ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمون ، حتى جعلوا
ظهورهم إلى سلع في ثلاثة آلاف من المسلمين ، فضرب هنالك عسكره ،
والخندق بينه وبين القوم ، وأمر بالذراري والنساء فجعلوا
في الآطام ^(١) .

وخرج عدو الله حيي بن أخطب النضري حتى أتى كعب بن أسد
القرظي ، صاحب عقد بني قريظة وعهدهم . وكان قد وادع رسول الله
صلى الله عليه وسلم على قومه وعاقده على ذلك وعاهده ، فلما سمع
كعب بحبي بن أخطب أغلق دونه باب حصنه . فاستأذن عليه فأبى أن
يفتح له ، فناداه حيي : ويحك يا كعب ! افتح لي . قال : ويحك يا حيي ،
أنك امرؤ مشثوم ، وإني قد عاهدت محمداً فلست بناقض ما بيني وبينه ،
ولم أر منه إلا وفاءً وصدقا . قال : ويحك ! افتح لي أكلبك . قال :

(١) الآطام : الحصون ، جمع أطم .

ما أنا بفاعل . قال : والله إن أغلقتَ دوني إلا عن جَشِيشَتِكَ^(١) أن
 آكلَ معك منها ! فأحفظَ الرجلَ ففتَحَ له ، فقال : ويحك يا كعب !
 جئتُك بعزِّ الدهرِ وبيحرِ طامٍ^(٢) ، جئتُكَ بقريشٍ على قاداتها وصادتها
 حتى أنزلتهم بمجتمعِ الأسيالِ من رُومة ، وبغطفانَ على قاداتها وصادتها
 حتى أنزلتهم بذنبِ نَقَمَى إلى جانبِ أحدٍ ، قد عاهدوني وعاهدوني على
 أن لا يبرحوا حتى نَسْتَأْصِلَ محمداً ومن معه . فقال له كعب : جئتني
 والله بذلِّ الدهرِ ، وبجَهَامٍ قد هراقَ ماءه ، فهو يردد ويبرق ليس
 فيه شيء ، ويحك يا حيٍّ ! فدعني وما أنا عليه ، فإنني لم أرَ من محمدٍ
 إلا صدقاً ووفاءً . فلم يزل حيٌّ بكعبٍ يفتِّله في الذروة والغارب^(٣)
 حتى سمح له على أن أعطاه عهداً من الله وميثاقاً ، لئن رجعت قريشٌ
 وغطفانُ ولم يصيبوا محمداً أن أدخلَ معك في حصنك حتى يُصيبني
 ما أصابك . فنقض كعب بن أسدٍ عهده ، وبرئ مما كان بينه وبين
 رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فلما انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبرُ وإلى المسلمين ،
 بعثَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم سعدَ بنَ معاذَ بنِ النعمانِ ، وهو

(١) الجشيشة : طعام من البر يطحن غليظاً .

(٢) طام : ممتلئ مرتفع الأمواج .

(٣) أي يختاله ويرأضه . وأصل المثل في البعير ، يفعل به ذلك ليسكن ويأنس .
 الذروة : أعلى السنام . والغارب : الكاهل ، وهو ما بين السنام إلى العنق .

يومئذٍ سيد الأوس ، وسعد بن عباد بن دليم ، وهو يومئذٍ سيد
الخزرج ، ومعهما عبد الله بن رواحة وخوات بن جبير ، فقال :
انطلقوا حتى تنظروا ، أحق ما بلغنا عن هؤلاء القوم أم لا ؟ فإن كان
حقاً فالحنوا^(١) لى لحناً أعرفه ، ولا تفتؤا فى أعضاء الناس^(٢) ؛ وإن كانوا
على الوفاء فيما بيننا وبينهم فاجهرؤا به للناس .

فخرجوا حتى أتوهم ، فوجدوهم على أخبث ما بلغهم عنهم فيما نالوا
من رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقالوا : من رسول الله ؟ لا عهد
بينا وبين محمد ولا عقد ! فشاتمهم سعد بن معاذ وشاتموه ، وكان
رجلاً فيه حدة . فقال له سعد بن عباد : دُع عنك مشاتمهم ، فما بيننا
وبينهم أربى^(٣) من المشاتمة . ثم أقبل سعد وسعد ومن معه إلى
رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلموا عليه ثم قالوا : عضل والقارة^(٤) !
أى كغدر عضل والقارة بأصحاب الرجيع : خبيب وأصحابه — فقال
رسول الله صلى الله عليه وسلم : الله أكبر ، أبشروا يا معشر
المسلمين !

(١) اللحن : التعريض والإشارة فى الكلام .

(٢) فت فى عضده : أوهه وأضعفه .

(٣) أربى : أزيد وأكثر .

(٤) انظر ما سبق فى ص ٢٥٥ .

وعظم عند ذلك البلاء واشتدَّ الخوف ، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم ، حتى ظن المؤمنون كل ظن ، ونجم النفاق من بعض المنافقين ، حتى قال معتب بن قشير : كان محمدٌ يعدُّنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا اليوم لا يأمن على نفسه أن يذهب إلى الغائط ، وحتى قال أوس بن قيطي : يا رسول الله ، إن بيوتنا عورة من العدو — وذلك عن ملأ من رجال قومه — فأذن لنا أن نخرج فنرجع إلى دارنا فإنها خارج من المدينة . فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقام عليه المشركون بعضاً وعشرين ليلة ، قريباً من شهر ، لم تكن بينهم حربٌ إلا الرَّمْيُ بالنبل والحصار .

فلما اشتدَّ على الناس البلاء بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عيينة بن حصن ، وإلى الحارث بن عوف المري ، وهما قائدَا غطفان فأعطاهما ثلث ثمار المدينة على أن يرجعا بمن معهما عنه وعن أصحابه . فجرى بينه وبينهما الصلح ، حتى كتبوا الكتاب ، ولم تقع الشهادة ولا عزيمة الصلح ، إلا المروضة في ذلك . فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفعل بعث إلى سعد بن معاذ وسعد بن عباد ، فذكر ذلك لهما واستشارهما فيه ، فقالا له : يا رسول الله ، أمرنا تحبُّه فنصنعه ، أم شيئاً أمرك الله به لا بدَّ لنا من العمل به ، أم شيئاً تصنعه لنا ؟ قال : بل شيءٌ أصنعه لكم ، والله ما أصنع ذلك إلا لأنني رأيت العرب قد

(١) الرمي : المراماة بالسهم .

رَمَتَكُمْ عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَكَالَبُوكُمْ ^(١) مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ، فَأَرَدْتُ أَنْ أَكْسِرَ عَنْكُمْ مِنْ شَوْكَتِهِمْ إِلَى أَمْرٍ مَا . فَقَالَ لَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، قَدْ كُنَّا نَحْنُ وَهَؤُلَاءِ الْقَوْمُ عَلَى الشَّرِّ بِاللَّهِ وَعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ ، لَا نَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا نَعْرِفُهُ ، وَهُمْ لَا يَطْمَعُونَ أَنْ يَأْكُلُوا مِنْهَا تَمْرَةً إِلَّا قَرَى ^(٢) أَوْ بَيْعًا ، أَخَفِينَا أَكْرَمَنَا اللَّهُ بِالْإِسْلَامِ وَهَدَانَا لَهُ وَأَعَزَّنَا بِكَ وَبِهِ نَعْطِيهِمْ أَمْوَالَنَا ! وَاللَّهِ مَا لَنَا بِهَذَا مِنْ حَاجَةٍ ، وَاللَّهِ لَا نَعْطِيهِمْ إِلَّا السَّيْفَ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ . قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : فَأَنْتَ وَذَلِكَ . فَتَنَاولَ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ الصَّحِيفَةَ ، فَمَحَا مَا فِيهَا مِنَ الْكِتَابِ ، ثُمَّ قَالَ : لِيَجْهَدُوا عَلَيْنَا .

فَأَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُسْلِمُونَ ، وَعَدُوُّهُمْ مُحَاصِرُهُمْ ، وَلَمْ يَكُنْ بَيْنَهُمْ قِتَالٌ إِلَّا أَنْ فَوَارَسَ مِنْ قَرِيشٍ مِنْهُمْ عَمْرُو بْنُ عَبْدِ وَدٍّ ، وَعَكْرَمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ وَهَبِيرَةُ بْنُ أَبِي وَهَبٍ الْخَزُومِيَانِ وَضَرَارُ بْنُ الْخَطَّابِ الشَّاعِرُ ، تَلَبَّسُوا ^(٣) لِلْقِتَالِ ، ثُمَّ خَرَجُوا عَلَى خَيْلِهِمْ حَتَّى مَرُّوا بِمَنَازِلِ بَنِي كَنْانَةَ فَمَتَالُوا : تَهَيَّؤُوا يَا بَنِي كَنْانَةَ لِلْحَرْبِ ، فَسَتَعْلَمُونَ مِنَ الْفَرَسَانِ الْيَوْمَ . ثُمَّ أَقْبَلُوا تَعْنُقَ ^(٤) بِهِمْ خَيْلَهُمْ حَتَّى وَقَفُوا عَلَى الْخَنْدَقِ ، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَالُوا : وَاللَّهِ إِنَّ هَذِهِ لِمَكِيدَةٌ مَا كَانَتْ الْعَرَبُ تَكِيدُهَا ^(٥) !

(١) المكالبة : المضايقة والتشديد . (٢) القرى : طعام الضعيف .

(٣) أى تهيئوا له . (٤) تعنق : تسرع .

(٥) قال ابن هشام : يقال إن سليمان الفارسي أشار به على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثم تيمّموا مكاناً ضيقاً من الخندق فضربوا خيلهم فاقتحمت منه ، فجالت بهم في السبّخة بين الخندق و سَلْع ، وخرج عليّ بن أبي طالب عليه السلام في نفرٍ معه من المسلمين ، حتى أخذوا عليهم الشَّغرة التي أقحموا منها خيلهم ، وأقبلت الفُرسان تُعْنِقُ نحوهم .

وكان عمرو بن عبد ودٍ قد قاتلَ يومَ بدر حتى أثبتته الجراحة فلم يشهدْ يومَ أحدٍ . فلما كان يومَ الخندق خرجَ مُعَلِّياً^(١) ليرى مكانه فلماً وقف هو وخيله قال : مَنْ يُبَارِزُ ؟ فبرز له عليّ بن أبي طالبٍ فقال له : يا عمرو ، إنَّكَ كنتَ قد عاهدتَ الله ألاَّ يدعوكَ رجلٌ من قريشٍ إلى إحدى خلتين إلاَّ أخذتها منه . قال له : أجل ! قال : فإني أدعوكَ إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام . قال : لا حاجة لي بذلك . قال : فإني أدعوكَ إلى النزال ، فقال له : لمَ يا ابنَ أخي ؟ فوالله ما أحبُّ أن أقتلك . قال له عليّ : لكنِّي والله أحبُّ أن أقتلك ! فحِمَى عمرو عند ذلك فاقتحمَ عن فرسيه ، ففَعَّرَـه وضرب وجهه ، ثم أقبلَ على عليّ ، فتنازلا وتجاولا ، فقتله عليٌّ رضي الله عنه .

وخرجت خيلهم منهزمةً حتى اقتحمت من الخندق هاربة .
وألقيَ عكرمةُ بن أبي جهلٍ رُمَحَه يومئذٍ وهو منهزمٌ عن عمرو ،
فقال حسان بن ثابتٍ في هذا :

(١) المعلم : الذي يجعل لنفسه علامة في الحرب يعرف بها .

فَرَّ وَأَلْقَى لَنَا رِمْحَهُ لَعَلَّكَ عِزُّكَ لَمْ تَفْعَلْ
وَوَلَّيْتَ تَعْدُو كَعْدُو الظَّالِمِ مَا إِنْ تَجُورُ عَنِ الْمَعْدِلِ^(١)
وَلَمْ تَلَوْظْ هَرَكِ مُسْتَأْنَسًا كَأَنَّ قِفَاكَ قِفَا فُرْعُلِ^(٢)

وكان شعار^(٣) أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق
وبنى قريظة: «حم لا ينصرون» .

وأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فيما وصف الله من
الخوف والشدة، لتظاهر عدوهم عليهم، وإتيانهم من فوقهم ومن
أسفل منهم .

ثم إن نعيم بن مسعود أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم
فقال: يا رسول الله، إني قد أسلمت، وإن قومي لم يعملوا بإسلامي
فمرني بما شئت . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنما أنت
فينا رجل^(٤)، واحد نخذل عنا^(٥)، إن استطعت، فإن الحرب خدعة .

فخرج نعيم بن مسعود حتى أتى بني قريظة، وكان لهم نديماً في
الجاهلية، فقال: يا بني قريظة، قد عرفتم ودِّي إياكم، وخاصة ما بيني
وبينكم . قالوا: صدقت، لست عندنا بمثهم . فقال لهم: إن قريشاً
وغطفاناً ليسوا كأنتم، البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبنائكم ونسائكم .

(١) الظلم: ذكر النعام، وهو المثل في الجبن . تجور: تحيد . المعدل: الطريق .

(٢) الفرعل: الصغير من الضباع .

(٣) الشعار: العلامة التي كانوا يتعارفون بها في الحرب .

(٤) أي ادخل بين القوم حتى يخذل بعضهم بعضاً .

لا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره ، وإن قريشا و غطفان قد
جاءوا للحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه ، وبلدكم وأموالهم
ونسائهم بغيره ، فليسوا كأتم ، فإن رأوا هزة أصابوها ، وإن كان
غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل بيلدكم ، ولا طاقة
لكم به إن خلا بكم . فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنا
من أشrafهم ، يكونون بأيديكم ، ثقةً لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً
حتى تنجزوه . فقالوا له : لقد أشرت بالرأى !

ثم خرج حتى أتى قريشاً فقال لأبي سفيان بن حرب ومن معه
من رجال قريش : قد عرفتم ودّي لكم وفراقى محمداً ، وإنه قد بلغني
أمرٌ قد رأيت على حقاً أن أبلغكموه ، نصحاً لكم ، فاكتموا عني
فقالوا : نفعل . قال : تعلّموا أن معشر يهود قد ندّموا على ما صنعوا
فيما بينهم وبين محمد ، وقد أرسلوا إليه : إنا قد ندّمنا على ما فعلنا ، فهل
يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين من قريش و غطفان رجلاً من
أشrafهم فنعطيكهم فتضرب أعناقهم ، ثم نكون معك على من بقي
منهم حتى نستأصلهم ؟ فأرسل إليهم : أن نعم . فإن بعثت إليكم
يهودٌ يلتمسون منكم رهناً من رجالكم فلا تدفعوا إليهم منكم رجلاً
واحداً .

ثم خرج حتى أتى غطفان فقال : يا معشر غطفان ، إنكم أصلي
وعشيرتي ، وأحب الناس إليّ ، ولا أراكم تتهموني . قالوا : صدقت ،

ما أنتَ عندنا بمتهم . قال : فاكتموا عني . قالوا : نفعل . ثم قال لهم
مثل ما قال لقريش ، وحذّرهم ما حذّرهم .

فلما كانت ليلة السبت من شوّال سنة خمس ، وكان من صنع الله
لرسوله صلى الله عليه وسلم أن أرسل أبو سفيان بن حرب وريّوس
غطفان إلى بني قريظة عكرمة بن أبي جهل ، في نفرٍ من قريش
وغطفان ، فقالوا لهم : إنّنا لسنا بدارٍ مُقام ، قد هلك الخفّ والحافر^(١) ،
فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً ، ونفرغ مما بيننا وبينه . فأرسلوا إليهم :
إنّ اليوم يوم السبت ، وهو يومٌ لا نعمل فيه شيئاً ، وقد كان أحدث
فيه بعضنا حدثاً فأصابه ما لم يخفَ عليكم ، ولسنا مع ذلك بالذين
نقاتل معكم محمداً حتى تُعطونا رهناً من رجالكم يكونون بأيدينا ثقةً
لنا ، حتى نناجز محمداً ؛ فإنّا نخشى إنْ ضرستكم^(٢) الحرب واشتدّ
عليكم القتال أن تنشمروا^(٣) إلى بلادكم ، وتتركونا والرجل في بلدنا ،
ولا طاقة لنا بذلك منه !

فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش
وغطفان : والله إنّ الذي حدثكم نعيم بن مسعودٍ لحقّ ، فأرسلوا إلى
بني قريظة : إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا ، فإن كنتم

(١) الخفّ : الإبل . والحافر : الخيل .

(٢) ضرستكم : نالت منكم .

(٣) انشمروا : انقبضوا وأسرعوا إلى بلادهم .

ثريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا . فقالت بنو قريظة ، حين انتهت
الرسُلُ إليهم بهذا : إنَّ الذي ذكر لكم نعيمٌ لحقَّ ! ما يريد القوم إلا
أن يقاتلوا ، فإن رأوا فرصةً انتهزوها ، وإن كان غير ذلك انشمروا
إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل في بلدكم . فأرسلوا إلى قريش
وعطفان : إنا والله لا نقاتل معكم محمداً حتى تُعطوا رهنًا . فأبوا
عليهم وخذل الله بينهم ، وبعث الله عليهم الرِّيحَ في ليالٍ شاتية باردة
شديدة البرد ، فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنيتهم .

فلما انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما اختلف من أمرهم ،
وما فرَّق الله من جماعتهم ، دعا حذيفة بن اليمان ، فبعثه إليهم لينظر
ما فعل القوم ليلاً .

عن محمد بن كعب القرظي قال :

قال رجلٌ من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان : يا أبا عبد الله ،
أرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحبتموه ؟ قال : نعم ، يا ابن أخي .
قال : فكيف كنتم تصنعون ؟ قال : والله لقد كنَّا نجهد . فقال :
والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض ، ولحملناه على أعناقنا .
فقال حذيفة : يا ابن أخي ، والله لقد رأيتنا مع رسول الله صلى الله عليه
وسلم بالحنْدَقِ وصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هوَ يَأْمَنُ الليل (١) ،

(١) هو يامن الليل : قطعة منه .

ثم التفت إلينا فقال : من رجل يقوم فينظر ما فعل القوم ثم يرجع —
يشترط له رسول الله صلى الله عليه وسلم الرجعة — أسأل الله تعالى
أن يكون رفيقي في الجنة ؟ فما قام رجل من القوم ، من شدة الخوف ،
وشدة الجوع ، وشدة البرد . فلما لم يقيم أحداً دعاني رسول الله صلى الله عليه
وسلم فلم يكن لي بد من القيام حين دعاني ، فقال : يا حذيفة ، اذهب فادخل
في القوم فانظر ماذا يصنعون ، ولا تحدث شيئاً حتى تأتينا ! فذهبت
فدخلت في القوم والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل ، لا تقصر لهم
قدراً ولا ناراً ولا بناء . فقام أبو سفيان فقال : يا معشر قريش ، لينظر
امرؤ من جلسه ؟ قال حذيفة : فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى
جنبى ، فقلت : من أنت ؟ قال : فلان بن فلان ^(١) .

ثم قال أبو سفيان : يا معشر قريش ، إنكم والله ما أصبحتم بدار
مقام ، لقد هلك الكراع والخف ، وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا عنهم
الذى نكره ، ولقينا من شدة الريح ما ترون ، ما تطمئن لنا قدر ، ولا
تقوم لنا نار ، ولا يستمسك لنا بناء ، فارتحلوا فإني مرتحل .

ثم قام إلى جملة وهو معقول فجلس عليه ، ثم ضربه فوثب به على
ثلاث ، فوالله ما أطلق عقاله إلا وهو قائم ، ولو لا عهد رسول الله

(١) في شرح المواهب : « فضربت يدي على يد الذى عن يمينى فأخذت بيده
فقلت : من أنت ؟ قال : معاوية بن أبي سفيان . ثم ضربت يدي على يد الذى
عن شمالى ، فقلت : من أنت ؟ قال : عمرو بن العاص » .

• صلى الله عليه وسلم إلى : « أن لا تحدث شيئاً حتى تأتيني » ثم شئتُ
لقتلته بسهم .

قال حذيفة : فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قائمٌ
يعمل في مرط^(١) لبعض نسائه مَراجل^(٢) ، فلما رآني أدخلني إلى رجله ،
وطرح عليَّ طرفَ المرط ، ثم ركع وسجد وإني لفيه . فلما سلم أخبرته
الخبر .

وسمعت غطفان بما فعلت قریش فانشمروا راجعين إلى بلادهم .
ولما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرف عن الخندق
راجعاً إلى المدينة والمسلمون ، ووضعوا السلاح .

تم الجزء الأول
من تهذيب السيرة

(١) المرط : الكساء .

(٢) المراحل : ضرب من وشى اليمن .



تم بحمد الله طبع هذا الجزء بمطابع دار سعد مصر بالقاهرة م

المدير
محمد حمدى سيد

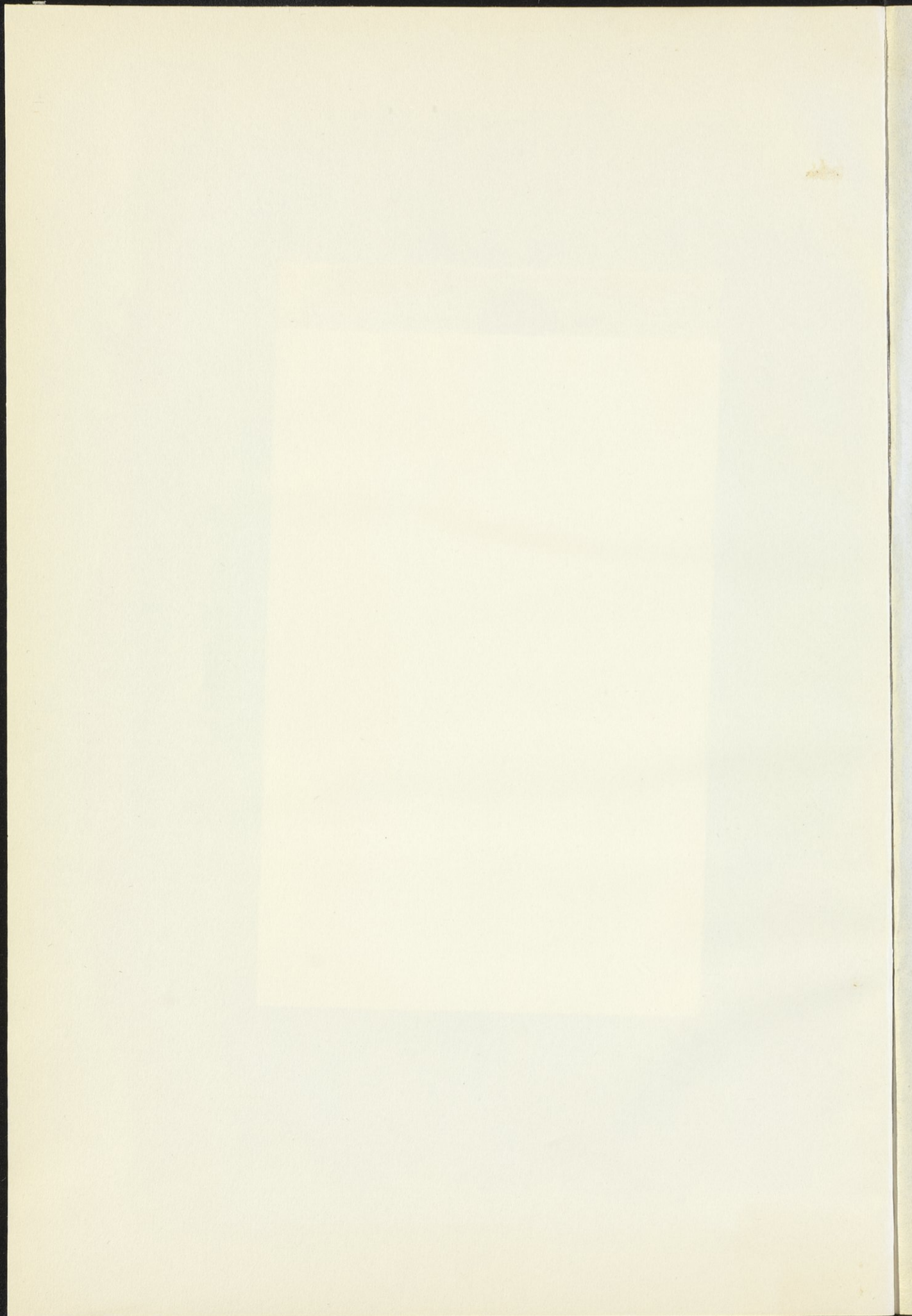
١٣٧٤ هـ - ١٩٥٥ م



U. S. DEPARTMENT OF AGRICULTURE

WAS - 4717

1917
The Director



DATE DUE

AUG 07 1999

SEP 29 1999

Printed
in USA

COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0043827209

BP
75
.I2
1955
v. 1

11649650

FEB 22 1973

